

مجنون الحكم

سالم حميش

رواية



18



الهيئة العامة للمراكز الثقافية
GENERAL ORGANIZATION for
CULTURE CENTERS

آفاق الكتابة





آفاق للكتابة

مجنون الحكم

رواية

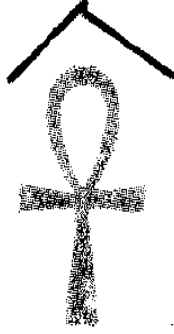
رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

رئيس التحرير
ابراهيم أصلان

مدير التحرير
حمدي أبو جليل

المشرف العام
علي أبو شادي

أمين عام النشر
محمد كشيك



آفاق الكتابة

آفاق الكتابة
(18)

مجنون الحكم
رواية
سالم حميش

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 1998

أرضية الغراف
للغنانة : ميسون صقر
لوحة الغراف :
للغنان : جون فونزيه -
رهينة - 1945

مقدمة خوان غويتصولو للطبعة الأسبانية من «مجنون الحكم»

* إن الرواية المكتوبة بالعربية قد دخلت - في تقديري - طور البحث عن أشكال جديدة. ففي حين أن الرواية الفرنسية أو الإيطالية - ونقصر التمثيل عليهما تجنباً لإثارة حساسيات أكثر قرباً - تعرف نوعاً من التراجع البطيء بفعل فقدانها للشهية ومعارضتها للجدّة، فإن الرواية المكتوبة من طرف جيراننا في الضفة الأخرى، تتخلص شيئاً فشيئاً من محاكاتها للنماذج الأوربية، وتتمثل حتى من دون أن تعرفها كلمات چاودي النيرة النبوية: «إن الأصالة تكمن في «العودة إلى الأصل». وعلى غرار بعض كبار كتاب القرن العشرين من جويس إلى أرنو شميت، الذين ترتبط كتاباتهم قصدياً بشفوية نصوص العهد الوسيط الأدبية و«نموها الوراثة»، فإن جيلاً من الكتاب في العالم العربي يكتشفون حداثة مفقودة في الحوليات التاريخية وأدب الرحلات وفي قطيعات وتحولات الزمان والمكان المدوخة عند ابن عربي وأقطاب صوفيين آخرين. وكما سبق لي أن كتبت في مناسبة أخرى: «إن للحداثة قوانين تجهلها الكرونولوجيا».

«مجنون الحكم» للكاتب المغربي بنسالم حميش، تشكل الدليل

الساطع على هذه «المعاصرة اللازمية». إن هذه الرواية كـ «الزيني بركات» أو تحف فويتس ورووا باسطوس، بعيدة حقا عن أن تكون رواية تاريخية عادية، ولو أنها منبئية علي شخصية تاريخية هو أبو علي منصور (ولقبه الحاكم بأمر الله)، أحد خلفاء الدولة الفاطمية التي حكمت مصر من سنة 973 الي 171م، ويرجع اليها عمل تشييد القاهرة الفاتنة، المخترقة حتى هذا العهد بزقاق المعز لدين الله، المتأكلة المنهدمة البيئسة الجميلة.

إن رواية حميش قائمة علي اللاخطية المجانبة للتطور الدرامي، الميسرة لعملية تشكيل وتفكيك الشخصية المركزية. الحكى عنده يبحر بضربات مجدافية ويستبطن تناقضات المستبد (الحاكم) حتى يحولها الي محور أو قطب رحي انسجاميته الداخلية وهي انسجامية بين نص ممفصل وشخصية متقلبة، يعرف المترجمون صاحبها: «وكان جوادا سمحا، خبيثاً ماكرأ»، يتأرجح دوما «بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل الي الصلاح وقتل الصلحاء».

وكما يشير بحق صاحب هذه الترجمة الممتازة الي الإسبانية فديكو أربوس: «فإن الروائي حميش في شواهد المدخلية كما في مقاطع المؤرخين طي النص يُعمل انتقاء بالغ الدقة للمصادر الإخبارية العربية، من مصنفات القرن الحادي عشر الي التواريخ

العامة والإقليمية في القرن الخامس عشر ميلادي»، وهذا التنوع في وجهات النظر المتناقضة يخدم خطاطة حميش في خلق نص ممزوج، مكون من مقاطع وألوان، ومن أشكال وأحجام مختلفة: فالحاكم (على هذا النحو) يُنظر إليه جوانيا وبرانيا، من طرف مفسرين مطاوع أو صارمين، خاضعين حتى المهانة أو معارضين حتى الإفراط.

إن فصل الرواية الأول يختصر ويكسر السرد بواسطة مقاطع متواترة، فكل فقرة تحويل لسابقتها أو انتقال بها من حدود ما الى انصهار في غيرها، وفي هذا التعاقب لسرديات متعارضة، من يلزم أن نثق به؟ هل بالإخباري الخاضع المتزلف؟ أم بالداعية المتهافت؟ أم بالضحية البريئة لحكم النزوات والخروقات؟

إننا نعلم منذ سرفنتيس أن الرواية هي مملكة الشك: فادعاءات تاريخ قائم عادة على حكايات وأفعال خرافية (مصطنعة) تعارضها الرواية بحقيقة الخيال الخلاق وأمانة العمل المتعري من الأقنعة ومن مهازل كل أسطورة مرفوعة الى سدة الحقيقة الدوغمائية المتفشية. فالحاكم هو واحد ونقيضه، وهو التيولوجي المتواضع والكائن المؤله، وهو الباني المشيد ومضرم النيران. إن ثناياه وطوياته مطابقة لكمدة صخرة محلاة من طرف خبير جيولوجي، فأى حكم أخلاقي يمكننا إصداره على بنية بركانية صارت شظايا تحت ضربات المطرقة؟ لقد كُتب التاريخ على أيدي الغالبين الذين كان مهمهم الأول

إسكات صوت المغلوبين، وبالتالي، ما كان موضع تمجيد سيؤول ذات يوم الي رماد بفضل تعقّب المخطوطات أو بفعل اتلافها بالنار. إن تزييفات المتحكمين وإقحاماتهم تصير مؤقتا، وأحيانا علي الدوام، حقائق راسخة صلبة. والروائي يعرف هذا، فيجعل في فم مؤرخ وجد بالفعل، هو المختار المسبحي، كلاما ملتبسا في الدفاع عن حكايات منحولة تتقصد إدهاش المؤرخين «الميثولوجيين» اللاحقين، الذين حفلت بهم إسبانيا كما الشأن في العالم العربي: «لكن يا مولاي، هذا النص المنظوم بالشعر والخيال، سيتحول بالتدريج الي وثيقة صحيحة يكرر نسخها حتى أقرب المؤرخين الي قيام الساعة، وأنا أراها من الأهمية والنفاسة، بحيث يحسن روايتها كما تروى كل الوثائق التي بدأت خيالا، ثم صارت تاريخاً» (ص 215 في الأصل).

إن «مجنون الحكم» هي إذن، دفاع تنويهي عن حقيقة الخيال ضد ثغرات وافتراءات وبياضات مصنفات التاريخ المسخرة من طرف أقطاب الدوغمائية الرسمية ومحرري برامجهم الثقافية. وفي فصول الرواية تتناوب الإخبارية والباروديا عبر سرود تخيلية، ولكنها متأصلة في التراث الأدبي والشعبي العربي: فحكاية العبد مسعود، الزاخرة بالهزل، كأنما هي مستقاة من «ألف ليلة وليلة»، كما أن سخرية رقيقة تفوح من مجالس الحاكم في «دهن البنفسج» أو «لطلب الدهشة» أو «الإلهيات بين الدعاء».

أما الفصل المخصص لمغامرة أبي ركة العسكرية وهزيمته فيها، فإنه يكسر بنحو ما توازن الخط التعالقي للحكى، إلا أن انتقام الحاكم الدموى من بطاقات المصريين فى التنكيت عليه والتشهير به، وكذلك الصفحات المتعلقة بمقتله وبمحاولات التسميم والمؤامرات البلاطية التي دبرتها الأميرة ست الملك، أخت الحاكم، كل ذلك يتيح للكاتب معاودة الكرة وإكمال إبحاره المثير الذكى.

تماشيا مع رغبة الحاكم فى إحدى لحظات صفوه ونقده الذاتى النادرة، نسجل أن رواية «مجنون الحكم» تأخذ على عاتقها الصدع بما يتناساه المؤرخ ويسكت عنه، أى الصرخات المضمرة والتمزقات المستشرية والحقائق الحية.

**** معرفتي ****

www.books4all.net

منتدىات سور الأزيكية

مدخل الدخان

«وكان الحاكم بأمر الله سييء الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال...
وكان مؤاخذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً
وأجياً وأقام هيبة عظيمة وناموساً».

الوزير جمال الدين، أخبار الدول المنقطعة.

«وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة
للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وكان الغالب
عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط».

سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان.

«وكان جواداً سمحاً، خبيثاً مأكراً، رديء الاعتقاد، سفاكاً للدماء، قتل
عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً».

الحافظ الذهبي، تاريخ الإسلام.

«وكان رديء السيرة، فاسد العقيدة، مضطرباً في جميع أموره، يأمر
بالشيء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه».

المكين ابن العميد، تاريخ المسلمين.

«وكانت سيرته من أعجب السير. وخطب له على منابر مصر والشام
وأفريقية والحجاز. وكان يشتغل بعلوم الأوائل وينظر في النجوم، وعمل
رصداً واتخذ بيتاً في المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك. ويقال إنه كان
يعتريه جفاف في دماغه، فلذلك كثر تناقضه، وما أحسن ما قال فيه
بعضهم: كانت أفعاله لا تُعلل، وأحلام وساوسه لا تؤول».

المقريزي، الخطط.

I

هو

أبو علي منصور (الملقب بالحاكم بأمر الله) ابن العزيز بالله نزار ابن المعز بالله معد (فاتح مصر وباني القاهرة والأزهر) ابن المنصور بالله إسماعيل ابن القائم بأمر الله محمد ابن المهدي عبيد الله (مؤسس دولة الفواطم في أدنى المغرب)...

هو:

«العبيدي الفاطمي، المغربي الأصل، المصري المولد والدار والمنشأ، الثالث من خلفاء مصر من بني عبيد والسادس منهم ممن ولي من أجداده بالمغرب (...)».

مولده يوم الخميس لأربع ليالٍ بقين من شهر الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة بالقاهرة؛ وقيل: في الثالث والعشرين منه. وولاه أبوه العزيز عهدَ الخلافة في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، وبويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة؛ فولي الخلافة وله إحدى عشرة سنة ونصف، وقيل: عشر سنين ونصف وستة أيام، وقيل غير ذلك»^(١).

هو:

من أجمع المؤرخون على أن خلافته كانت «متضادة»، وسيرته عجيبة، وأفعاله مظلمة «تشيب لها النواصي»، وتتحير في

فهمها وتعليلها عقول الناس من عامة وأكابر.

هو:

من قال النفسيون بإصابته في أثناء شبابه بضرب من المالنخوليا أو جفاف الدماغ وفساد المزاج، مما حمله على الاسراف في القتل وسفك الدماء بشتى أنواع السلاح وبالأحراق. وقال فيه المنجمون أقوالاً كثيرة وأجمعوا على رد طبعه الدموي إلى كونه كان يخدم زحل وطالعه المريخ، فيتقرب إليهما بذبح الأدميين وإزهاق أرواحهم.

هو:

من ألهه دعائه، وقالوا بنزول الآية العاشرة من سورة الدخان متنبئة بظهوره، وساروا، مأذونين ومكالبين، في سبيل جذب النفوس إليه، وعقد العهود والمواثيق على الإيمان بمطلق عصمته وحلول اللاهوت في ناسوته. وظلوا بين التخفي والتجلي ينظمون المجالس والأسلاك، ويضعون الرسائل والوثائق، حتى اختلفوا في توقيت إظهار الدعوة الفاطمية الجديدة وإعلان نقض الشرائع، فتهاكلوا وتفاسقوا، فخفت ريحهم داخل مصر بعد مقتل الحاكم بإيعاز من أخته ست الملك - في السنة الحادية عشرة من القرن الخامس. ولم ينج بالدعوة إلى بوادي جبال الشام - حسب ما يذكره قزأوغلي وغيره من المؤرخين - إلا نوشتكين التركي، وهو محمد بن إسماعيل الدرزي الذي تمكن هناك من بث مذهبه وتحويله إلى ديانة ما زالت إلى عهدنا هذا تقوم باسمه وتحمل بصماته.

*

في فترة ما قبل ظهور الدعوة الجديدة إلى صريح العبارة والتداول، وطيلة العقد الثاني من ربع قرن الحاكم، كان

الدعاة، على اختلاف مطامحهم ورؤاهم، يقتفون أثر إمامهم أيام خلواته وسياحاته الليلية، لا شغل لهم ولا هم إلا نسخ ما يجهر به من «جليل الكلام» وبليغه ودقيق الالهام وخطيره، ثم تهيب ما يلتقطونه تحت عناوين عامة يتمايزون في وضعها، ومنها: الخطرات القهرية والشذور الشعشعانية والنفحات الشطحية، وغيرها. وكانوا لهذا القصد كالكائنات الروحانية يرافقون الحاكم سراً ومن غير علمه، سواء حل بجبل المقطم أو بإسطبل الطارمة أو بصحراء الهرم، وغيرها من أماكن اعتصامه وتهجداته. وكانت الساعات الطوال تمضي متباطئة وهم منصرفون إلى تجسسهم، أجسادهم لازقة بالصخر والحيطان، وعيونهم وأذانهم على الثقب والطيقان، لا تنهيم عنه السنة القيظ أو البرد الشرسة، ولا أشباح الظلمات الدامسة.

وكان الدعاة في بداية عهدهم يجتمعون دورياً لينظروا في ما حصدوه من خطرات أمامهم ويقارنوا بطائقتهم ويتعاونوا على تنقيحها وملء بياضاتها، ثم يصوغونها في نص متكامل يحظى برضاهم، ويلهب البابهم وجوارحهم، فيلحقونه بنصوصهم السرية، التي يعملون فيها التأويل إعمالاً باطنياً جارفاً كثيفاً، ولا يطلعون عليها إلا الخواص الأوفياء والمنجذبين إلى سلك «العقلاء». ومن بين هذه النصوص - وقد دثر معظمها وضاع - عُثر على نص أتى تفاريق، وأكد الدعاة أنهم التقطوه من فم الحاكم، ولا دخل لهم فيه إلا من حيث الترتيب ووضع العناوين، ومما ورد فيه:

II

أنا الدخان المبين

التاريخ سيعقلني

باسم الحكم بأمر الله ولفة الضاد، ميال أنا إلى الأقصى
وصراع الأضداد، من فهمني أدرك أن عهدي لا بد وأن يكون
مشهوداً، وإلا فهو والخردلة على حد سواء. وقد أثرت بما
أوتيت من جوارح وملكات أن يكون مشهوداً، أي مفتوناً
بالطوارئ وعظيم النزوعات، حتى إذا ما انقضى خُلف وراءه
شظايا العزم والبراكين المشتعلة.

التاريخ لا يفتح أذانه ودواوينه إلا لخطير الأخبار
والحالات، التي لها القدرة على خبطه وهتك أبعاده.

التاريخ لا يذكر إلا من طبعه وقلم اعوجاجه باعوجاج
مضاد. إنه فاسد الطبع، يهوى من يكسر ثقافته وتقاليدته
ويقض مضاجعه.

لذا أعدكم أن التاريخ سيعقلني!

وقفه لو

لو نطقتُ بغير ما ينطق به الليل العربي والمصير، لكنتُ مثل
ذلك الحكيم المدجج بالأمثال، والذي قال: شتان ما بين الحرف

والدهر! فليسقط الدهرُ وليبرزِ الحرفُ، وهيئاتٌ ثم هيئاتٌ
هيئاتاً!

عن انهزام السلام

هذه الطبيعة التي تحتويننا، أمنا جميعاً، لكأني بها ساحرة
متعهرة عجوز، تطلق الأمازيج المأتمية، وتوزع أرمدة النهايات
في أوعية بلورية الشكل تضيء وتميت. ولكأني بها ترسم منحدر
الخفقة والتنهيدة نحو السكون، ومنحدرَ العناصر كلها نحو
الزوال والتآكل.

ولكم في خضم النازلات والوقائع أن تكذّوا في التقاط أنباء
الحب والمسرة والأمان، فإن أفلحتم، كانت أنباء كالتراويح،
هي والنوافل على حد سواء.

أفما رأيتم أن الجوهر الأساس لا ينبىء إلا عن الكوارث
الطبيعية والحمامات الدموية والهدوء المشوب بالحدرا!
أفما اقتنعتم أن السلم في التاريخ لا يحكي إلا هزائمه
وانسحاق الورد والحمام!

إياكم والبياض

المحبة والإخاء من صفات أهل الجنة.
والجنة موعودة وليست من هذه الدنيا الدنية.
أما الدنيا فقائمة على العداوة والصراع من أجل البقاء.
وتلك كانت آية البدء المتناسخة في العودة والاسترسال.
لا بد لكم، وحق فاطمة الزهراء، من أعداء ولا بد لأعدائكم
منكم.

أعداؤكم مقياس قوتكم، فواجهوهم إن ظهروا، وابعثوا
عنهم وفتشوا إن غابوا وتستروا.

وعليّ سجلوا هذا القول: الحكم الجاري مجرى سنن
الحياة، هو إما أن تغلب الأمة أعداءها، وإما أن تُغلب هي
وتُقهَر.

فإياكم ثم إياكم أن تتخذعوا بالبياض، أو أن تميلوا إلى
خمول السلم والحياد. وإن فعلتم هلكتم.

اعلموا وتيقنوا: أن للحرب وجوهاً ومواطن عدة، تحضر
كلها أو تتناوب. وهي قائمة بالسيف أو بالقلم أو حول السلع
والقيم.

واعلموا وتيقنوا: أن كل سلم هدنة بين حربين، وأن كل
هدنة فرصة لتجديد أنفاس العزيمة وقوى التجهيز والسحق.

وإني أنا الحاكم بأمر الله قد قررت لأمة فاطمة أن يكون
نصرها نصراً حاسماً لا شك فيه ولا رجعة، نحقق فيه بالفعل
والإنجاز ما قاله الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسرٍ

من طبيعة السياسة الاستبداد

سيقول المؤرخون الوعاظ وأكلوا لحم الميت: إني، أنا
الحاكم بأمر الله، كنتُ أرهق العباد حيرةً وطفياناً، وكنت
سفاكاً للدماء، وكنت المحنة الكبرى والبلاء.

ولو عرف هؤلاء المتقولون كنه التاريخ بما هو تاريخ،
تصنعه سلطات السيف وأحجام الشدائد والآلام، لأدركوني

وأدركوا أن من طبيعة السياسة الاستبداد، ومن صفات الاستبداد التوجس والحذر، وإعمال العنف الوقائي. ونعم القول قول حكيم:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يشرد؛ ومن لا يحكم الناس يحكم!

الوجه الآخر للسياسة

- ١ -

الموت هو الوجه الآخر للسياسة.
كل من ساس خاطر.

وكل من خاطر نجا لأجل ما، أو فقد روحه في مصطدم المناورة والعداء. لذلك ما أشد نزوعي ورغبتي إلى التخلص في الحكم من كل ضد وكل مزاحم!

- ٢ -

أَلَا إِنَّ رَبِّي أَتَانِي الْحَكْمَ صَبِيحًا تَتْرَبِصُونَ بِي!
لا، لن أترك مخرجاً للخصي بـورجوان الصقلي، مدبر دولتي، ولن يفعل بي ما فعله كافور بأولاد سيده الإخشيد. فقولوا له، وقد قابل وجهي بنتانة نعله وطفى عليّ واستغنى: إن من تسميه بالوزغة المحجورة قد أضحى تنيماً. والتنين صار في قدرته أن يتلوى على الأعناق الزائفة، ويمنع عنها الهواء منعاً.

وأما الحسن بن عمار، أمين دولتي، فقد كفاني ما رأيت من عصبية وتيهها وتيه بأسه عليّ. وسأكون في البطش به وبكل الراغبين في دمي وافر الغدر، سريع الانتقام.

الذين تربعوا فوقى نسفت قوامهم وأفاقهم، وانتهيتُ
بحجمهم إلى التفكك الشديد. تشددت فاسترجعت عرشي،
وسرتُ في أنفاق عهدي وفتني، أطالبُ بالعرشة والقشعريرة..
أقمتُ ظلي حيث مشيت، وتاريخاً لسيوفي في موطني، فما
أسعدني بما لازمني! لازمني إخباراً عن بركان شيعتي أثلج
صدرى. لازمني صوتُ نبويِّ الوقعِ وفأل حسنٌ.

حسنٌ أن تعاطيتُ الريادةَ والفراسة. حسنٌ أن أعشقُ
والأحق. حسنٌ كلُّ شقٍّ وكلُّ فجٍّ وكلُّ اكتساح.

اكتسحُ وأهيمُنُ، ثم أعود إلى سكونِ الصحراءِ المبشرِ
بالزوبعة، أعودُ إلى فاتحةِ الرملِ المبشرِ بالزوبعة.

شرائط القيم

تسألونني عن الحكمة في إقبالي على الهدم والتقويض في
ميدان المعمار والقيم. وجوابي إليكم خذوه وتدبروه: إن من لم
يهدم لا يعرف معنى البناء، ومن لم يختبر الشر لا يقدر على
فعل الخير.

قاصرُ النظر، مريضُ الإدراكِ من رأى من الأمر وجهاً
واحداً، واستقر في البعد الواحد، يسبِّح للرتابة ويتلاشى
بتلاشيها.

أما من لم يرتقِ في الغلو إلى ذراه، فما أقربه إلى مناطق
البياض والهمود، وما أغباه!

منطق الفتن

كلُّ منا مرطقيُّ الآخر!

كلنا إذن مراطقةٌ وأهلُ زيعٍ وبدع. كلنا رؤوسُ مفتونةٌ
بتحرير الدلالاتِ وحملها على وجوهنا. كلنا نتديّنُ بالخروج.

إلهم بعد الله أهواؤكم، إلا الذين قنّبوا وانزوا وكانوا
داخِلين في سوقِ ظلهم، يخفون أعينهم بأيديهم، ويعوذون بالله
من زحزحة الدجاجات عن بيضها ومن تحريك السواكنِ
والأثقال.

ما أقرب أعدائي مني!

القتل في المقربين أهل البطانة أولى ثم أولى، وإلا لما استتب
امر السلطة للمستبد، ولو كان عادلاً.

لا دربةٌ للخليفة ولا سيادة: إن لم يعامل عمال رفعه
ونصرته كأعداء في حالة هدنة مشوبة بالحدز، فيقيم فيهم
حدود الترهيب والإبعاد، حتى لا يسعوا إلى مقاسمته الحول
والقوة.

لا راحةٌ للخليفة: إن لم يتوجس من الكل، ولم يضرب ظله
بالسيف إذا بدا له غريباً أو ملتبساً.

لا بقاء للخليفة: إن لم يبدل باستمرار طاقم القائمين على
سره والحافظين له، كما يبدل الثعبان جلده.

ما بالكم لا تقنعون!

بطون بني آدم - إلا من رحم ربي - لا يعمرها إلا التراب!
لقد أقطعتكم إقطاعات كثيرة ملؤها الاسكندرية والبحيرة وما

جاورها، وحشوت حواياكم بأشياء شتى، يرهق خروجها إليكم
دماغ أمين الأمانة.

فما لکن تدينتم بالجشاعة والنهم، وفتحتم أبواب شهواتكم
وأهوائكم على مصراعيها؟

تالله لو عرفتم أن كل أتاوة وكل عطية ورشوة قدمتها إليكم
على بساط أريحياتي وإكرامي، إن هي إلا دين لي عليكم، أشد
به رقابكم إلى حبال طاعتي والوفاء لي، لو عرفتم وأدركتم
لتسابقتم هرباً مني ومن هباتي. ولكنكم أكباش لا تعون ولا
تعقلون.

خالفوني، أرحمكم

كم هي كبيرة وواسعة مواهب الركوع والخنوع لديكم!
وتفكيري فيها أيقنني أن السعادة عندكم ليست إلا تعويضاً أو
طرة على أنسجة المرات وأكداس الخسارات... فلكأني بكم
في مسالك الانصياع تطاوعون أقداراً سبقتكم إلى الوجود.
ولكم في الإتيان بالتفاصيل كامل العناء والحرية.

فخالفوني في هذه الفكرة، خالفوني، أرحمكم وأجزل لكم
العطاء.

تعلموا التطرف

«دع اللوم عني لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحنق
وأسقي جيادي من فراتٍ ودجلةٍ
وأجمعُ شمل الدين بعد التفرق»^(٢).

في الحدود الدنيا وأوساط الأمور، لا تصرفون إلا هزائمكم
وهلاككم، بتضييع أصالتكم في التبعية الرعناء تارة، وبإرهاق
الفكر في التوفيق بين ما لا يتفق طوراً.

وحق فاطمة، لن تجدوا عندي لهذه الوصية بديلاً: كونوا
كنهكم واصنعوا بيضتكم بالاختيار المتشوق الحاد، وفي
المعارضة والنقض الخلاق... وفي كل شيء، تطرفوا، تطرفوا
يرحمكم الله!

أقرب القلوب إلي

أكره البذخ في كل شيء: ليس في متاع الدنيا وحسب. وإنما
أيضاً في اللغة ومفردات اللسان.

ولذا، فمن أراد أن يرى أنني قتلت الشيخ جبارة اللغوي
لأنه كان يعرف للكب ثلثمائة اسم في لغات العرب، فله ذلك
وزيادة في فضاء التأويل. إن أقرب القلوب إليّ لقلوب المؤولين،
أولئك الذين يتنافسون في تحرير الدلالات عن آخرها، وفي
افتضاض أبقار الأفكار المحجوبة، ويكدون ويعرقون، فلا
يجدون في ختم المطاف إلا ما وضعوه في أوله: أنفسهم، ولا
شيء غير أنفسهم، وما لها وما عليها.

عليكم بالصبر عليّ

منذ أن تسلطت علي الأحداث، تغير في كل شيء: طابع
صوتي وقعودي ووقوفي ومشيتي، وتغيرت مقولاتي وطريقي كلها
في تجارة الكلمات والحلم والواقع.

وهل أعجب وعلى كتفي أثقالكم، ومنامي ويقظتي محملان

بسعيي إلى تطويق أوزاركم وتناسخاتكم؟

فلم يبق لكم، وحق فاطمة، إلا أن تلوذوا بالصبر والأناة،
عسى أن تأتي بعد زوال الدخان المبين وزوالي لوائح النور
الشعشعاني!

وحق العين التي لا تنام، لا بد لكم من استبدادي ومن
جريان سيفي بينكم شفاءً لكم من الظلم ووقاية، وحتى تظل
مصر كما كانت وأبتغيها: لا يقطنها إلا راعٍ ورعية.

فاتقوني ولا تطلبوا خلاصكم مني. إني لأفعالكم ونواياكم
بالمرصاد، ألتقط بالتجسس والسهر أسوأها وأعتمها، وأمحقها
محقاً.

أذواقي

حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسْلِ تَرْبِيَةَ الشَّعْرِ وَاللَّحْيِ،
وَارْتِدَاءِ الصُّوفِ، وَرُكُوبِ الْحَمِيرِ... وَإِنِّي سَأَسِيرُ عَلَى نَهْجِهِمْ
هَذَا وَأَزِيدُ عَلَيْهِمْ بِتَطْوِيلِ أَظَافِرِي وَاسْتَنْزَافِ الْفِيَّافِي
وَالصَّحَارِي رَحِيلاً وَتَرْحَالاً، وَأَخْتَصُّ بِجَبَلِ الْمُقَطَّمِ الْمُقَدَّسِ
الْأَقْرَعِ لِأَحْرَثِهِ بِالْإِقَامَاتِ الْمُدِيدَةِ وَالتَّمْلِي، بِحَيْثُ لَنْ يَظْفُرَ بِي
إِلَّا خِيَالُ جَامِحِ خُلُوقِ.

لأرهقن القاعدة

سيأتي مؤرخون ليقولوا كلاماً معناه: أني أنا الحاكم بأمر
الله كانت أفعالي لا تُعلل وأحلامي ووساوسي لا تُؤول.

وهذا كلام لطيف لا يخلو من صواب، طالما أني الاستثناء
الذي شاء أن يرهق القاعدة.

وما القاعدة إلا من نسيج عوائدكم وأعرافكم!
وما هذا النسيج إلا صنيع تشنجاتكم وغيبوباتكم القزمية!

من أين لي القدرة على فعل الشر؟

لما سئل الحاكم عن الحكمة في ما يفعله من حين لآخر
بواحد من عبيده، إذ يشق بطنه ويجبذ مصارينه ليرميها
للحيوانات الأليفة الضالة، أجاب بلسان الواثق الجبار:

- إن سألتموني عن علة فعلتي تلك وما شابها، فاسألوا
إلهم لم هو على كل شيء قدير، وما الحكمة في تعذيبه للبهائم
والأطفال، وإرهاقه للتكالي، أو في اختطافه للأرواح أفواجاً
وكتلاً.

إن العجز عن فعل الشر ليصيب مشيئة الإله وقدرة الحاكم
باسمه بشلل نصفي، يحول دون اتصافهما بطابع الإطلاق
والجبروت.

وكل حاكم بأمر الله لا يحاكي الله في صفاته لهو ساقط عن
الولاية، مزيفُ الشارات والإمارة.

لرفع الجفاف

كلما انتابتني هواجسكم أو رأيتُ أن الموت بينكم متفشٍ
وكثير، ركبْتُ إلى الصحراء حافي القدمين وعلى رأسي فوطة.

وهنا في هذا المجال الذي أخلتكم فضائه وحواشيه، هنا
يهدأ روعي وأراجع نفسي على ضوء قناديل البدء والمصير،
حتى أتبين السبل الكفيلة برفع الجفاف عن أرضي ودماعي.

أنا الركاب الخبير

أركب إليكم وأشد الرجال إلى خفياكم. فلا تهربوا ولا
تفرعوا. فما أدراكم إن أتيتُ مع الفرج بعد الشدة، أو عمّت
إنعاماتي حيث ترقبتمُ القتل!

لماذا أتيت؟

الحقيقة ليست مطلقة، بل طليقة.

هي من صنع الأقوى والأقدر على تطبيق الفجاجة
والعادات، وإطلاق العنان لإرادة التأويل والقوة. ولا ضرر إن
تشعبت وتناقضت أجواء الإرادة ومناحيها.
وحق فاطمة، إن هلاككم ليقوم في تساوي الأضلاع، وفتور
ما لا لون له ولا أتباع. فاطلبوا أسبابكم واستمدوها من حياة
العكس والتناقض.

فلکم من مستوطن في جهنم أتاه بطيب النوايا حبوا!

وكم من يسر أقبل بعد العسر!

وكم شيء تکرهونه وهو خير لكم وجدوى!

فتقبلوني إذن وتحملوني أنا المرُّ الصعبُ المراس. فإنما
أتيتُ لأعلمكم معاني الأضدادِ المحجوبة، وقواعد التقلب
المخزونة؛ وإنما أتيتُ لأقششكم ما استطعت من عاهاتكم،
ولأبث الحمية ضد ما أنتم ما ترمون وتضمرون، ولأشعلها
حرباً على الذين في لهيب الوقت والغيبة لا ينتظرون.

الباب الأول

من طلعات الحاكم في الترغيب والترهيب

I

عن سجلات الأوامر والنواهي

«وكانت سيرة الحاكم من أعجب السير، يخرع كل وقت أحكاماً يحمل
الناس على العمل بها».

ابن خلكان، وفيات الأعيان.

لما خلا للحاكم وجه الحكم، بعد أن قتل مدبر الدولة الأستاذ بورجوان والحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة، وغيرهما، صار لا يقضي الحول أو الحولين إلا ويستصدر، في سياق سيل بياناته ومراسيمه المختومة، سجلات قاهرة منطبعة بالغرابة والتضاد. وكان من أول هذه السجلات سجل الانفراد بالسلطات، ما ظهر منها وما بطن، وهو الصادر في غضون السنة الرابعة من ربع قرن الحاكم، سنة تسعين وثلثمائة. وفيه بعد بالبسملة والحمدلة والتسليم على النبي ووصيه عليّ وعلى السبطين الحسن والحسين:

«معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين، إن الله، وله الكبرياء والعظمة، أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة، فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة، سيدنا ومولانا، فقد أحل أمير المؤمنين دمه، فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله»^(٣).

[وفي النص من جهة اليمين]

ناحيتي القطرُ الذي أنتم ساكنوه، حيث بينكم تسري النساء والكلمات والخيرات.

ناحيتي الدوائر والاسلاك، حيث أحول بالعنف الأمثل دون
أن يحلم الوزراء والاعيان بحتفي، أو أن يجمعوا الأموال
والألقاب اختلاساً ونهباً، وليترفوا ويتغطرسوا باسمي وفي
ظلي.

كيفما كنتم، ضعفاء أو أقوياء، احذروني وتوقعوني، أنا
الذي ما جئت إلا لكي أعيد للعين التي لا تنام هيبتها وحقوقها
بينكم.

[وفي النص من جهة اليسار]

عليكم دوماً بطلب الأمانات مني.

فلكم أيها الأقوام الداخلون في عهدي وخدمتي أن تختلفوا
أجناساً وأصنافاً وشيعاً، ولكن لا يجوز لكم أن تختلفوا في، ولا
في انفرادي بإعطاء العفو والأمان، وبتسكين الأفئدة والقلوب.
كلكم ضدي وفي غير اتجاهي ومرادي إلى أن تظهروا آيات
العكس.

وهذا سعيري المتقد بالكتان والخيش والحلفاء، هذا سعيري
يشتهي لحم وشحم كل من أعوزه الدعاء والتضرع لي، أو
تأخر فبات دون باب توبتي وأماني.

*

[وفي السنة المذكورة أعلاه، سألت دماء كثيرة بيد الحاكم
أو على سيوف عبده، لا فرق فيها بين مذنب وبريء، ولا بين
كبير ووضيع أو بين حر ومملوك أو مسلم وذمي.

وفيهما منع الناس من الحج عبر البر والبحر، مخافة هروب
الرعية إلى ديار الله وفراغ مصر من سكانها.

وفيهما امتثل الصيادون أمام الحاكم وأدوا القسم على هجر

صيد السمك الذي لا قشر فيه . وعلموا أن من حنث منهم
وخالف شُقُّ بطنه وأتلف ما فيه .

وفيهما كبست الحمامات، وألقى القبض على العديد من
المستحمين من دون مئزر، وطيف بهم عراً في الأزقة
والأسواق].

*

وفي السنة الخامسة من ربع قرن الحاكم صدر بنقش ختمه
مرسوم ضد الكلاب، ومما أتى فيه نصه:

وأما الكلاب - إلا ما كان منها للصيد - فأقبلوا عثاري
منها واقطعوا دابرها من كل ربوعي وأحيائي . فإني لا أطيق
رؤية أحط الحيوانات منزلةً، وأبعدها عن أخلاق التقلب
والضد، وأكثرها تحملاً لأعباء التزلف والوفاء .

*

[وفي هذه السنة قتل الكلاب بالآلاف، وهاجرت الناجية
منها إلى مناطق آمنة، نائية غير مأهولة .

وفيهما انتزعت بالمناسبة كل الخنازير من أهل الكتاب،
وقتلت بالجملة . وفيها - وقيل في التي قبلها - تنهى إلى سمع
الحاكم بيتان شعريان، فانفعل بهما واضطرم، وسأل عن
صاحبهما ف قيل له: إنه ناجية بن محمد بن سليمان أبو
الحسن الكاتب البغدادي، نادم الخلفاء والأكابر . وأراد
استقدامه، فأخبر بأنه ميت هو أو في عداد المفقودين .
والبيتان، وهما من الطويل: «ولما رأيتُ الصبح قد سلَّ سيفه/
وولى انهزاماً ليُّه وكواكبُه // ولاح احمرار «قلت قد ذُبِح
الدجى / وهذا دم قد ضمَّخ الأفق ساكبه^(٤)»].

*

وفي السنة السادسة من ربع قرن الحاكم، طلع الخليفة على
الناس بسجل في قلب المواقيت ومنع التجول، ومن نصه:
... تجنباً لما يأتي به الظلام من هواجس وأحلام مزعجة؛
ورفعاً لكل غطاء عن كل متربص بالسلطة، متآمر عليها
وعليّ؛

أعلن، أنا الحاكم بأمر الله، قلب المواقيت والمواعيد،
وأشّر لكم العمل ليلاً والنوم نهاراً، وأمنع عليكم التجول في
المدينة بعد طلوع الشمس، أو التجمع خارج البيوتات وتلوّث
خلاء الطرقات، فإياي ونقض أوقاتي، فإني لا أوتى بمخالف
إلا سفكت دمه. وحتى إشعار آخر، لا مرد لمرسومي ولا
تخفيف فيه.

*

[وفي هذه السنة أشعلت القناديل والشموع ليلاً في كل
مصر والقاهرة، حتى كأن الليل نهار.

وفيهما «اجتاز (الحاكم) مرة برجل يعمل النجارة في أثناء
النهار فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟ فقال: يا سيدي لما كان
الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا
يتعيشون بالليل سهروا بالنهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم
وتركه»^(١٥).

*

وفي السنة الثامنة من ربع قرن الحاكم، أصدر دعواته
الغلاة بتواطئه مرسوماً بسبّ السلف وأمر بكتابة السبّ على
الأبواب والحيطان وعلى المقابر والقياسر...

[وفيهما طيف بجماعة من «أهل الظاهر» على حمير قبال شق

أكتافهم وقطع رؤوسهم. وقال فيهم المنادي عبر كل الأحياء:
هذه عاقبة من يحب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة
والزبير وعمرو بن العاص ومعاوية.

وفيها طيف في دمشق بمغربي على حمار، وشهر به المنادي
وبرح: هذا جزاء من يحب الصحابة، ثم شقت عنقه.

وفيها نفذ أمر الحاكم بهدم جامع عمرو بن العاص
بالإسكندرية.

وفيها زلزلت الأرض زلزالها في الشام والمدائن والثغور،
فقضى تحت الانقاض خلق كثير].

*

وفي السنة التاسعة من ربيع قرن الحاكم، صدر بختمه
مرسوم بتحريم بعض مأكولات «أهل الظاهر»، ومنه:

لقد نهيتكم عن أكل الملوخية والجرجير والدنيس والمتوكلية،
ولا زلت أنهاكم بمرسوم لا يقبل النقض: لأنني لا أرغب أن
تأكلوا من موائد أهل الظاهر والدنيا ولا في ما يزيد من
همودكم واسترخاء أعضائكم، ويكثف البخار في أدمغتكم
والأوهام حول علو كعبكم وسلالتكم.

وفي هذه السنة أيضاً وقع الحاكم على سجل اشتهر بذي
العنوانين: سجل إبطال الزكاة وسجل كبح التفاوتات، ومما
جاء فيه:

وحق فاطمة، لن يكون لعهدي شأن إن لم أسع إلى سحق
ما تداول بينكم من تفاوتات في المعاش والأرزاق.

تفاوتاتكم مريعة، فما أقساها على جوارحي وما أعتاها!

لذا، وأنتم كلكم في ذمتي، قررت أنا الحاكم بأمر الله أن أعود إلى البدء لأفصح ما به البدء انطلق: ففي بدء الثروات كان الغصب والنهب، وكان الاغتناء بما قام على أعمال المستضعفين واستنزافهم حتى الانهك فالموت.

الا فلتدركوا هذا معي حتى نعيد لباب العدل والقسطاس سلطته ومجده. ومن ظل دون هذا الباب فلا إسلام له ولا ملة.

سجلوا عليّ في مرسوم أنني، تحقيقاً لمقاصد الصدقات والزكوات القصوى، أقرر إلغائها، وأنني ألغيها لأن في جريانها بينكم حجة على بقاء الفقير فقيراً متسولاً والغني غنياً غاصباً مرتاح الضمير والبال. هذا وإني لكل ما يسرمد التفاوت الشنيع بينكم لبالمرصاد.

هكذا سعيي بينكم، فاسلموا إليه واحفظوه في وعيكم كالدليل المضيء، واضربوا كل من شوش عليه أو لطفة باللغو والوحد.

*

[وفي هذه السنة: «لقي الحاكم ذات مساء عشرة من الناس سألوه الاحسان، فأمر أن يتقاسموا إلى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة وبقي واحد، فألقى إليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله^(١)».

«وفيها رسم الحاكم لجماعة من الأحداث أن يتقافزوا من وضع عالٍ في القصر، ورسم لكل منهم بصلة، فحضر جماعة وتقافزوا، فمات منهم نحو ثلاثين إنساناً من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك؛ ووضع لمن قفز ماله^(٢)»].

*

وفي السنة العاشرة من ربع قرن الحاكم، قرىء في كل ربوع البلاد سجل في قمع الخارجين بالسيف، وفيه:

هكذا أنتم أيها الأرجاسُ الانجاسُ! تعارضونني بإكثار التمرد عليّ والتشهير باستحالاتي أمام الناس. لا وحق حرمتي، لن تجدوا عندي لهزمكم إلا العنف في أسمى آياته والغدر الخالص.

وفأما ابن باديس، وقد نكر عليّ أفعالي، وجعل بينه وبينني مسافات ومتاريس، فهذه أكامي وجوامعي مفتوحة «لفقيهين يبعث بهما ليريقا فيها شيئاً من علم مالك، مقابل أن نريق دمهما صبراً».

وأما أبو ركوّة، فقد أكثر الخروج عليّ وغالى حتى عاث في الصعيد وأتاني بين الهرمين، فاشتد أمره على سدي واستفحل.

ألا إن كوكبه الذؤابة قد لفه الآن السقط والأفول، فجهزوا ضده عظيم جندي، وعليكم، ولا بد، أن تأتوني به حياً لكي يُشهر به على جمل ويُطاف به كما أرضى وأشتهي. وبعد أن يملّ الناس من رؤيته اضربوا عنقه ليذوق عذابي، وأتوني برأسه المفتون، واصلبوا جسده الملعون في مهب النهش والخسارة.

هذه عاقبة كل من خرج عليّ شاهراً سيفه، واقترف في حقي الزيف والجسارة.

*

وفي سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مال مزاج الحاكم الى التحسن بفعل ثورة أبي ركوّة، فأصدر تباعاً مراسيم تنم، في

رأي الرعية، عن اتزان وحكمة وبصيرة. وأولها صدر في شهر رمضان تحت اسم: لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وفي نصه بعد البسمة والحمدلة:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، لا إكراه في الدين... مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه؛ معاشر المسلمين: نحن الأئمة، وأنتم الأمة. لا يحل قتل من شهد الشهادتين... ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرّم عليها ما حرّم، من كل محرّم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله، ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية، وأحوال القيوان تجري فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس في التكبير على الجنائز الخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسبّ أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه وعليه حسابه؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم؛ لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم تعملون»^(٨).



ويتبع هذا سجلات أخرى، منها:

- سجل إقرار الحق في التأويل

مبادئ الكلام تحكّمت وعواقبه تأويلات، ألا فلتزل عندنا مجالس الحكمة التأويلية ورؤوس الاحتكارات المذهبية.

فكما أني لست لشيعة دون أخرى، فكذلك الحقوق في التمثيل والتأويل.

ألا في إبداع أحسن الكلام وأقوى القراءات، وفي وضع جليل الدلالات فليتنافس المتنافسون، عسى أقربكم إلى الحق وإليّ - وإن كان عبداً ذا زببية - إن يلغم هذه الربوع بعبوات الاستنهاض والتحويلات النافعة.

أما من وقف في وجه كل من سعى وأول واختلف، فلا فرق عندي بينه وبين التاجر المحتكر أو قاطع الطريق، وإنني لست منه وليس مني.

وإن لفظ باسمي لا غط أو لغا بأقوالي فاطلبوا فكافي منه، وردوه إلى حمى قيعانه وهجيج خبطه.

- سجل إطلاق الأرزاق وإبطال المكوس

«من الحاكم إلى أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان:
الحمد لله كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي *** إلا إلهي وله الفضلُ
جدي نبي وإمامي أبي *** وديني الاخلاص والعدلُ

المال مال الله عز وجل، والخلق عباد الله، ونحن أمناؤه في الأرض، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها، والسلام^(١)»

وأما المكوس عن الغلال والأرز ومكوس الحسبة والرطب ودار الصابون، فهي باطلة من اليوم فصاعداً، كما هي لاغية رسوم القضاة على الخمر والفطرة والنجوى. وسأبطل أخرى بمجرد ما تتحسن أحوال النيل ويرتفع إلى مقياسه المعقول.

- سجل الطي والنسخ

أنا الحاكم بأمر الله، قد أمرتكم بسبّ السلف على أبواب الشوارع والمساجد، وبكتابة السبّ بالأصباغ على حيطان الحوانيت والصحراء والمقابر، وأمرت عمالي بالسبّ في ولاياتهم. والآن أنهاكم عن ذلك نهياً.

لقد كنت حلت لكم الفقاع، عسى أن يذهب عنكم أحزانكم ويذيب ما تيسر من صقيع تعاساتكم. واليوم أنهاكم عن كل مسكر ولو كان مثلثاً خفّ كحوله، إذ النيل كله لو كانت مياهه خموراً لما نفع فيكم وأجدى. فاقتلعوا كل الكروم وأبيدوا العنب ومشتقاته. وعليكم ما دتم في ربوعي بالصحو الأمثل...

ولقد كنت نهيتكم عن بعض مأكولات «أهل الظاهر»، واليوم لا فرق ولا بغضاء بين هؤلاء وبينكم، فكلوا ما شئتم وطاب لكم. فإن كل معدة ذائقة الموت.

- سجل النهي عن الزلفى وطلب المنافع

ألم أقل لكم إنني أكره الكلاب؟
ألم تعلموا أنني أصدرت مرسوماً بقتلهم وتخليص مملكتي منهم؟

وبناءً عليه، إنني أحرم عليكم أن تقبلوا الأرض من تحت

قدمي. ومن فعل الحقته بقبره فيها وهو حي يرى.

كما أني أنهاكم عن الصلاة عليّ في الخطب والمكاتبات.
وأمركم أن تجعلوا كفايتكم في التسليم على أمير المؤمنين.
هذا قراري، فغيبوني، غيبوني عن ركوعكم وزلفاكم تسلموا
من وجهي وتجدوا هيبتي أقرب إليكم من حبل الوريد.

*

وذيل السجل بهامش: أن لا أحد من الرعايا يلتمس من
خليفة المؤمنين زيادة أجر ولا-إضافة منصب ولا إقطاع تملك
أو استغلال ولا منفعة فوق ما تقتضيه الضرورة والحاجة.

*

وعلى إثر هذه المراسيم المحمودة، سقطت عن الناس
أسباب التوترات والمصادمات، وصاروا إلى عاداتهم في
المأكولات والمستحسنات، وأحيوا أوقات سمرهم ومزاحهم
بمنتزه القرافة، وتلاعبوا بالماء على شطوط النيل، ولعبوا الفرد
والشطرنج، وتبرجت النسوان وغنين.

وبما أن الحاكم صار أحرص من ذي قبل على إقامة
الأعياد ورئاستها والذهاب إلى مراسيم فتح الخليج ورفع
سده، فقد أتاح للمصريين المشاركة فيها واغتنامها فرصاً
للاحتفال بالحياة وتكريمها بشتى أنواع التعابير العجيبة،
المحاطة بأسمطة المآدب الباذخة وأبخرة المسك والعنبر.

*

وفي السنة الثالثة عشرة من ربيع قرن الحاكم تملك
الخليفة غيرة عارمة على الاسلام، مصحوبة بكرامية ساحقة

لأهل الكتاب والذمة، فحرر ونشر سجلاً يعطي الأمر والتعليل،
وسماه: سجل رد الاعتبار إلى ملة التوحيد، وفيه:

الله أكبر لا إله إلا هو، والله أكبر وله الحمد، الحمد لذي
الجلال والاكرام، وخالق الكون والأنام، المنفرد بحقيقة الموت
والدوام، المتصرف في مقاليد النقص والإبرام، فالق الإصباح،
وخالق الأشباح، وفاطر الأرواح، أحمدته وأشهد بربوبيته
ووجدانيته، وأن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على وليك
الأزهر، ورفيقك الأكبر، علي بن أبي طالب، حامل أعباء الآمال،
وهالك القبح والدجال. اللهم وصل على السبطين الظاهرين
الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار، والصفوة الأخيار؛

وبعد،

تسألونني عن الحكمة في أمري بهدم كنيسة القيامة التي
ببيت المقدس وكنائس أخرى بمصر والشام...

لا، ليس فقط لأن ضرب النواقيس، كنباح الكلاب، يفسد
عليّ في قعر ديني ودياري مناجاتي مع ملكوت السماء!

لا، بل الأدهى والأمر أني أرى، كما ترون، أن الصليبان من
حولنا تناسلت وتكاثرت، فتعددت أبراجها، وتعددت حاملوها،
حتى بتّ أسأل نفسي: هل هذه الدار دار الاسلام وملة
التوحيد، أم دار النصارى والفسقة الأضداد؟ هل هذي البلاد
ملك للمسلم أم للذمي؟ وبت أخشى أن يهيج علينا دين
التثليت، فيفيض علينا الصليبيون العذاب ويستبيحوا أعراض
هذه الأمة وأراضيها.

باسم الردع والاتقاء، عليّ بكنيسة القمامة بدءاً، «فليصر
طولها عرضاً وسقفها أرضاً»، فلعل وعسى...

[وجاء في الهامش ما نصه]:
معشر الأقباط ومن شاركهم في أعيادهم من المسلمين!
لا احتفال بعيد الغطاس بعد اليوم.
فمن تلاعب في بحر النيل بالقفز والغطس، تركناه في قعره
مكبلاً بالأغلال.

ولا احتفال بعيد النوروز بعد اليوم.
لا ماء يصب في الطرقات، ولا نار توقد ليلاً، ولا نزول في
القوارب، ولا خيام تضرب على شطوط النيل أو قرب المقياس،
ولا تراشٍ بالخمير ولا تراجم بالبيض. ودعوني من كل هذه
المفاسد.

*

[وفي السنة نفسها صدرت سجلات بذات المعنى في حق
أعياد الميلاد والمهرجان والشعانين... وفيها أيضاً مات يعقوب
ابن نسطاس، طبيب الحاكم، سكران في بركة ماء...].

*

[ولم يمض أسبوع حتى ظهر الشق الاضافي من السجل
أعلاه، وفيه]:

المسلم مسلم واليهودي يهودي ولا يلتقيان. والمسلم مسلم
والنصراني نصراني ولا يلتقيان.

فيا معشر ملة التوحيد: إني في هذا العصر العصيب، لا
أكتفي بما حرّم عليكم من مناكحة اليهود والنصارى وأكل
ذبائحهم، وإنما أقرر بالاضافة والتأكيد أن لا تساوي ولا
تعایش بين الديانات، فإسلام أمّتي إما ان يكون دين الختم
والنسخ لما سواه وعاداه أو لا يكون.

لذا فعل كل اليهود والنصارى الداخلين في ذمتنا أن يحملوا العلامة.

للأولين القرامي في الاعناق والعمائم السوداء، وللآخرين الصلبان.

والعلامة، كل علامة، عليها أن تكون بادية في مدى حدود البصر.

ولأهل الذمة حماماتهم الخاصة، يتطهرون فيها من أوساخهم الخصوصية،

ولهم دون الخيل البغال والحمير يركبونها بسروج خشبية.

هذا، وإن على كل من أراد التخلص من علامته أن يرجع عن غيه، ويعود إلينا مسلماً معفياً من الشبهة والجزية.

*

[وفي هذه السنة: «قرىء سجل بترك الخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك».

وفيها: «كثرت الأمراض في الناس، وفشا الموت، وتخوف الناس من الحاكم فكتب عدة أمانات لأناس شتى^(١٠)»].

*

وفي السنة الرابعة عشرة من ربع قرن الحاكم، وهي سنة أربعمائة، زادت مشاعر الخليفة الدينية تأججاً وتطرفاً. ومما تناقله المؤرخون من أخبار هذه السنة، ما يلي:

«وفيها أرسل الحاكم إلى المدينة إلى دار جعفر الصادق من فتحها وأخذ

منها ما كان فيها، وكان فيها مصحف وسرير وآلات، وكان الذي فتحها ختكين العُصديّ الداعي، وحمل معه رسوم الأشراف، وعاد إلى مصر بما وجد في الدار؛ وخرج معه من شيوخ العلويين جماعة؛ فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة (وردّ عليهم السرير) وأخذ الباقي، وقال: أنا أحقّ به؛ فانصرفوا داعين عليه. وشاع فعله في الأمور التي خرق العادات فيها، ودُعي عليه في أعقاب الصلوات وظهور بذلك، فسأشفق فخاف؛ وأمر بعمارة دار العلم وفرشها، ونقل إليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة شيخين، يعرف أحدهما بأبي بكر الأنطاكيّ، وخلع عليهما وقربهما ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته، وجمع الفقهاء والمحدثين إليها، وأمر أن يُقرأ بها فضائل الصحابة، (ورفع عنهم الاعتراض في ذلك) وأطلق صلاة التراويح والضحي، وغير الأذان وجعل مكان «حيّ على خير العمل» «الصلاة خير من النوم»؛ وركب بنفسه إلى جامع عمرو بن العاص وصلى فيه الضحي، وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول به، ووضع للجامع تنوراً من فضة يوقد فيه ألف ومائتا فتيلة، واثنين آخرين من دونه. وزفهم بالدباب والبوقات والتهليل والتكبير، ونصبهم ليلة النصف من شعبان؛ وحضر أول يوم من رمضان إلى الجامع الذي بالقاهرة، وحُمل إليه الفرش الكثيرة وقناديل الذهب والفضة، فكثُر الدعاء له؛ ولبس الصوف في هذه السنة يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، وركب الحمار وأظهر النسك وملا كمّه دفاتر، وخطب بالناس يوم الجمعة وصلى بهم؛ ومنع من أن يخاطب يا مولانا ومن تقبيل الأرض بين يديه؛ وأقام الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقراء والغرباء وأبناء السبيل، وأجرى لهم الأرزاق؛ وصاغ محراباً عظيماً من فضة وعشرة قناديل، ورضّع المحراب بالجواهر ونصبه بالمسجد الجامع. وأقام على ذلك ثلاث سنين يحمل الطيب والبخور والشموع إلى الجوامع، وفعل ما لم يفعله أحد. ثم بدا له بعد ذلك فقتل الفقيه أبا بكر الأنطاكي والشيخ الآخر وخلقا كثيراً آخر من أهل السنة لا لأمر يقتضي ذلك؛ وفعل ذلك كله في يوم واحد. وأغلق دار العلم، ومنع من جميع ما كان فعله؛ وعاد إلى ما كان عليه أولاً من قتل العلماء والفقهاء وأزيد؛ ودام على ذلك حتى مات قتيلاً^(١).

*

وفي السنة الثامنة عشرة من ربع قرن الحاكم، صدرت ضد

المصريين، وعلى الخصوص منهم النساء وأهل الغناء والتنجيم،
سجلات ماحقة دوختهم وهدت عزائمهم، ومنها:

– سجل ضد المنجمين والمغنين

ما أتيت إلا لأكذب النجوم وأعكر صفوها وعرافتها. وسبيلي
في ذلك تعميرُ مملكتي بالأعراض وحالات الاستثناء، مع إفشال
قدرة القواعد والتوقعات.

وبناءً عليه، من نجم أو تكلم في النجوم فقد عارضني. ومن
عارضني نفيتَه أو أسقطتُ نجمه. ألم يقل عليّ «وصي النبيّ:
«أحذركم علم النجوم إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر.
فإن المنجم كالساحر كاهن والكاهن كافر والكافر في النار».

هذا، ولا مرد لحكمي حتى في حق من سعى بين المنجمين
إلى تحويل لآلئ السماء كصالحني وفي خدمتي.

أما المغنون فعليّ بنفيعهم.

إن شعبي رقاص بطبعه، فما الحاجة إلى من يزمر له
ويغني؟

لقد أعلنتها حرباً شعواء على كل أسمة الخنوثة والأنوثة
الرعناء. وغناؤكم منها، يعبث بالأجساد ويفسدها، فالغناء
حرام عليكم ما دمت أركانكم وأحيا.

*

[وفي هذه السنة خلت البلاد من المنجمين، إلا ممن تظاهر
منهم بالعمى والجنون، أو هرب بعلمه إلى الأبراج المهجورة
والمطامير المحجوبة.

وفيهما جُمعت كل آلات الطرب وأحرقت، كما منع الركوب

إلى الخليج، وأقفلت أبواب القاهرة المفضية إليه والخور
والطيقان المشرفة عليه].

– سجل في تحصين النساء

وحق فاطمة الزهراء ليس ما أقوله عن النساء إلا الخيرا!
وكيف أحتقرهن أو أطعن فيهن والحال أن تحت أقدام أمي
جنتي، وأن دولتي تستمد اسمها وقوامها الروحي من امرأة
مباركة، بنت النبي وزوج الوصي ووارثة سرهما.

إنني حقاً أمرت النساء المحصنات بلزوم بيوتهن، ومنعتهن
من الظهور خارجها أو التطلع من الطيقان والشرفات والنوافذ.
وأمرت بعقاب كل إسكافي يمنع لهن الخفاف وكل صاحب
حمام يفتح لهن أبوابه... وما فعلت ذلك ظلماً، بل لكي أحول
دون دخول الرجال في حرب استهواء الفروج والاستهواء
المعاكس: هذه الحرب السخيفة اللعينة، التي من شأنها أن
تنسي الرجال والنساء معاً حربنا الحقيقية ضد العدو المتربص
بكبواتنا وحلقاتنا الضعيفة.

*

[وفي هذه السنة، فاضت على الديوان الرقاع النسائية في
طلب التصاريح الخاصة: للإماء والمتظلمات والقابلات
وغاسلات الموتى والأرامل بئاتع الغزل والمضطرات إلى
السفر.

وفيها غلقت أبواب حمام على نساء، فمتن فيه قيظاً وخنقاً.
وفيها ذبحت نعاج فوجد في بطن كل نعجة حمل أقسم
مؤرخون بغليظ الأيمان أن وجهه كوجه إنسان.

وفيها، وقيل في التي قبلها، «أرسل الحاكم كتاباً إلى السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين صاحب غزنة يدعو إلى طاعته، فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة العباسي القادر بعد أن خرقة وبصق في وسطه»^(١٢).

وفيها، يقيناً، قضى الحاكم على إمارة الحمدانيين وحماتهم البيزنطيين في حلب، وضم هذه المدينة إلى أطراف ملكه].



وفي السنة الحادية والعشرين، وقيل في التي بعدها من ربيع قرن الحاكم، عاودت الخليفة نوبات المالنخوليا واشتدت وطأتها عليه، فأكثر من الخلوة والطواف، ولبس الخيش وأضرب عن الاستحمام، وسهر الليالي مراقباً النجوم ومستنزلاً روحانية الكواكب. وقد قوى هذا النزوع لديه رهط الدعاة الذين ظهروا في هذه الفترة، فسموه «قائم الزمان وناطق النطقاء»، وأولوا في الكتب والرسائل سيرته ومراسيمه الخارقة العجيبة كحجج وآيات لتنزيهه وربوبيته، ودعوا إلى تقديسه وعبادته، فنالوا في السر عطفه ودعمه، وصاروا يجوبون مصر والشام مستقطبين الأتباع إلى سلك «العقلاء»، أخذين منهم العهد والمواثيق وفروض النجوى والاتاوة. وقامت بين هؤلاء وبين أهل السنة فتن ومصادمات دامية، قتل على إثرها الداعية الأخرم، وفر حمزة والدرزي بدعوتهما إلى جبال الشام قبيل أو بعيد مصرع الحاكم - وتحدث أتباعه عن اختفائه - ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، كما سيأتي ذكره في محله.

II

العبد مسعود

أو آلة العقاب اللواطي

وقد كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور في الأسواق على حمار له - وكان لا يركب إلا حماراً - فمن وجده قد غش في معيشة أمر عبداً أسود معه، يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر ملعون، لم يسبق إليه.

ابن كثير، البداية والنهاية.

«وكان (الحاكم) يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر، يطوف في أسواق مصر والقاهرة ويباشر حسبة البلد بنفسه. وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشي في ركابه يقال له مسعود. فإن وجد أحداً من السوق غش في بضاعته أمر ذلك العبد مسعوداً بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهي اللواط، فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك، والحاكم واقف على رأسه. وقد صار مسعود هذا مثلاً عند لطفاء أهل مصر إذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود! وفي ذلك يقول بعض الشعراء.

إن لمسعود آلة عظمت * كأنها في صفات طومار
تشق أدبار من بهم جرم * أصعب من درة بمسمار

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور.

كان العبد مسعود واحداً من هذا الحشد الغفير الذي تعج به أسواق الرقيق في ضواحي القاهرة. وكان نخاسه الأخير أبو سليمان الزعفراني يعتبره من هذا الصنف الصعب بيعة، أو أعمال عقاقير الدهن والتجميل فيه لإغراء المشتري والإيقاع به... فوجه مسعود كان غاية في السواد وأية في القبح، بحيث لا يمكن - حسب التصورات الشائعة - أن يُظن به ولا ببياض أسنانه خيراً. وأما جسمه بأبعاده الثلاثة، فكان يضاهي أقوى الغيلان وأعلاها، إذ لو أراد هذا العبد قتل نخاسه ركلاً أو رفساً لكان هذا أهون عليه من حمل مسمار.

ككل من وهب تلك الخلقة، كان مسعود يحمل روحه في لون جلده وبين أجفانه. وكانت أخلاقه تبدو للناس مجبولة على السوء والقتامة، يرون أن شراءه خسارة طالما أنه كغيره من الزنوج كثير الهرب، وككل العبيد «إذ جاع نام وإذا شبع زنى». والحق أن هذا المثل السائر لا ينطبق على مسعود الذي كان إذا جاع صبر، وإذا شبع تجشأ وسعى. أما في باب الهرب، فقد كان بالفعل هذا العبد شديد الفلت والفرار، ولذا لا يستقر به حال عند مالك أو نخاس أكثر مما تسمح به حدود انحراسة وأضواء النهار. فكان غريزياً يتربص لحظات السهو

والغفلة المتيسرة في حلقة الليل، لينطلق في خضم سواده كسهم يلاحق أشباحاً مارقة عتية.

والسر في سلوكه هذا ليس سوء أدب أو فساد خلق، بل خوفه المرعب من صورته التي يراها في عيون الآخرين، ومن رائحته التي يسميها هؤلاء صنان. وهكذا لكونه ضرب شوطاً قياساً في الهروب، أبيع دمه مرة في ربوع الوطن، فعاش مدة محموماً لاهثاً يبحث عن ملجأ ويجنّ من الذعر والحزن، مترقباً سَقَطته والنسيان أو جبلاً يعصمه من القناصة والعميان. وكانت آخر محطة استقر بها مسعود مقبرة مهجورة حافلة بالسكون والنباتات الوحشية. وهنا صار يبيت بين الجذوع والحجر، ويرى من حوله في الليل أفواج الموتى يقومون ويسقونه برداً وسمماً، ويرى ملك الموت يأتي في سلهام أسود بلا حدود ويروح مع العناصر. ورغم عسر المقام وهول المعشر، كان مسعود يدرك بكثير من الوضوح أن العيش مع الأموات أحب إليه من السقوط في جبال الأحياء، ذلك لأن عيون هؤلاء سعير ونظراتهم سهام نافذة، أما أولئك فلا عيون لهم، بل تجاوبف غائرة ثابتة في عدمها، لا تلاحق أحداً ولا تثقل كاهل أحد بالتحقيقات والمحاسبات.

ظل مسعود أياماً عديدة في شبه إقامة إجبارية وسط البرد والوحل، فما كان شيء ينعشه إلا تخيل نعشه، أو التملّي في سراويل نسائية منشورة في سطوح بعيدة تشرف عليها المقبرة.

وذات يوم إذ شعر مسعود بجوع مريع يمزق أمعائه، قام ومزّ بظاهر المدينة، باحثاً في المزابل عن قوت غداء، ولم يمض على جولته إلا وقت قصير حتى رأى الناس من حوله يفرون فزعين، مثيرين هروب حتى الحيوانات الأليفة والدواجن. ولما

رأى جسمه في الميدان مكشوفاً يجلو لصفوة العسكر، جمع كل قواه وعاد أدراجه مهرولاً باتجاه حفرتة في المقبرة، وهنا انبطح انبطاح المهزوم المذعور، الذي لا رجاء له إلا أن تسعفه الطبيعة بما يكفي من نباتها وأعشابها لتغطية جسده وحجبه عن العالمين. وبينما هو على هذه الهيئة لمدة بضعة أيام، بين موت منذر وتنفس مأزوم، إذ شعر بتكاثر الحركات والأصوات الآدمية من حوله، كأنما هي لأقوام أتوا دفعة واحدة لدفن موتاهم بالجملة. فساورت مسعود مشاعر الدهشة، وانتابه كثير من الخوف ولما رفع رأسه ليتحقق من الأمر، فوجيء برؤية مشهد غريب محير تمثل له في أولئك الأقوام وهم ينصبون خيامهم ويشعلون نيرانهم على أرض المقبرة. ولم تمض على هذه الأرض أيام حتى أصبحت مأهولة بالخلائق من الناس وحيواناتهم، وتكشف أن هؤلاء الناس ليسوا من القبائل المترحلة، بل من الأهالي الذين لم يعد لهم مكان في المدينة ولا في ضواحيها، فانسحبوا تحت تكاليف الإقامة الحضرية وتقيأتهم محلات العمارة والأحياء.

لم يكن مسعود يلوي على علل أو معاني ما يحصل من حوله، وإنما بات يعبىء كل ما أوتي به من فهم لرفع همّ واحد لا شريك له: بما أن الاحتماء بالموتى لم يعد يجدي نفعاً، فكيف الهروب من الوافدين الأحياء على أرض المقبرة، وإلى أين؟ لقد كان مسعود يفوض بكل فكره ووجدانه في سرداب هذه المسألة، ويحسب لها ألف حساب، ويذكر الحظوظ والآفات محولاً إياها إلى إدام يغالب به الجوع والعذاب... وفي اليوم الثالث من إقامته المنبطحة الأليمة، استسلم لقلبولة قاهرة ثقيلة لم يرجع منها إلى اليقظة إلا بفعل صراخ نفر من الأطفال اكتشفوه حياً متنفساً، بعد أن جمعوا كل ما كان

يغطيه من أحطاب وأعواد. وأتى الكبار لنجدة الصغار أفواجاً أفواجا. وشكلوا حول حفرة مسعود الدوائر تلو الدوائر، وكان القول الصاعد بينهم: «عبد فظيع يفتعل الموت للهروب من مولاه، فلا بد من تقييده وتسليمه لصاحب الشرطتين!». وكان هذا الكلام وآخر يضاويه شراسة ينزل على مسعود كالصاعقة المبيدة، فلم يطق الأمر، وزفر زفرة ثم نهض واقفاً، وصرخ ملء حنجرتة قبل أن يأخذ في اختراق تجمهرات الآدميين، ممارساً في حق كل من حاول الاعتداء عليه شتى أنواع النهر والزعق والتهديد. وحين مال صوته إلى البجاح والانهاك لم تكن الأيدي تنال منه إلا ما ظل عالقاً بجسمه من أسمال وخرق ممزقة. وما أن تهيأ له الافلات من تلك الجماهير حتى ألقى نفسه في خلاء بظاهر المدينة، عارياً تماماً ومنهك القوى، وجهاً لوجه أمام فيلق من صفوة القناصة. وما حدث لمسعود في هذا الظرف العصيب تناقلته محاضر كثيرة، كان أقربها إلى الحقيقة محضر صاحب الشرطتين الذي يحكي ما يلي:

- إن العبد المسمى بمسعود قد فاجأه رجالنا في أرض خلاء بجوار المدينة، وحاله أنه كان هارباً من مالكة وعارياً كما ولدته أمه. وقد أعطيت الأوامر لقناصتنا لتحصره وتعمل فيه الرمي بالرماح والنبال، حتى يستسلم أو ينهار جثة هامدة. ويا لهول منظر هذا العبد البئس وهو في وسط الخلاء يعمل كل ما في وسعه لتجنب الاصابات: بالقفز والزحف أو الاحتماء وراء ركام الأحجار والصبار! وبينما هو في حالة تستر واستراحة يقلص أبعاد جسمه ويلحمه بالأرض مخططاً لفرار شيطاني، إذ انهال عليه عتادنا من كل الجهات كالصواعق المنيرة، ففاجأه في خطراته وقلب عليه الدنيا، مصيباً مناطقه الحيوية والثانوية عمودياً وأفقياً، ومعرضاً حياته لنهب متصل عتي.

ولما لم يعد العبد يبدي حراكاً اقترب منه رجالنا، فكان أن
ذهلوا وكاد يصيب بعضهم الاغماء من جراء ما شاهدوه وما
اكتشفوه: لقد شاهدوا أن العبد النازف الملطخ بدمائه، كثور
مذبوح، لم يلفظ أنفاسه الأخيرة، بل كان ينتشل النبال التي
أصابته ويجهد نفسه في سبهم وتوعدهم، ويبصق في وجه كل
من حاول مسه؛ أما ما اكتشفوه وأزال دهشتهم مما شاهدوه
فيمثل في شكل وحجم ذكر العبد مسعود، الذي أجمع الجند
أنهم ما رأوا نظيره من قبل أو سمعوا عن مثيله، فتنافسوا في
التعجب وإطلاق الأوصاف والنعوت، التي كان مؤداها إلحاق
سعود بفصائل الوحوش الضارية ثم تغييبه تغييباً وراء
ضخامة عضوه وشدوذه. ولم ينته صخب الجند حول هذا
الاكتشاف إلا بتدخل من قائدهم الذي أمر بحمل العبد إلى
أقرب مستودع حتى ينظر في سجله ويثبت هويته قصد
إرجاعه إلى مالكه.

*

زَجَّ بمسعود في المستودع المتسع محله للدواب المريضة
والبشر التالفين، واستعملت في الزج به كثير من وسائل القسر
والردع والترهيب. ولم تمض ساعات على إقامته في المستودع
حتى شاع خبره في مصر والقاهرة وفي كل الضواحي، وأصبح
الكلام عن آله الجنسية ينتشر في المحافل الشعبية، إلى أن
وصل إلى مجالس الأسمار الفاطمية وتناهت أصدائه إلى سمع
الحاكم بأمر الله.

كان الذاهبون بخبر مسعود إلى الخليفة الفاطمي يشيرون
على هذا الأخير إما بقتله، وإما بخصيه حتى تتخلص أحاديث
الناس منه، وقليلون من ذوي قلوب الرحمة كانوا ينصحون

بتركه في المستودع أو في خيرية حتى يقضي نحبه. وبعد ان فكر الحاكم في كل هذه النصائح والاشارات ضرب بها عرض الحائط، وقرر، والليل يعلك سواده، أن يدخل العبد مسعوداً في خدمته ويكلفه بمهمة خاصة. ولما أفضى بسر هذه المهمة الخاصة إلى دعائه الصناديد وفلاسده المهرة تنافس كل هؤلاء في التسليم والترحيب بها، وفي التنويه والإشادة بعقل الحاكم الذي تخيل فكرتها، و«أبدعها من ليس».

لم ينقض على ميلاد فكرة المهمة الخاصة تلك زمن يسير حتى بادر حاملها الحاكم بأمر الله إلى إعداد ترتيباتها العملية، فأمر بالتعجيل في نقل العبد مسعود من المستودع إلى مصحة القصر ووضعها بين أيدي أحنك الأطباء وأطف الممرضات، حتى يتلقى الاسعافات الأولية فالعلاجات الضرورية، كما أنه أوصى للمالك النحاس سليمان الزعفراني بتعويض مالي مضاعف وبيع الأوسمة الفخرية.

قضى مسعود في مصحة الحاكم أياماً يتلقى فيها شتى أنواع التداوي المكثف، وأشكلاً من العناية الخاصة التي كانت الممرضات بتعليمات سامية يتبارين فيها دلكاً ومداعبة وتهيجاً. ولما أن أخذ يتمثل للشفاء، صار يستهلك كل ما يقدم له من أطعمة ويطلب المزيد، مثيراً تعجب الجميع واستنكار مقتصد المصحة. وما أن وقف على رجليه معافياً، وأخذ يمشي ويحرك كل أعضائه، حتى أوعز الدعاة إلى البراحين بالانتشار في كل أسواق القاهرة والانذار بالمهمة الخاصة التي أسندها الحاكم بأمر الله للعبد مسعود، فانتشروا وردد كل واحد في دائرته:

— يا عباد الله، إن مولانا ومولاكم ينذركم بأن بلاده لا

مكان فيها ولا هواء لأي محتكر للسلع، أو لأي تاجر يغش ولا يأتي الكيل بالميزان. وإذا ما عاث عابث في الأسواق والأقوات فساداً، سلط مولانا عليه العبد مسعوداً ليفعل به على مرأى الناس الفاحشة اللواطية العظمية. وإن مولانا بينكم، يا تجار السوء، فوق حماره الأشهب، يتربصكم، وعقابه أقرب إلى مؤخراتكم مما في أمعائكم من أكل حرام. والحذار الحذار، وقد أعذر من أنذر!

نزل إنذار الحاكم على تجار مصر والقاهرة كالصاعقة المظلمة، وعلى عامة الناس ومعوذهم خاصة خيراً ساراً ومنصفاً، فصار المتضررون من هؤلاء يتربصون بالمحتكرين والغشاشين، ويفضحون كل من تمادى في الغس والتزييف ولم يرعو. أما التجار فقد أمسى معظمهم يقصرون نشاطهم على أعمال مارق متخفٍ لحيل التدليس والتزوير.

*

في الشهور الأولى من دخول قرار الحاكم بأمر الله حيز التنفيذ، كان العبد مسعود - وقد تحول إلى آلة للعقاب اللواطى - يعرف نشاطاً مطرداً حافلاً مع أرباب الاحتكار وتجار السوء. وكان يغالب عيائه في آخر كل يوم، من جهة بالشعور المتزايد لديه بأهميته وبقدرته في تهريب من كانوا بالأمس يرهبونه ويذلونه، ومن جهة أخرى بما كان يستهلكه من أغذية خاصة تقدم له قصد تجديد القوة فيه واستنفار شهواته الشبقية، كاللوز والهريسة ولحم سقنقور النيل وشحمه.

في هذه الشهور الأولى من حياة مسعود الجديدة، كانت بوادر الغبطة والابتهاج تشرق على وجهه وأسنانه المكشوفة

دوماً. وإدراكاً منه لمقامه عند الحاكم بأمر الله ولدوره في
تصحيح مسار التجارة بقسطاسه المستقيم، تكوّن لديه وعي
حاد بأن السماء قد وهبته فرصة - هي فرصة العمر كله -
لكي ينتقم لنفسه من مجتمع برمته أنزل به الهوان وعذاباً لا
يطاق. فصار في رحاب المدينة وأسواق القصبية كلها يمشي
وأمارات العنجهية والخيلاء تسبقه، فيتجشأ على من أراد،
ويضرب القفا التي لا تعجبه، أو يحشر أنوف بعض المتغامزين
عليه تحت إبطيه. وكيف لا يتعنتر ويتسيد، وهو يرى كم من
جرحي وقتلي ومنتحرين تخلفهم في صفوف التجار تفقداته
وظلعاته الفجائية في الأسواق، مصحوباً بزبانية الحاكم
وعرفائه أو بالحاكم نفسه على حماره الأشهب!



كانت جولات مسعود اليومية في أسواق القصبية لا تستثني
أي سوق تباع فيها أقوات الناس ومأكولاتهم. وكان من نتائج
طلعاته الأولى أن اختفى من سوق خان الرواسين الحان التي
تلجأ إلى خمورها الرؤوس المغمومة، كما أمحى من سوق
القماحين أثر زعيراته، وهنّ قحاب تقفن على رصيفه بزي
رجالي أحمر اللون، يمضغن العلك ويغمزن الزبائن المتسوقين.
وكان هذان السوقان يحفلان بما تحفل به سوق حارة برجوان
وسوق بين القصرين من بضائع اللحامين والخبنازين
والشرايحة والخضرويين واللبنانيين والجبانيين والبواردية
والطباخين والشوايين والعطارين وغيرهم. ولم يكن يتميز عن
هذه الأسواق إلا سوق الدجاجين الذي كان يباع فيه الدجاج
والأوز أساساً، وإلى جانبها أصناف القماري والشحارير
والهزارات وشتى العصافير المغردة. وفي كل هذه الأسواق، لم

يجد مسعود صعوبة كبرى في تهذيب الباعة أرباب الحوانيت وردع تجاوزاتهم وخروقاتهم لأخلاق التجارة وجداول الأسعار فلم تنصرم الأشهر الثلاثة الأولى على مهمته حتى سجل المحتسبون جميعهم ميل الأنشطة التجارية إلى الاستقامة والاستواء رغم أنهم تهامسوا بتضاؤل أعداد المزاولين لها والمقبلين عليها.

طوال هذه المدة لم تبق في سجل فتوحات مسعود إلا نقطة سوداء واحدة، اسمها الباعة أصحاب المقاعد. فما الحيلة في مراقبتهم وإنزال عقابه بغشاشيهم، وهم كالبدو الرحل يمارسون في تعمير الأسواق مسالك الكر والفر؟ وكيف ينال من قوتهم وقد نظموا أنفسهم واستعانوا بالمخبرين والمنذرين من الشباب المتكسبين؟ وهب أنه انصرف إليهم انصرافاً فكيف يقبض عليهم جملة وهم يتشتتون شذر مذر في كل الدروب والمنعطفات؟ أمام هذه المعضلة الزبلاء أطال مسعود التفكير، فلم يجد لها مخرجاً إلا في استثمار نقمة أرباب الحوانيب وسخطهم على الباعة أرباب المقاعد، وذلك بالسماح لأولئك بطرد هؤلاء كلما قعدوا للبيع أو لسد كل المنافذ أمامهم حتى يأتي هو وزبانيته للقبض عليهم جميعاً.

في ظهر ذات يوم تصاعدت من سوق الرواسين جعجة شجار حامي الوطيس بين دينك الفريقين، فهب مسعود وصحبه لمعاينة الحدث وإحصاء النتائج. وكان المشهد عبارة عن معركة جدية تستعمل فيها العصي والهرאות والمقاليع، ولا تسير لصالح هذا الفريق أو ذاك. ولما أن طال الصراع وأخذ بعض المتعاركين يجردون سلاحهم الأبيض، أمر مسعود زبانيته بحسم النزاع لفائدة أرباب الحوانيت وحجز سلع أرباب المقاعد مع إرغامهم على الفرار. وما أن نفذ الأمر حتى

شوهده هؤلاء هلعين مذعورين يهربون بأرواحهم في كل حدب
وصوب، ومسعود بجثمانه الضخم يلاحق بعضهم مسبقاً
بزفراته المخيفة. وبعد لأي وجهه جهيد، لم يظفر إلا بفرد
واحد قليل النفس ضعيف البنية والعضلات. فشده من رجله،
وجرجه إلى أقرب درب مظلم، وشرع يعريه من ثيابه ويجهزه
من تحته. وما أن اقترب من تنفيذ العقاب حتى ارتد عن
عقبه دهشاً سائلاً:

– يا الله، أنت امرأة!

أجابت المرأة بتحد ونكاية وهي تسد تكة سروالها وتصحح
هيئتها:

– امرأة أنا بزي الرجل، أبيع الجبن والحلوى في النهار،
وامرأة أنا، بأنوثتي استرزق في الليل، فماذا دهاك يا ناكح
الرجال؟ هذا استي فتغلب على ضيقه إن قدرث، أو هذا فرجي
فطأه لتخرج منه بالزهري العضال. أراك بجثتك الفظيعة
ترتعش أمامي أنا الخردلة والريشة في الريح العجاجة، فاخبر
عني وعن طيشي وعصياني سيدك الحاكم، وإلا أخبرته أنا عن
عجزك.

نهض مسعود متثاقلاً، ومشى متخاذلاً، والمرأة تتبعه بكلمات
التشهير والتعير. ولم تسكت حتى فاجأها بلكمة قوية على
رأسها طرحتها أرضاً وأفقدتها وعيها. وتابع مسعود طريقه إلى
مستقره في القصر، مكفهر الوجه، يكاد لا يلوي على شيء.

في صبيحة اليوم التالي، علم الحاكم بعد رجوعه من جبل
المقطم بأحداث سوق الرواسين، إلا قصة مسعود مع البائع -
المرأة. فنادى على المأذون وأمره بأن يردّ إلى أرباب المقاعد
متاعهم، وأن يهددهم بالهلك إن هم عادوا إلى الأسواق ولم

يلتزموا بالبيع في الدروب وفي الضواحي. ثم أمر بإحضار مسعود، فحضر، فخاطبه فرحاً مستبشراً:

- يا عبدالله، لقد اطلعت على تقارير المحتسبين عن حسناتك في الأسواق، وسررت بها كثيراً. وإني اليوم أريد أن أرقبك فأوسع نطاق مهمتك الخاصة إلى بعض المدن والأمصار الأخرى في مملكتي. لذا فإن المحطة القادمة لمتابعة مهمتك هي الاسكندرية، حيث يتكاثر تجار السوء والمهربة ومزيفو السكة. وإني أعطيك أسبوعاً للاستراحة والاستعداد. والآن، قواك الله عد إلى فراشك.

*

لقد خالج مسعود دائماً شعور غريب بالذنب ووخز الضمير، لكثرة ما علق بذاكرته السمعية والبصرية من أشكال المؤخرات والأستاه، وأنواع التوجع والتضرع والصراخ. وهذه الأشكال والأنواع كانت تلاحقه في نومه، وتتمر أمام عينيه المغمضتين شريطاً مزعجاً مدمراً، تعود فيه باستمرار حالات أصحاب الأستاه الضيقة والمصابين بالبواسير. ومحاولة منه لإبعاد هذه الرؤى وتجنبها، صار في هذه الأسابيع الأخيرة كثيراً ما يلجأ إلى مغالبة النعاس بالإفراط في تناول القهوة والعقاقير الميقظة. وقد خلق له كل هذا حالة من الإنهاك الحاد التي لم يكن يمنعها من البروز للعيان إلا ما كان يستهلكه يومياً من مقويات تحشوه بها مصالح الحاكم بأمر الله... أما وقد قرر الحاكم إيفاده إلى الاسكندرية لتأدية المهمة الخاصة نفسها في حق أقوام جدد، متضلعين في فنون الغش والاحتكار، فهذا ما لا طاقة له به ولا مخرج له منه إلا الهلكة الهلكاء والموت المحقق.

منذ هذا اليوم المشؤوم الذي تلقى فيه مسعود القرار

الخليفي، بدأت تهب إلى أوصاله حالة من الانهيار المتفاقم المرفق بالسقم الكلي والأرق المتواصل. وكان بين نوم خفيف ويقظة متراسة، لا يمر من حلم مزعج فادح إلا حلم أزعج وأعتى. وكانت جلّ الرؤى تأتيه بأرهاط من الحرفيين والتجار، كل رهط يتفنن في أساليب العبث والتنكيل به، ويكون هول الختم من عمل الجزارين الذين يخصونه أو يفعلون به الفاحشة اللواطية العظمى. وكان مسعود لا يدفع عنه هذه الرؤى إلا بملء الفراغ بحركات وتهديدات جنونية معززة بزمجرات وصرخات شديدة، كثيراً ما كان صداها يتناهى إلى سمع الحاكم بأمر الله، فيسأل عن الأمر فيقال له: «إنه العبد مسعود يرى ما لا نراه، ويحارب طوابير من الجن أو الخلائق الغيبية، وهو على حال من تخبطه الشيطان من المس». ويأمر الحاكم: «زيدوا في تعمير بطنه باللوز والهريسة، فإن لم يرجع إلى رشده وسالف عهده انهالوا عليه ضرباً بالعصى عساها تذهب عنه الحزن والعصيان».

لا التغذية القسرية حسنت من حال مسعود، ولا الضربات بالعصى جاءت به بنفع ولو يسير، بل إن جسمه أخذ يفقد في كل يوم من وزنه، فما انصرم الأسبوع حتى بدا عليه الهزال ونتاج العظام. وصارت الألسن تتحدث عن ذوبان العبد وتآكله، وأنفقت أخرى بلاغة ماجنة في وصف غيابه التدريجي وراء حجره، وتلاشي حجره وراء جهازه الجنسي.

كان مسعود، وهو في هذه الحالة من الانطفاء والانسحاق، يُحمل قسراً ويجر جراً إلى الأسواق، ليرغم هناك على مواصلة واجباته في المهمة الخاصة المنوطة به. وقد ظهر جلياً لعيان الحراس والمعاقبين معاً، وتبين للتجار عامة أن مسعوداً قد

أصابه قصور شامل، فلم تعد تجدي فيه عقاير الانهاض ولا كلمات التحريض والاستنهاض. وكيف لا يضحى، والحالة هاته، محط تشهير الجميع وسخريتهم ونكايتهم!

*

بعد أن انفضح أمر مسعود وأصبح ضياع رأس ماله في حكم اليقين، فُرِضت عليه إقامة إجبارية في زنزانة بجوار اسنابل القصر، وهنا صار ينام هادئاً مسترخي الأعصاب، أو يفيق ليأكل ما يقدم له من قوت زهيد ويطلق ضحكات اليأس والمرارة.

لا سبيل إلى الهروب بعد هذا اليوم ولا جدوى من التفكير في الفرار! فالجحيم عند هذا العبد لم تعد ترسي أركانه وتؤجج لهيبه نظرات الآخرين وسيوفهم، بل الجحيم أمسى في داخله يقيم لتسلطه بؤراً وأعشاشاً. والحال أن مسعوداً لم يعش قط حروباً وثورات ولا كوارث طبيعية، ولو جرّب كل هذا لربما كان الخطب أهون والشر أقل، ولكن اللطف. بل إن الكون من حوله كان دوماً متراكماً متراخياً وزاخراً بالعاديات والاكنتظاظات المتكررة التي لم تكن تفتح عليه دائرة الوعي المدرك أو تثير لديه تساؤلات مؤلمة أو ارتياباً. لا، إن جحيم هذا العبد كان من ذلك الصنف الذي تطفئ فيه ذاكرة التفاصيل المرعبة، تلك التي في سراديبها يغوص كل يوم قدراً مقدراً، ولا يهرب من فادحها إلا إلى أفدحها، فكان يختنق ويطلب الخروج من الدنيا ومن المؤخرات والأستاه التي تلاحقه بجروحها ودمائها، ويطلب لجسمه الملعون الزوال الكلي. وهكذا صار مسعود يمد عنقه مداً ويطلب من السيوف والرماح ضربات القطع والرحمة. ومن كثرة ما عاود هذا المد والأح في هذا الطلب، صار

في زنزانتة يرى رأسه مقطوعاً قطعاً لا شك فيه، فيهمد،
ويضرب عن الطعام، ويتوعد الحراس بنتانة جثته إن لم
يضعوه في تابوت ويقبروه إقباراً.



بمرسوم من الحاكم بأمر الله، منع المخبرون من التحدث في
موت مسعود. لهذا تكاثرت الروايات حوله في الأسمار الشعبية
والحلقات الأدبية، فمن رواية تقول إن مسعوداً اقتحم مجلس
الحاكم متأبطاً تابوتاً وقال له: «يا صاحب الحضرة، لا عفوَ
أطلبه ولا أماناً. إن كنت لا تحيي فلك ان تميت، وهذا تابوتي
فضعني فيه وأحفه بجوف التراب، وموعدنا يوم الحشر، ولا
غالب إلا الله». فما كان من الحاكم، نزولاً عند رغبة العبد
ورفعاً للتحدي، إلا أن نفذ طلبه... ومن رواية أخرى تقول إن
مصالح الحاكم قد كلفت وفداً من الجزارين رفيع المستوى
بأن يفعلوا بمسعود ما فعله بهم أو بزملائهم، وذلك إلى أن
يسلم الروح... ومن رواية تدعي بأن العبد مات على إثر خصي
غير موفق.. ومن رواية أخرى تزعم أن مياه النيل تقيأته،
فتأكد بعد الفحص الطبي أنه مات منتحراً بمائة طعنة وطعنة.

الباب الثاني
في المجالس الحاكمة

I

الجلوس في دهن البنفسج

وكان سببَ بغي الحاكم في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة - المتضادة التي تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعد شيء - صنفَ من سوء المزاج في دماغه، احدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا وفساد الفكر منه منذ حدائته. فإن من المتعارف في صناعة الطب أنه قد يكون، فيمن يعتريه هذا المرض، أنه يقوم في نفسه أوهاًم، ويتخيل أموراً وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله، ولا يثنيه عن ذلك ثاب ولا يرده راد. وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي. ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه - تعالى كثيراً - ويكون يقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله ما ينكشف (به) حاله عند من يشاهده ويحادثه، وتزول الشبهة فيه من أول وهلة. وربما كان تخليط أحدهم في الكلام مستوراً، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة تعرض له في أمور مستورة عن العوام، فتكون صورته عندهم صورة العقلاء، وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفاضل الناس فإذا أطالوا اختبارهم بأن لهم ما انطوى عنهم في نقضهم. وهذه صورة الحاكم: فإن نقضه كان يتبين لمن تطول صحبته له. وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له. وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه أنه كان قد عرض له في حدائته تشنج، من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المالنخوليات، واحتاج في مداواته منه - مع ما كان يعالج به - إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به. وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمن والدائم مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره. وإن أبا يعقوب اسحق بن ابراهيم بن نسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع

الكافة منها، فانصلحت اخلاقه وترطب مزاج دماغه، واستقام امر جسمه.
ولما مات أبو يعقوب، وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء،
رجع إلى ما كان عليه.

يحيى بن سعيد الانطاكي، صلة تاريخ اوتبخا

في ليلة من ليالي صيف سنة تسع وتسعين وثلثمائة، كان الحاكم يقيم في منزل خلوته بمنظرة السكر، وقد لبي نصيحة طبيبه النصراني ابن نسطاس بالجلوس في جفنة دهن البنفسج وشرب النبيذ، حتى يرفع عن دماغه ومزاجه اليبوسة والجفاف، ويظهر نفسه من التشنج وبخار المالنخوليا. وما أن أخذ يستوي على برج الخفة والأسترخاء، عارياً إلا من مؤزر، حتى نادى كبار الدعاة فحضروا وقبلوا الأرض وقعدوا في ركنهم المعتاد، ثم نادى على المغنين فأتوا فتياناً وفتيات، وشنفوا سمعه بأعذب الأغاني وأرقها. ولما مال طبعه إلى الليونة والنقاء وشعر بهيجان النعومة والهدوء عليه، أذن للمغنين بالانصراف، وطلب إحضار غلام القلم، فأحضر وفي يده الأوراق والأقلام، ثم أعطى أمرين، واحداً للحرس بالروح والآخر للصبي بالتعري والجلوس معه في الجفنة تهيؤاً للكتابة.



هذا الليل الصيفي لا يميزه من حيث الظاهر شيء عن باقي ليالي الفصل: السماء المرصعة بالنجوم هي هي، والقمر الطالع في دوره وضيائه هو هو، والسكون له نفس العمق والامتداد.

أما باطنياً، فهذا الليل لا يجود الوقت بمثله إلا قليلاً، وعند اشتداد الحمل واختمار الوجد. لا تألق لهذا الليل ولا تعريف له إلا بحال الحاكم وفي معجم إدراكه وفيض الخطرات القهرية عليه. ليل كهذا لا يميزه ولا يشفع له إلا رغبة الحاكم في ضبط دواره الداخلي وتسريح القول في أعراضه وهو أجسه، طلباً للشفاء والنجاة، طلباً للكتابة المنقذة.

حين أخذ الحاكم يملئ خطراته القهرية على الغلام، كان لا يزال مترنحاً بين لذتين: لذة دهن البنفسج ولذة النبيذ الصاعد في رؤاه، قال:

- الرأسُ الطفلُ ومأساته، انشقاقُ الرأسِ وتاريخه:
خريطتان لتأليفِ المحنة، الأمعانِ والأتیانِ في ركبِ المشقة...
عن أتعسِ الرؤوسِ قد لا يفيدُ القولُ قد لا يفِي.

أتعسُ الرؤوسِ أبرزها الرأسُ الحزينُ الذي في جوفه
نائحةً.

أتعسُ الرؤوسِ الرأسُ المحمومُ الذي كسرَ المجاذيفَ
والسندَ، وشقَّ المياهَ، ثم ارتدى الخيشَ أمامَ الله منتظراً بيسَ
سرواله في الشمسِ، سرواله الذي لثمَ الأمواجَ والعداري، وكان
ذات يومٍ قبلةَ الحواملِ والثكالي.

محنةُ الرأسِ في الغيابِ وراءَ حجمه.

حجمه في قياسِ الشعريرةِ واكتئابِ العين.

آيتةُ القفارِ حيث لا رئيسَ ولا مرؤوسَ، وحيث يُرى وحدهُ
يغطسُ في الرملِ الآمه، ويقاومُ بالسهبِ والتأجيلِ تدحرجه.

لا محيدَ للرأسِ عن الاختفاءِ وراءَ ظلِّه، كبيضةٍ تتركُ لونها

وتمضي. لونه كلونها: بياض التكرار والبدء، بياض الكتمان
والستر.

*

وسكت الحاكم هنيهة ثم أملى:

لو كنتُ صبياً لطالبتُ بأب يعلمني رمي المرأة والمرايا،
ويعلمني الركوب والغياب، ويورثني صحراء في داخلي مترامية
الأطراف كالمصير، ويورثني حب الانتعاش بالصمت والنعوش
وبالعدم.

لو كنتُ صبياً لطالبتُ بأب في صدره بقية من الجاهلية،
بأب يعلمني بما أوتي من حس وعرفان وشاعرية: كيف أحرق
الجدران ولو كانت من حرير،

وكيف أعبد البحر وأبول فيه...

لو كنتُ صبياً لحلمتُ بأب يقول لي:

في هذه الأزمان تصدع الحب والعرفان،

فأضحى كلُّ يحملُ جهله أو يشكو من ناقتة،

وأضحى كلُّ يعملُ على شاكلته.

وأنت مالك إلا أن تهيم في البراري وتدير الخلق ظهرك، أو

أن تكرس للجنون في حكم الناس عمرك.

*

عاد الحاكم إلى الثبوت في سكون مطبق، ثم في ما يشبه

الغيوبة. ولم يخرج من حالته إلا ليطلق الكلام دفعات، فكانت

متابعتها بالتقييد تستعصي على الغلام المرهق الذي لم يقبض

فيها سوى على تفاريق، منها:

— البرية البرية!

الأمْلُ المرتعشُ والأقاويلُ القاسية!
أعلمُ الخوضَ في حياةٍ لا حلاوةَ تسكنها ولا أفاقَ لها.
أعلمُ العورةَ اليتيمةَ: إما أن تكونَ وحدها أو مع غيرها.
أعلمها تسيرُ وحيدةً أو مخالطةً، تسيرُ نحو حفرتها أو تسيرُ
نحو أعوجاجها قبل الانكسار.

في المثوى حيث لا حراك ولا عراق: يطيبُ التفكيرُ أو يصيبُ
التدبرُ، فيأتي الموتُ عندئذٍ، يأتي في الوقتِ حثيثَ الخطى،
يأتي في الوقتِ.

عَبثاً نتقدمُ في السنِّ ونهرمُ، لأننا نتعلمُ الحياةَ حينَ تنقضي
الحياةُ، حينَ ننقضي.

(...)

تكررُ الموتُ - ولا ابتكاراً! - قلتُ لا بأسَ ولا حرجَ: تدفعُ
الأرحامُ الخلقَ وتبلغُ الأرضُ الخلقَ، قلتُ لا بأسَ إن كانَ في
الدفعِ والابتلاعِ: التصرفُ المتبصرُ والألمُ الأدنى والضررُ
الأقلُّ... لكنَّ الأمرَ كانَ العفى، وكانَ المكانُ المهتزُّ والامكانُ
السعيدُ في مأزقٍ، كانَ الدخانُ والزحمةُ وضيقُ المحلِ بدلَ
الانعاشِ القوميِّ، وسعةِ المجالِ بدلَ الهواءِ.

قلتُ: قبلَ أن تبلعني الأرضُ، ها أنذا أتبوا الفرحةَ العليا،
وأسيرُ نحو الثبوتِ الأسمى. ها أنذا اسيرُ حتى تستقيمَ
هامتي ويحصلَ تشغيلُ طاقاتي.

(...)

انتظرتُ جسمها الآمنَ أن يزفَ إليَّ:
حصاةٌ وضاءةٌ تبلورني،
نهداً متنهداً،

كيمياء سعادة وزينة .
ولما زُفَّ إليَّ كان بعد وجيزِ الوقتِ أفهً ، زلةً وهباء .
قلتُ : الأناةُ الأناةُ !
وتريئتُ ريثما ينقشعُ الغيمُ وتصفو السماء
ريثما تأتي الحياة ...

لكن من حيثُ لا أتوقَّعُ أتتِ الواقعةُ ، أتتِ الأحاسيسُ
الخطيرةُ والفاجعةُ . جاء البقاءُ بفرصِ السقوطِ ، صرتُ دونَ
التحكُّمِ في المنحنى ، دونَ المشعلِ والفأسِ ، أخوضُ كلَّ يومٍ
صراعاً للحيلولةِ دونَ انفجارِ الرأسِ ، للحيلولةِ دونَ انهدامِ
الوجه .

(...)

وذاتَ يومٍ ، قمتُ ، عن بكرةِ أبي وقلتُ للنساء اللواتي
شاركنني فراشي : حدثُ لعمرى رائِعٌ أن أطرحكنَّ في توابعِ
مسمرةٍ ، وأرميَ بالتوابعِ في جوفِ النيلِ ... وهجرتهن ، ورحتُ
في ربوعِ الفجرِ ، عائداً إلى الانشغالِ بشمِّ الوردِ والانصاتِ
لحفيفِ أجنحةِ الطيور .

(...)

قضيةُ القضايا : تغييرُ الدنيا ! محبةُ التغييرِ : الاندفاعُ نحوَ
فكِّ الارتباطِ بينِ الذاتِ والقمعِ والخصاصة . محبةُ التغييرِ :
إبطالُ التناقضِ بينِ الحياةِ وما يقهرُ الحياةَ ويبيدها . لكن يا
دعاتي : لماذا يلزمني دوماً شربُ النبيذِ واقتناء شتى الأعشابِ
لخلق تلك المحبة في ذاتي ؟

ستبلى حيلي وأدويتي ، وتنهدمُ الوحدةُ تلو الأخرى
صيدلياتي . سأقضي العمرَ ما تبقى منه في محاولاتٍ عديدةٍ

عنيدي لفهم ما جرى، لفهم ما لم يكن في الحسبان، لإدراك هذا الانقباض بالعين المجردة، هذا الانقباض الدفين الأثري الذي يصاحب الفرد المفرد المختلط، يصاحبه كالرعد تارة، وكالموال الطويل الأنين طوراً.

ماذا هناك غير ما جرى وما حدث؟ الحدث الحدث! وماذا هناك غير الانقباض؟ والانقباض نوعان: انقباض عادي يبرر نفسه بنفسه ويتضافر على خلقه: صدا الأيام ووعورة حفظ الصحة والسلام واعتداءات الآخر. وهناك انقباض استثنائي يسكن الفرحة ويرافقها كتعبير مستتر عن الخوف من ضياعها. وفي كلا الانقباضين: السيادة للتهيبة، التهيبة التي لا يقهر سيادتها شيء اللهم إلا سيادة الغيبة الدائمة.

إنما على كل حال، وفي كل الأحوال المتدهورة، وبعد الغيبة الواحدة بعد الألف، وبعد الخطوة الواحدة بعد الألف، ومهما كانت وطأة الآلام وشدة العسر، يظهر أنني سأتحسس ذاتي لأرى متيقناً مستغرباً أنني ما زلت حياً وما زلت ممكناً فيكم. ويبدو لي أنني سأجمع ما تبقى من حضوري وقوتي، ومستقيماً أضرب في المدائن والوهاد، مفكراً أنه لا أحد في الحكم يقدر أن ينال من أنفي، لا أحد يقدر أن ينال من نزوعي العنيد نحو تحقيق الارتباط والاتفاق بين رثتي والهواء... لا بد أن يظل فكري منجذباً نحو قطبه الشرقي، لا بد أن يظل ارتفاع هامتي رأس مالي.

(...)

الراجعُ الراجعُ أنني بعد كل ما جرى (ويا لوعتي مما جرى!) سأذرعُ الدروب والشوارع جيئةً وذهاباً، سأذرعها وحالتي أنني أغني نشيداً حماسياً، والدرأويش يرقصون بين

يدي. سأقول إنني الذرة الفرد، فما بالي أحمل همي وأخاف من
هلاكي، أخاف كأني الأول أو الأخير الذي يهلك؟
سأنظم أبياتاً شديدة في هجاء الغربية،
وأسيرُ بصيغِ الجمعِ أتَهجى الكُلَّ وأنشدُ التوحيدَ
والوحدة...

كنتُ ما زلتُ أتمشى. والمشيُّ على الاقدامِ، حسبَ رأي
الحكماءِ والأطباءِ، رياضةٌ تجلبُ للجسمِ الفائدةَ الكبرى،
وتقوي قدرته على مقاومة الانقباضِ نفسياً كان أو عصبياً:
إلا أيتها النفسُ القانطةُ اضربي في مناكب الأرض، وقفي
موقفَ السعي. كنتُ ما زلتُ أتمشى وأفكرُ في كتابَةِ سجلاتِ
النهي والردع، ونموذجِ لشاهدتي أنا الذي ما زلتُ على قيدِ
الحياةِ، وأعجباه! وما زلتُ أنظرُ جدياً كيفَ أحولُ لصالحِ كلِّ
الأقدارِ والمحنِ الصماءِ التي لازمتني.

بعدَ أيامِ قلائل، خامرتني فكرةٌ جديدة: قلتُ ربما
الخلاصُ - التلهي في الزواج من جديدٍ ومدحِ الفراش، أو في
تعلمِ أصواتِ الحيواناتِ المفترسة. ربما الخلاصُ في اصطيدِ
العصافير والفراشات، أو في أكلِ اللوز البارد... ولربما
الخلاصُ أيضاً في جمعِ الرؤوسِ المقطوعة أو في تدوينِ سفرِ
حولِ فوائدِ المزاج.

وذلكَ كلُّه ريثما تعودُ المياهُ إلى مجاريها، وتقلُّ حدةُ النوازلِ
وتجيءُ الرتابةُ والعادةُ لطمسِ وتعليبِ الأجسامِ.



خيم على المكان صمت رهيب، وأطفأت رعشات الدعاة في
زاويتهم الشمعة القريبة منهم. وكان الحاكم، تحت تأثير النبيذ

ودهن البنفسج، ينعم بالعرق المتصيب على جسمه وبالدّم
الفائر في شرايينه. وفجأة انتصب واقفاً وشرع يتحمس في
الكلام كأنه يخطب أو يملي سجلات. أما غلام القلم فقد زاغ
عن الجفنة، وظل على الأرض يجاهد التعب ويكتب ما يسقط في
سمعه من كلام سيده. قال الحاكم:

– إني لمحو الهمّ المقيم في البصر، هممتُ بالنيلِ وهمُّ بي،
هممتُ بالطيرِ وهمُّ بي. ولإحياءِ الصلواتِ والرحمِ، ركبتُ
الزورقَ المبحرَ في النورِ، ركبتُهُ يقودني موالُ الطائرِ البحري،
يقودني إليكم يا دعائي.

(...)

يبحثُ عن مصيره جسمي ذو النصفِ الخرافي،
أضعُ الحجرَ الأساسيَّ لمسقط رأسه،
أضعُ الرأسَ بينَ هلالين من الجمرِ،
وأفتحُ الطريقَ في وجهِ دُعاةِ الوعي والسرِّ،
ثم أمشي في الأرضِ شاهراً سيفي وتجبُّري
على من ينكرني بالعقلِ أو بالسحرِ.

(...)

لا تشرقُ الشمسُ عليَّ لأنِّي كهفٌ...
لأنِّي كهفٌ معشوشبٌ،
لأنِّي كهفٌ معشوشبٌ، ينهارُ وسجنٌ،
لأنِّي سجنٌ أثريٌّ وخريطةٌ سرٌّ...

لا تشرقُ الشمسُ عليَّ، إنما في صدري أرى كوكباً مشتعلًا
يبحثُ عن أنثاه، وعن بلدٍ ورعية.

وأراني أمسكُ بأخر خيطٍ، فألقي في السماءِ طيوراً

لأصطادها، وأطرق الأبواب وأقول: من الطارق؟

لا تشرق الشمسُ عليّ، إنما لكي أياسَ من يآسي، وأعيدَ
النارَ إلى مخابئي، أجوبُ البلادَ، فإني أتِ...

وحقي في الحكمِ والنقضِ! إني أتِ بوجهٍ متوهجٍ من
الخفايا وأخر المعازل. إني أتِ من أسواقِ الوجودِ وأمكُنّةِ
الدنيا، لأخبرَ الصباخَ وأخبركم. فافتحوا لي صدوركم يا
دعائي وعانقوني، وارفعوا أيديكم وعاضدوني.

(...)

أنا الذي أتى الزمانُ بي،
لا تشفعُ لي إلا أسبابُ الصدفةِ والنسبِ،
أنا ابنُ العَرَضِ الذي يرومُ الحلولَ في الكينونةِ والقدرِ.
ولي ما استطعتُ أن أناقضَ الريحَ
بالهدمِ والتشييدِ في حقولِ المعمارِ والحجرِ.
ولكم أن تكتبوا عني ما شئتم،
فخيامي تحتاجُ إلى أوتادِ حبكم وحسائفكم،
كما الأرضُ تحتاجُ إلى الشمسِ والمطرِ.

*

عاد الحاكم إلى الجلوس في جفنة البنفسج، فقفز فيها غلام
القلم، واستمر في نسخ كلمات سيده الذي أضحى صوته
يتأرجح بين الصعود والهبوط، بين الاندفاع والإنهاك. قال:

– دلوني عما أبتغية من الحكم والناس نياماً أو ساهون،
وسيلانُ الوقتِ يعملُ من حيث لا أدري على استهواءٍ نحبي.

وأنا أسودُ بياضَ الأيام، أشعرُ أني أخرجُ من حضرة

الكونِ إلى قبضةِ السرِّ، وأترهبُ في مدارجِ الخندقِ
والاعتصامِ.

تعبُ كلها السياسةُ، فما أعجبُ إلا من متكالبِ على ملءِ
السلطاتِ.

أتعبُ منها، لا لأنَّ القريحةَ جفت أو القرحةُ التأمت، بل
لأنَّ حصتي من نعرتها، في أنجحِ الحالاتِ افتتانٌ هو ولحمةُ
أوهامي على حدِّ سواءِ.

كلُّ ما ابتغية من السياسةِ أن أمرًا أنا وأخلفَ من ورائي
رؤوساً في حالةِ تأملٍ وتمعنٍ، أو في حالةِ طيشٍ وشروءِ.
وأما إن خانني الفلاحُ، فسحقاً للحكمِ وتباً لكل تبارٍ في مداه
بالسيوفِ والأقلامِ.

(...)

لكل قرن قارعتُهُ.

وأنا قارعةُ هذا القرنِ لرُبِّعه.

فتحملوني أنا المتربُّعُ فوقكم تحتَ شارةِ السرطانِ في فلكِ

البروجِ.

(...)

تأتي على فكري أحياناً لا يرى فيها إلا العتماتِ والطرقِ
المسدودة، فينزوي وينطوي على قواعده، وقواعدهُ كلها لا
تفني إلا إلى الأعبراضِ والعدمِ السحيقِ. إذ ذاك أعلمُ أن
نفسِي في حاجةٍ إلى النجومِ والرياضةِ العليا.

تأتي عليَّ أحياناً أطلقُ فيها العنانَ لخاطري ليسرحَ ويمرحَ
كالفراشِ المفتون، فلا أراهُ يلاحقُ إلا النفاياتِ أو صفائرَ
الأمور، إذ ذاك أدركُ أن ما يسكنني هي الدنيا، وأن نفسي في

أمسّ الحاجة إلى النجوم والريضة العليا.
(...)

الجسم عورة والنفس أمارة بالسوء، فأين الملاذ وكيف
المخرج.

إني أغرق النظر في مستنقعات الفراغ، وأحصي الأجرام
السابحة في أفلاكها، حتى تذبذب وأتعب، أو أعود إلى سرتي،
وأنزل فيها مغمض العينين وعلى أذني أقفالها.

لكن في كلتا الحالتين، وفي كل حيلى لتغييب أناي المهيم
الطاغي: تظل حياتي ذات النواقيس ترقص من حولي
وتهددني بسمومها وامتدادتها الفتاكة. وأقضي الساعات في
البحث عن أفيد الأفكار للحيلولة دون تجليها.

فأقبلوني من الكلام كله، إلا ما كان منه حياً فواراً يبيح
النطق به هدر دمي.

دعوني أبت في سجلات الممكن والمستحيل عم يدوخ
الأبصار، ويقلب الأعين، ليأتي أفكاراً منحوتة من صلصال
ونار، تشيب لها النواصي، وتحير العقول والأفهام.

(...)

في هذا الليل الحالك وحول ضوء هذه الشمعة المتأكلة:
تراكم هل تعرفون ما يجول ويصول في خاطري من هواجس
سوداء، بعضها كالحشرات اللاسعة، وبعضها كالزواحف
الفتاكة.

وحق حماري القمر! لو عرفتكم بعضها لتسابقتم شعوباً
وقبائل صوب المنافي، أو لخذقتكم على أنفسكم في أدغال
الصمت والهمود.

لذا سأظلُّ أخفيها وأكُفُّ في تغييبها عن حَيِّزِ الحدث، ليس
رأفةً بكم أو عطفاً عليكم، بل لأنني أخشى أن أصبح راعِ بلا
رعية، أو سيفَ الله الذي لا يحصدُ إلا الريحَ والغبار.

وفي المسافة التي تفصلني عن البوح، أتلهى بغمسِ يديَّ
في دمِ عينةٍ من عبيدي، أو بالرؤية إلى عوراتِ الغلمان، طالباً
منهم واحداً واحداً: «أرني قمرِك»، حتى أتبين الناجي من
الهالك.

(...)

تأتي عليَّ أحياناً تكبلني بالرغبة في أن تستأذني الكوارثُ
الطبيعيةً بالحدثِ والحلولِ لأجيبها:

أعطيك الآن وليس غداً هذي الأرضَ ومن عليها، فصولي
فيها، واعبثي بنواميسها وطقوسِ سكانها، وأعيدي نشأتها
طوفاناً مخلقاً جديداً.

(...)

ما لأحلامي المرعبة تدور في حلقات؟

منذ أخذتُ بمقاليدِ الحكمِ بأمرِ الله، فادحةٌ هي الأحلامُ
المرعبةُ التي تصيبني وترهقني في كل ليلة جادت عليَّ بالنوم!
ومنها على سبيلِ المثالِ لا الحصر: أني أراني أسقطُ مطعوناً،
كما سقطَ الإمامُ عليٌّ والحسن، أو أرى رأسي مقطوعاً يتدحرجُ
كما تدحرج رأسُ الحسين. وأراني أتضاعلُ وأطلبُ النجدةَ ولا
من يحركُ ساكناً. ومن كثرةِ الألمِ والفرعِ أستفيق، فأتحققُ
فرحاً أن ذلك كابوساً ليس إلا. وما أن يعاودني النعاسُ حتى
ترجع جحافلُ التآمرِ والإبادة لتنهالَ عليَّ، من غير أن تقتلني أو
تفقدني وعيي. وقد يتكبرُ الحلمُ المرعبُ في حلقات، آخرها

أهل من سابقها.. فتصويروني إذن إبان يقظتي، وتصوروا
الوان التجهم والكدر على كل جهات وجهي.

فكيف لي أن أخفي هذا الوجه عن رعيتي، وألا أسعى به
بينها منيراً سبيلي واحتياطي بأسلحة البطش والخديعة؟

(...)

إني من البكائين الذين يذرفون دمعاً من النوع السيل
الشديد الحار، وإني لا أقدر على وصفه، وإن وصفته فلن آتي
بأحسن مما قاله الشعراء والصوفية في باب البكاء، فراجعوا
إذن ما قيل في هذا الباب حول الغمة والعين الدامعة.

أما لماذا أبكي، فمرده بدءاً إلى كوني لا أجدُ بديلاً للعنف
لتقويم رعيتي وأرباب دولتي، ثم إلى أن كل أعمالي ومغامراتي
في السياسة إنْ هي إلا نقطة في بحر لا قاع له.

(...)

من الأسرار ما لا أقوى على قوله إلا يوم أكون من الموت
على قاب قوسين أو أدنى. فانتظروني على فراش هلاكي،
لأمدكم بما يفضحني ويفش عظمي وجلالي.

*

كان الفجر أخذاً في البروغ حين بدت على الحاكم علامات
الأرق والإرهاق، فقام مسرعاً ونظر في عورة غلام القلم نظراً،
ثم ارتدى جيبته وغادر منظرة السكره قاصداً مخدعه في
القصر. وما إن غاب حتى تسابق الدعاة نحو الغلام، فأخذوا
منه الأوراق، وتباروا في نسخها لكي يعرضها كل منهم على
ضوء فهمه وبصيرته، ويرتاد بها في مجالس الخواص مدارج
التأويل والحكمة.

II

الجلوس لطلب الدهشة

«ومن النكت المضحكة: كان في زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح، وسبب ذلك أنه كان له طرطور فيه قرنان من قرون البقر فيضعه إلى جانبه فإذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القاضي ذلك الطرطور الذي فيه القرنان ويتباعد وينطح الخصم الذي يجور على صاحبه، فاشتهر أمره بين الناس بهذه الواقعة. فبلغ أمره إلى الحاكم فأرسل خلفه، فلما حضر بين يديه قال له ما هذا الأمر الذي قد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس، فقال يا أمير المؤمنين، اشتهي أن تحضر مجلسي يوماً وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسي من العوام، فإن كنت معذوراً فيهم وإلا عاقبني بما تختار. فقال له الحاكم أنا غداً أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول. فلما أصبح الحاكم أتى إلى مجلس ذلك القاضي وقعد من خلف ستارة. فأتى إلى القاضي خصمان فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فقال فاعترف له المدعى عليه بها، فأمره القاضي بدفع ذلك إلى صاحبه فقال المدعى عليه اني مفسر في هذا الوقت فقسطوا علي ذلك على قدر حالي. فقال القاضي للمدعي ما تقول؟ قال أقسطها عليه في كل شهر عشرة دنانير فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون خمسة دنانير، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون دينارين، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فقال القاضي تكون ديناراً، فقال المديون لا أقدر على ذلك، فلا زال القاضي يدرجه حتى قال له تكون عشرة دراهم في كل شهر وهو يقول لا أقدر على ذلك، فقال له القاضي وما القدر الذي تقدر عليه في كل شهر فلعل أن يرضى به خصمك؟ فقال المديون أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم في كل سنة بشرط أن يكون خصمي في السجن لثلاثين يوماً من هذا القدر ولا أجد خصمي فيذهب مني، فلما سمع الحاكم ذلك لم

يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضي انطح هذا النجس
الشيطان وإلا فأنا أنطحه، وكان الحاكم أحمق من القاضي، انتهى».
إبن إياس، بدائع الزهور.

عندما كانت القضايا والمظالم تشكل على اجتهادات
القضاة، أو تقوم بينهم فيها صراعات النفوذ أو روائح
الرشاوى والبراطيل، كان الحاكم بأمر الله لا يتأخر في التكفل
بها والجلوس للنظر فيها. ولعل من أعجب المجالس القضائية
التي شرفها برئاسته الفعلية ذلك المجلس الذي عقده ذلك ليلة،
مباشرة بعد خروجه من حلقة مداواة بدهن البنفسج. وكان
وجه العجب فيه أن سُطِرَ أمام أعين المتهمين شعار لا قبل
للقضاة والعارفين به، وإنما هو من بنات أفكار الحاكم، وهو:
أدهشوني أغفر لكم! ومفاده - كما شرح القائد غين صاحب
الشرطتين والحسبة للمتهمين الستة الماثلين في القفص - أن
يأتي كل منهم، لقاء الإفلات بروحه، بما من شأنه أن يدهش
الخليفة ويروقه من لطائف الحكم وطرائف الكلام ومستملح
النكت. وكان أول من مثل بين يدي الحاكم من الممتحنين رجل
بصري معروف بعلمه الفياض في الطبيعيات والرياضيات، وهو
أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم.

قال الحاكم بعد أن انحنى بالتعظيم والإكبار: «تذكر يا بن
الهيثم ما أطلعتك عليه في الستر، سألتني عن الشيء الذي
أخشاه أكثر، وأجبتك: خوفي الوحيد من النيل حين تقل مياهه.
فكان دعائي دائماً أن يظل منسوبه أيام الري سبعة عشر
ذراعاً حتى لا تأتي أسعار الأقوات بالمكوس والغلاء، فأتعرض

لجوع رعيتي وهيجان الأمراض والموت فيها وعلي، وحتى لا أجد من سبيل سوى أن أعطي ما ملكت، وأن أعيد من دخل في ملتنا إلى ملته قصد إحقاق الجزية وإنعاش مواردها. وأقبلت عليّ يابن الهيثم بادعائك أن تعمل حسابك وكل علومك الرياضية في النيل حتى يحصل جوده وعطاؤه في كل من حالاته من زيادة ونقصان. وكلفت طوابير من المتقنين في شؤون المياه بتعريفك على النيل من شلاله بأسوان إلى كل محطاته وفروعه وروافده. إلا أن كل ما فعلته معك ذهب هباءً وما وعدت به كان افتراءً وبهتاناً. ورفعنا عنك تهمة نكث الوعد بأن كلفناك بالنظر في بعض الدواوين، إلا أنك صرت تتظاهر بالجنون والخبال، فاختلطت معك كل الأوراق والأرقام، وأمست كل الأقضية تفضي إلى ما لا تحمد عقباه. ولما كدت أقر بإعفائك من كل المهام، كشفت مصالحي في التجسس الدقيق إن إصابتك بالمس لم تكن سوى حيلة اصطنعتها للهروب من خدمتي والإفلات من عقابي. وأنت اليوم محمل بعبء هذا التنكر الماكر الذي لا يكفي تعجبي من حذقك فيه لرفع تبعاته عنك».

قال ابن الهيثم: «لعنة فشلي في ترويض النيل، يا مولاي، ظلت تلاحقني وتقض مضجعي. النيل تحدى حساباتي وتصاميمي، وأتلف ساخراً معادلاتي وأقيستي. وقد بات كأنه يخرج عن مجراه ليتدفق في رأسي محدثاً تيارات ورجات عتية، لم أكن أغالبها إلا بالتصفير والابتعاد عن الماء. وذات يوم، بينما أنا أصفر وأسير لا تفصلني عن النوم قرب الصحراء إلا مرحلة، خطرت لي فكرة التوجه إلى الديوان المعظم قصد تقديم طلب الإعفاء من مهامي كلها، وفعلت ما فكرت فيه. وبعد مدة من الانتظار، وصلتني من أعتاب مولاي العالية بطاقة تجيب

أن طلبي مرفوض نظراً للبواعث الذاتية المرئية التي دفعتني إلى تقديمه. وإثر اطلاعي على هذه البطاقة، بدا لي أنه لم يبق لي إلا السهر مع لحياتي المظلمة، وافتعال الحمق الذي لولاه لانسدت أمامي كل الطرق إلى الحياة المرغوبة، ولشنتقتني حبال اليأس والصحوة المتصلة. وهكذا تدهورت، وصرت في المدينة أمشي مكفهرأ لا أرد السلام، أو مقهقها أطارد المعادلات والأقيسة والأرقام. وأنا الآن، يا مولاي، بعد أن كشفت أنوارك عن وهم طنبلتي وانحماقي، أترجاك أن تزيل من سبيلي حواجز المرور وقيود التنفس».

قال الحاكم، وقد تملكته بوارد الدهشة: «عجيب ما تنطق به يابن الهيثم! لكن لن ندعك تمر قبل أن تطلعني على سر امتناعك عن خدمتي».

قال ابن الهيثم: «خوفي يا مولاي، إن خدمتك، ليس من الشحوب والرسوب، بل من التوفيق والتألق. وقد تعلمت في ظل مهابتك أن كل خادم من طبعه أن يسعى بنجمه إلى السطوع، وإذا ما نجح ترشح نجمه للسقوط. وهذه مفارقة موجعة لا أقوى عليها، ولا حتى على الافصاح عنها إلا بقول الشاعر:

أرى فيك أخلاقاً حسانا قبيحةً
وأنت لعمرى كالذي أنا واصفُ
قريب بعيد باذل متمنُ
كريم بخيل مستقيم مخالفُ
كذوب صدوق ليس يدري صديقهُ
أيجفوه من تخليطه أم يلاطفُ
فلا أنت ذو غش ولا أنت ناصحُ
وإني لفي شك لأمرك واقفُ

كذلك لساني حاجي لك مادحُ
كما أن قلبي جاهل بك عارفُ

قال الحاكم والضحك يخالط كلماته: «تعجبني يا ابن الهيثم،
إنك والله تعجبني! فانطلق صاحبكك السلامة. والآن إليَّ
بالشاعر ابن الصعصاع القرمطي».

تقدم القائد غين إلى قفص المتهمين واقتاد منه إلى حضرة
الخليفة شاباً وسيماً في مقتبل العمر، فأرغمه على تقبيل
الأرض وإظهار علامات الطاعة والخشوع.

قال الحاكم: «هيا يا فتى، خبرني بما أنت متهم به في تأويل
قصة عليٍّ عليه السلام مع شيعة مؤلهيه».

قال ابن الصعصاع: «تعلم يا مولاي أن علياً على ذكره
السلام، قبل انبلاج صباح الليلة التي قضى ثلثيها في الصلاة
والترتيل، هبَّ وجيشه لقتال نفر من شيعته كانوا يؤلهونه
ويفرطون في تنزيهه. وحين أشرف عليهم وطوقهم بايعوه وقالوا:

– أنت إلهنا وخالقنا ورازقنا، ومنك مبدؤنا وإليك نعود.
وكفانا فخراً أن تكون لنا رباً. وكفانا عزاً أن نكون لك عبيداً.
أنت كما نريد فاجعلنا كما نريد!

فجرد عليٌّ سيفه وأمر «الغلاة» بترك سبل الغلو والغبي،
لكنهم أبوا واستكبروا، فقال:

– لأشبعن اليوم هذا الحفير من لحمكم وشحمكم، ولبئس
المصير!

ولما علموا أنهم لا محالة هالكون قالوا:

– لئن قتلتنا فأنت تحيينا من جديد! وإنا نشهد أن علياً هو
الإمام المهدي، وأنه منتظر.

وحن لم ينفع فيهم التهديد ولا الوعيد أمر عليّ بإضرام النار في الحفير وإحراقهم فيه، وأنشد قائلاً:
لما رأيتُ الأمر منكرًا أضمرتُ ناري ودعوتُ قنبرا
ومن أقصى الحياة أتى عبد ربه هذا المائل بين يديك، فعلقت
على الحديث بقولي: لو ارتد عليّ عن غلوه في أنه الجوهر الفرد
وعن تعظيمه لسجله المدني، لفهم أن علياً من أحرقوا وبادوا
في النار ليس هو نفسه، ولكنه عليّ الإمام. والإمام منتظر، ولا
يمكن انتظار من هو حاضر أو فان. أما إطلاق اسم عليّ على
الغائب، فو استعمال مجاز أدت إليه مشيئة الأحداث. وعليه
فالمعنى الحقيقي المجرّد عليّ هو الإنسان. وهكذا انتظر الشيعة
الغلاة الإمام الذي اسمه الإنسان، وهكذا غلوا».

قال الحاكم: «لا يدهشني في تأويلك إلا وقوفه على أركان
الخيال. ولك الآن أن تزيد في دهشتنا بترك خيالك على هواه
يصور خاتمتك على يدي».

قال ابن الصعصاع بلهجة واثقة مقررة: «إنني لا أتصور
نهايتي على يدك، يا مولاي، إلا بنحو واحد لا شريك له،
فسيأتي في محضر الشرطتين: «نظراً لأن صاحب التأويل
المذكور أعلاه قد غلا في قراءته لغلو الشيعة المحروقين؛ ونظراً
لعدم انطباق كلامه مع شهادتهم؛ ونظراً لأنه شاعر زنديق
معروف بتعريفه الشعر على هذا النحو: هو البوح بما يوحي به
الوقوف وجهاً لوجه أمام جدار في الظهيرة، والناس في قبولة أو
ساهون؛ ونظراً لأنه شاعر ممجد للسلطة، متكالب عليها،
ويدعي أن الشعر هو كتابة الانتظار في المسافة التي فصلنا
عن أخذ السلطة، وفي رواية أخرى: إن أشعر الشعراء من
شعر أن شعره تعبير عن عوز وحرمان أساسيين، فسعى وراء
السلطة أو الحلم بها؛ فإن قيادة الشرطتين - تقديراً لواجبها،

وسهراً على راحة السكان - تحتفظ لنفسها بالحق في القبض على الشاعر واستنطاقه إلى ان يفتح لها صدره الزاخر بالأسرار...» وبعد اختفائي الأبدي سيطلع على الناس، يا مولاي، القائد غين صاحب الشرطتين ببيان حقيقة، هذا نصه: راجت أخبار في البلاد مفادها أن الشاعر ابن الصمصاع الذي حبسته مصالحنا قد مات تحت التعذيب من طرف رجالنا. ونظراً لكذب هذا الزعم، فإنه لا يسعنا إلا أن نزيح النقاب عن الحقيقة التالية: إن الشاعر المذكور قد عثر على جثته ومياه النيل تجرفها. وتؤكد بعد الفحص الطبي أنه قتل بطعنة خنجر وهو يحارب إلى جانب أهل البغي والردة...».

قال الحاكم مغتبطاً: «أدهشتني يا فتى، أعجبتني! فانصرف بجناح الحر قبل ان تصدق رؤياك على حد سيفي. والصوفي خالع النعلين، أحضره يا غين».

لم ينتظر الصوفي تنفيذ غين للأمر الخلفي، بل سارع من تلقائه إلى المثل بين يدي الحاكم، وهو لا يفعل شيئاً سوى ترديد كلمات: يا لطيف، يا لطيف! ويتبعها بأخرى: استغفر الله، هو حسبي ونعم الوكيل.

قال الحاكم بصوت يعلو على ترديدات الصوفي: يا خالع النعلين، أنت متهم بالإعراض عني وبانطلاق لسانك في القبيح. وقد دعوتك مراراً إليّ فاستعصمت، وواصلت كباقي الأولياء بباقات النرجس فاستنكفت. وأنت الآن في حضرتي تستغفر وتستلطف وأنا عليك صابراً».

قال خالع النعلين: «قال الرسول عليه السلام: «إياكم ومجالسة الطغاة، قيل له: ومن الطغاة يا عدل خلق الله؟ قال: الحاكمون بأمرهم، الخارجون عن حدود الله بالتجبر والتأله،

القاتلون للنفس التي حُرِّمَ الله، هم في الآخرة زاد جهنم وبئس المعاد، يا لطيف، يا لطيف...».

قال الحاكم غاضباً: «هذا حديث ضارب في الوضع والنحل ولا سند له ولا أساس من الصحة. فكلامك هذا لغو يسفه الواقع ويخونه، وهو في عرف اخلاقنا وديننا كذب وافتراء».

ردَّ خالع النعلين معانداً: «ما من كلام حق إلا ونبي الله قائله، وحتى ما أرسله بعد غيبته إلى المؤمنين في مناماتهم ورؤاهم فهو كذلك. وقد رأيت عليه السلام مراراً يعقب بذاك الحديث على قوله تعالى: «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعْفَ الطالبِ والمطلوبِ. ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدره إنَّ اللهَ لقويُّ عزيزٌ». وسمعتُ صوته عليه السلام في منامي يوصيني: إياك يا وليَّ الله أن تجعل كلامك على قد واقع الطفافة. وإن فعلت أصاب البوار كلامك تَوَّأ، وأتته الهجانة والفجاجة من كل جانب. فدع خيالك يضرب ذلك الواقع بالصبر والنقض والابداع».

قال الحاكم: «كم تأسفت لقوم ماتوا بغير سيفي، وأنت يا خالع النعلين كم يؤسفني أن أقدر موتك! ولو لم يكن تعلقك بالحياة أضعف من خيط العنكبوت لما ترددت برهة في إلحاقك بنعشك».

قال خالع النعلين: صدقت يا صاحب الحضرة! والله لو كان الناس مثلي يسترخصون حياتهم الدنيا ويتوقون بأرواحهم إلى الأمثل والأجدى، لما كنت ممكناً فيهم ولما خيمت عليهم بالقهر والترهيب...

قال الحاكم مقاطعاً: «اترك غطائي عليَّ ولا تزد في رفعه،

واكشف بدله عن أوراق ضوئك أنت المحاكم بين يدي. فما قولك في السلم والمحبة؟».

قال خالع النعلين: «السلم ميثاق التعايش الكريم بيننا. فإن جنح الآخر له، جنحت بدوري وأقراته السلام، وأهديته ورداً وحماماً، ودعوت له بالسلامة، ثم مضيت أمناً مرتاحاً. وفي المحبة حين تفيض عليّ، أقول للمحبوب كلمات طيبات فيها دلال وطلاوة، وألقي ما استعطت في قلبه حلاوة، وأكون له كشجرة تؤتي أكلها كل حين، ويكون لي المبعى والمعين، ويكون من أقف معه موقف السير. أما إن مات المحبوب بين ذراعي وأنا حي أراه، فإنني لا محالة سأبكي بشدة مدركاً كنه الموت، وأن في البدء والختم كان العنف، وكانت القساوة، فأثور وأكاد أرتد».

قال الحاكم والتأثر بادٍ عليه: «وحين تجوع وتغلبك الوحدة أو تجن؟».

قال خالع النعلين: «حين أجوع أرتل الآية وأجعل منها غداءً. فإن جادت الآية شبعت، وإن لم تجد اصطدت العصافير وصادرت طعام النمل... وحين تغلبني الوحدة، إما أخرج إلى البرية وأصرخ حتى تسأل الوحوش عن حالي، وإما أخطب في الناس واعظاً وأغالي، وإما أرحل إلى الجوار البراني أو أسيح... وحين أجن بجنوني، تحتد بصيرتي وتقوى، وأصير عيناً ترى، وأصير بألف شفة أنطق بالتجليات وأتلو ما أراه. ولأنني أفشي الحقيقة وأنصح بالعصيان، أساق دوماً إلى السجن أو المارستان».

قال الحاكم مرتعداً: «وإن مرضت وأشرفت على الوفاة؟».

قال خالع النعلين: «إذ ذاك أعطيت للبهاليل ما كسبت،

وقرأت فاتحة الكون، وقبّلتُ الأحياء أحبائي وودعت، ثم كتبتُ على حيطان الأسواق والحارات. كتبتُ على الجذوع والأنهار. كتبتُ في المقابر على الشواهد والأزهار، كتبتُ تعاليم الماء والنهار، وأسلمتُ للعناصر روعي».

قال الحاكم والعرق يتصبب من جبينه: «أه كم أضاهيك من وجه وكم أبتغيك! فلو مرة صعدتُ إليّ في منزل الخلوة بجبل المقطم، لألفيتني مثلك صفيّاً خفيّاً، شعثُ الرأس، مغبّرَ الوجه، خاويَ البطن، لا أجالس إلا الفكرة في ميدان التوحيد، ولا أبغي للمطلق بدلاً... والآن عد إلى بريتك وصرّف دعواتك في الغفران لكل من تاه أو استكبر...».

وقف الحاكم كأنه يتأهب لرفع الجلسة، وقد ظل في قفص الاتهام رجل وامرأتان، وقال: «وأنت يا شيخ، ألم تصل إلى سمعك سجلاتي في تحريم شرب الخمر أو حمله أو الاتجار به، وقد صادفتك على جسر ضيق في قافلة النهار وأنت تهرب على حمار محمّل بما حرّمت؟ فمن أين أقبلت بسلعتك اللعينة وإلى أين كنت تقصد بها؟».

قال الشيخ بلهجة حازمة: «إني أقبلتُ من أرض الله الضيقة وقصدت أرض الله الضيقة...».

قال الحاكم غاضباً: «أراك تزيد في طينك بلة، وأنت تقول بأن أرض الله ضيقة».

قال الشيخ: «يا مولاي، لو لم تكن الأرض كذلك لما جمعني وإياك على ذلك الجسر الضيق».

ضحك الحاكم ملء شذقيه وأذن للشيخ بالانصراف، ثم توجه للمراتين بالسؤال: «وأنتما، ماذا أتى بكما إلى الأقفاص؟».

أجابت المرأة الأولى، وكانت شابة حسناء: «مولاي لقد حرمتني من أعز مخلوق لديّ مرتين: مرة لما فاجأه رجالك في نومه بالموت انتقاماً من كونه كان لي مرافقاً في الوحدة، وملاًذاً وقت الظلمة، ودرعاً واقياً ضد الفتنة؛ ومرة ثانية لما حرمت عليّ زيارة قبره والتحدث إلى جثمانه. ولأنك غلقت أمامي كل الأبواب إليه وضعت جسمي في قبر بجوار محبوبي، معلقة نفسي في النهار بقصبة تأتيني بالهواء الكافي، وساعية بالليل إلى البحث عن بعض غذائي. وبقيت على هذه الحال أياماً إلى أن انكسرت ذائض صباح قصبتي تحت أقدام متعقبي زائرات القبور، فخرجت من حفرتي نصف ميتة، وأتوا بي للمثول أمام حضرتك».

قال الحاكم مستغرباً مدهوشاً: «تفعلين كل هذا من أجل رجل يا امرأة! ومن يكون زوجك المحبوب هذا؟».

أجابت المرأة والتحدي يملأ عينيها: «إنه ليس زوجي، بل أخي من أبي...».

قال الحاكم وقد تضاعف تعجبه: «أخوك يا امرأة! ألا فاذهبي حالاً إلى أختي ست الملك، وقصي عليها قصتك الرائعة هاته، فلعل الأخت العصبية تعتبر وترعوي. وأنت أيتها العجوز، ماذا وراء ظهرك المعروك؟».

قالت العجوز: «حتى العجائز يا مولاي، قد ضاقت صدورهن بمنعك النساء من الخروج ومن التطلع في الشرفات والطبقان. حتى العجائز يقفن مسحوقات بين نارين: نارك يا مولاي، ونار أزواجهن القامعين لهن المقموعين على يدك. وكنت أكتب ضيقي وغيظي في بطاقات أضعتها في مغازف الباعة المتجولين، فلا أتلقى مقابلها إلا بعض الفواكه والحلوى. ولما

صدر سجدك المطاع في منع الكشف عن المغطى، سكرت ملء رأسي، وخرجت خلسة في الليل إلى ساحل النيل. وهناك تمددت وتغطيت بإزار ظللت من تحته أتمم سكرتي، وأسترق النظر إلى جمال ربي في الماء والنبات والخضرة. وحين أتاني رجالك وأرادوا التعرف عليّ بكشف الإزار عني، منعتهم وهددتهم قائلة: أنا مغطاة، وأياكم أن تخالفوا أمر سيدنا الخليفة بأن لا يكشف مغطى، فحملوني إليك لأقص على الحضرة قصتي، وتنظر في مالي».

قال الحاكم منصرفاً والضحك يغلب على كلماته: «وعدت بالصفح والسماح كل من أدهشني. وقد نلت منك أيتها العجوز، ومن جميع خلانك في الزينج والمروق، أكثر مما ظننت وتوقعت، وأنا الآن ذاهب بحس مرهف، وصدر منشرح، وقلب رحيم، فتحري، سامحك الله، تحري».

**** معرفتي ****

www.books4all.net

منتديات سور الأزيكية

III

الجلوس للالهيات بين الدعاء

«وعن (الحاكم) أن يدعي الربوبية، وتقرب رجلاً يعرف بالآخرم ساعده على ذلك؛ وضم إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة [...]». وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت». ابن الصابي كتاب تاريخ، تكملة تاريخ ثابت بن سنان.

في الجناح المستور من دار الحكمة، عقد الحاكم جلوسه للإلهيات ليلاً، بعد انقطاع مديد، وذلك صحبة أكابر الدعاة ونقبائهم ونوابهم وزمرة من الخواص المستنيرين. وبينما شكل هؤلاء حلقة متراصة تهيئاً للقول أو السماع، كان الحاكم يقبع في ظلمة مقصورته شارداً الذهن، ثابتاً ثبوت الصنم المتعالي.

كان قديم الدعاة حمزة بن علي «هادي المستجيبين» يتميز خلقياً بهامة عريضة ناتئة، يعول عليها في إقناع المنصت وإقحام الخصيم. وكان ذا حافظلة قوية لما صبح من الأحاديث الشيعية أو لم يصب. قال مكسراً بهامته صمت التواجه المهيب: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي علا عن كل معلوم وسما عن كل مرسوم، وكبر عن كل موهوم ومفهوم، ووصلى الله على ربي رحمة المعمور، وبجر حكمته المسجور، محمد المبشر به في التوراة والإنجيل والزبور، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج، ومستودع سر ليلة المعراج، علي بن أبي طالب البرزخ بين البحرين العذب والفرات والملح الأجاج، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرا الله من خلقه، والمستحفظين لدينه وحقه، والمتتمين كلمة عدله وصدقته. معشر المؤمنين، أمنكم الله من الفرع الأكبر، وحشركم مع من تحبون يوم المحشر».

وأضاف الداعية حمزة قائلًا: قال مولانا الإمام الصادق جعفر بن محمد: «مثل شيعتنا مثل النحل لو تعلم الطيور ما في بطونها لمزقتها». وقال أيضاً: «احذروا إفشاء السر، فإنه ينقص العمر ويعمي القلب ويقطع الرزق». وقال مولانا الحاكم على ضوء ما تقدم وفي أذن كل داعية كان أو يكون:

«خذ العهد على كل مستجيب راغب، وشدّ العقد على كل منقاد ظاهر، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه. ويصحّ عندك عفاؤه ودينه، وحضهم على الوفاء بما تعاهدتم عليه [...]، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول في بيعتك... ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع، ولا تلق الحبّ إلا في مزرعة لا تُكدي على الزارع، وتوخّ لغرسك أجلّ المغارس، وتوردُهُم مشارع ماء الحياة المعين، وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات، وأثل مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات، في قصور الخلافة الزاهرة، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة، وصنّ أسرار الحكم إلا عن أهلها، ولا تبدّلها إلا لاستحقاقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمّله، ولا تستقلّ أفهامهم بتقبّله. واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول، ودلّ على اتصال المتلّ بالممنون، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها، والبواطن أنفس، والظواهر أرواحها، وإنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح، ولا قوام للأرواح في هذه الدار إلا بالأشباح، ولو افترقا لفسد النظام، وانتسخ الإيجاد بالاعدام...»^(١٢)

*

وتناول القول الداعية حسن بن حيدرة الفرغاني «عون

الهادي، المكنى بالأخرم لانشقاق وتره أنفه الأفتس المثير. وقد كان يغالب خفخفته بميل موفق إلى البلاغة والإنشاد، قال:

أتانا من أقصى الغيبة والغره
مولانا الحاكم وارث السر والشجره.
فعرى بلطف رأسه وسلم وكبر
ويقول الانبياء حدثنا، والمسك يفوح منه والعنبر،
حدثنا عن الخيرات والنساء والكلمات،
وقال: هذه أوتاد الحياة،
من جهلها هلك،

ومن تعلمها كان من أراضي الخصب والميلاد،
ونال الغبطة الكبرى وحسن المعاد.
وحين انتهى وغاب،

ارتعشنا واكتسح الغمام الصحن والمحراب،
وصار في النافورة الماء ضياء.
فقمنا جميعاً مولهين مسبحين،
وصلينا صلاة العشق على مولانا قائم الزمان،
ودعونا له بالعود والأمان.

ترنح الجالسون المنجذبون القانتون الخاشعون وتهامسوا
طلباً للمزيد، فسأل التميمي «سفير القدرة»: وحين عاد مولانا
من غيبته العالية، بماذا نطق فمه الجليل؟

أجاب الداعية الأخرم متحمساً: مولانا، وقد رجع إلينا أمنأ
مطمئناً، انطقه الحق بجليل الكلام، فقال:

– الشمس لا تقوى على رؤيتها إلا وانت تشيعها إلى مثواها
في البحر أو خلف المرتفعات، وكذلك شأن الحياة.

أما احكم الحكماء، فمن حمل في صدره شمساً لا تغيب،

وتأمل في الحياة وهي في فلك النضج والتألق.

واستنبط مولانا حكماً جليلاً، وقال:

- ليست الحكمة في مساييرة التكرار والأموات، بل في الكشف عن وجه الله في الفتن المعبئة التي قابونها الفيض والتوهجات.

وعاد «سفير القدرة»، فسأل بلهجة ملحة وديعة: الا سقتنا أيها الداعي المنعم في جليل مناجاة مولانا مع مولاه. وإنا كلنا نروم الستر وإنا له لحافظون.

أجاب الأخرم وقد تألق واحمرت عيناه: سمعت مولانا بأم أذني وسجلت عنه بعض مناجاته الربانية التي قال فيها:

- حزامُ الريحِ في داخلي، وأغاني الهوى للهيكلِ الرملية،
وفقايقُ باليه.

ليس لي تحتك سرُّ باطن،

يا أيها المارُّ فوقَ حزني.

ليس لي يا إلهي ما يمنعني منك أو يقصيك عني.
هذه الدنيا حلبةٌ عبدتها بالمراسدِ والرقباء،
وسقفتها بداليةٍ عاقر دكنا.

فأين لي أن أهربَ بعورتِي يا محطَمَ الأعضاء؟

(...)

تعنقدتُ في المساءِ كربتي.

وانهارت كلُّ ألِهةِ العهدِ العتيقِ قبالي،

وأمستُ أرمدةً وهباء.

تعنقدتُ كربتي، يا

فاتجَهْتُ إليك (وليُّ قوتي)،

وانتظرتُ منك رسولاً عظيماً الصيت:

عيناه بلون الإسمنت،
وعقله في السماء ينازلُ الاقدارَ والرعود،
ويداهُ من حولنا تضرُمُ نيرانَ البعثِ والخلود.

*

مع روايات الأخرم كان الحضور من حالة السكر والتسليم
على قاب قوسين أو أدنى. وفي هذه اللحظة المواتية تجرد
للكلام الداعية «سند الهادي» محمد بن إسماعيل الدرزي،
صاحب القامة الطويلة واللسان الطليق والفكرة السليطة، فقال
راوياً: سمعت مولانا على ذكره السلام يقول، وقد عاد من
استطلاع الغيبي الواحد بعد الألف.

- كلما فكرت يا دعاتي في بناء إلهيات جديدة، رأيتني
أستوعر النظر وأستثقل النطق في باب الباري وباب أزلية
العالم أو حدوثه عن ليس. ولا تطالعني في هذه الاشكالات وما
تفرع عنها إلا الأفكار المتساوية الأضلاع، والأدلة المتكافئة
القدرات والنعرات.

وقال مولانا مفسراً:

- أن ندرس ذات الله!

كأنما من الممكن تحليل جوهرها وتفتيش صفاتها.
كل إلهيات لا تقر بانضمامها أو باستحالتها، تأتي إلى الكبير
عن المفهوم بالقدح، وتخطيء فيه التشریف.
المتكلم الجدير بهذا الاسم هو الذي إذا ما قلب أطراف
الله وأعراضه، أو ذهب به فضوله إلى التساؤل عن حيثياتها
وتفاصيلها، فإنه لا يتوانى في أن يضحك ملء سنه.

(...)

وقال لي مولانا وله الحمد:

– رأيت متكلمين ذهب بهم صراعاتهم في عدّ صفات الله إلى التراشق بالنعال والحجارة. وكيفما كانت مخارج معاركهم، ليسمحوا لي، وأنا من قدامى خدام العقيدة، أن أسجل خفية لفائدة الله القدير، الحي، العالم، الخ، صفة اللباقة.

حقاً، كم هو لبقُ ربي!

هو الذي له العين التي لا تنام، من المحال أن لا يراني مسيئاً بالمصائب الزبباء، وبشتى أنواع الضائقات العادية. غير أنه، وهو في أبراج حكمته المتعالية، يتظاهر بعدم النظر إليّ، ويصرف وجهه عني حتى لا يخرجنني. وذلك من آيات لباقته التي لا يتمتع بملحها ومعناها إلا هو.

(...)

وما زحني مولاي وله اللطف، وقال:

– قيل إن الصوفية أطفال في حجر الحق. وفي هذا الحجر ترى ماذا يفعلون؟ وفيه بم يتحدث الحلاج ورابعة العدوية إذا التقيا؟

هل يتبادلان الأشعار والشطحات، أم النكت واللمس فالقبلات؟

(...)

وأوصاني مولاي، قبل أن يودعني، وله الشكر، وقال:

– لا تلق الناس يا محمد ولا تودعهم إلا وأنت توصيهم بالنور خيراً.

سألت مولاي عن الحكمة في وصيته، فقال:

– لو لم يُقم الإنسان حول النور أهراماً وهمية بقدر ما هي نافعة، لما استقر له رأي، ولا أقام بالمفهوم في الحقيقة وما

جاورها... بالنور إذن، أي بوهم الانكشاف والعراء والتجلي،
وبما يحيل إلى اللامتناهي وما من شأنه أن يحدّ البصر
ويشوش عليه: بهذا النور يتنفس الفكر الصعداء، ويطلب
لمصالحه البلوغ ولعروقه الراحة والاسترخاء.

*

عاد الداعية حمزة إلى تناول الكلمة وقال:

– «إن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة،
وأورثه من منصب الإمامة والأئمة، وفوض إليه من التوقيف
على حدود الدين، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين،
وتنوير بصائر من استمسك بعروقه من المستجيبين، يعلن
بإقامة الدعوة الهاديّة بين أوليائه، وسبوغ ظلّها على أشياعه
وخلصائه، وتغذية أفهامهم بلبانها، وإرهاق عقولهم ببيانها،
وتهذيب أفكارهم بلطائفها، وإنقاذهم من حيرة الشكوك
بمعارفها، وتوقيفهم من علومها على ما يلحّب لهم سبل
الرضوان، ويُفضي بهم إلى رُوح الجنان وريح الحنان،
والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان...»^(١١).

وأضاف حمزة واعظاً:

– أمانة الدعوة الهادية ملقاة على اكتافكم أنتم أيها النقباء
والنواب وخاصة الخواص، يا شعل الذكر المفيد والوعي
الوهاج! فاذهبوا وتأولوها بالعقل والوجدان وتدرجوا في تبليغها
بما يليق بالمقام ويناسب الأفهام. انصرفوا وعليكم من مولانا
ومنا ألف سلام.

*

حين لم يبق بالجنّاح المستور من دار الحكمة إلا أكابر

الدعاة والحاكم بأمر الله، خرج هذه الأخير من صمته وثبوتة،
وخاطب دعائه وقد اقتربوا منه وجلسوا أمامه منصتين
صاغرين:

- بين دعاتي البارزين حمزة والدرزي والأخرم والتميمي لا
تفضيل لي ولا اختيار، فسواء ألّهي البعض، أو قال الآخر
باننتقال روح آدم إليّ عبر روح عليّ، لن تروني أتبنّى إلا أقربكم
إلى الفعل والفلاح.

من الهني منكم ووافقه التوفيق، خلعتُ عليه خلعاً سنية،
وحملته على فرس مسرج في موكبي، وباركته في السر ورحبت.

أما الذي دعا إلى ربوبيتي عبثاً ولم تساعده السواعد ولا
الاهواء، فبرئوا ساحتي من رسوبه، وأقبلوا ناسوتي من
دعواه، وأقبلوني منه، واتركوا الكرمانى يتصدى له بالدحض
ويتوعده بالشفاعة وحر السعير.

وأضاف الحاكم قائلاً:

- إن أردتم يا دعائي أن تدعوا الناس إلى تأليهي، عليكم
بجبال الشام، فإن أرضها بكر، وأهلها سريعو الانقياد
والتعصب. وما عدا هذا الصقع، ما أصعب ربوبيتي على
الناس! وما أدعاها إلى تزويد الفتن الكبرى بينهم!

وقال الحاكم:

- لكم أبغي، يا دعائي، أن أخلق كالإله فوق تفاصيل حياة
الناس وأعلو على صغائرهم! لكنهم تكاثروا، وتفاسدوا، وأعاقوا
جموحي، ولوثوا فضاء اعتزالي وشموخي. وإني اليوم بهم
لثقيل، أغوص في أرض حولوا أديمها إلى مستنقعات دبقة،
وجاذبيتها إلى قضبان من حديد.

وقال الحاكم متثائباً منشداً:

– جذروني يا دعاتي أصلوني، وقولوا عني ما قالته أسفار
النبوات في «الكتاب المقدس». ادعوا الناس إلي أن يوحدوني
وينسجوا حولي خيوط شرودهم في غياهب الغيب والمعاد.

إني لكل من اشربُ إلي عنقهُ بالدعاء والتسبيح لبصير.

(...)

ادعوا الناس الحفاة العراة إلي يا دعاتي،
وكبلوا قلوبهم بأذيالي، وبطونهم بأهدابي وهباتي.
ومن مات منكم في سبيلي،
فله الجنة من أدناها إلى سدرة المنتهى،
يجول فيها وينعم بما أحب واشتهى.

*

سكت الحاكم طويلاً وبدا عليه انهيار كبير وأمارات حمى
شديدة، فسارع الدرزي إلى لف جيبته بخرق مبللة بماء
الورد، ثم عاد إلى مكان جلوسه.

قال الحاكم:

– كل إله تنازل عن غيبه وغيابه وعن تعاليه السحيق ليس
إلهاً، بل صنماً أو دمية.

ليس إلهاً من حضر وكلم القوم أو دنا منهم، لاوياً على
الشاذة والفاذة في دنيا لغوم وضوضائهم. بل إنه عجوز
شمطاء، ويجوز في حقه اللمز والرمي بالحجارة.

لذا يا دعاتي، بالله عليكم لا تغالوا في تأليهي وأنا حي
أحكم الناس، وأتصرف في رقابهم ودنياهم، وأتعقبهم بين
الجدران وفي الغيران والهوامش. فادعوا الأقوام من بعدي،

يوم غيابي، إلى أن ينسجوا من أنقاض انقراضي ما شاعت لهم
أوهامهم ووساوسهم في افضية الغيب واللاموت.

*

كانت حمى الحاكم لا تزيد إلا صعوداً، فتنعاقب عليه
حالات الحرّ والقرّ، ويتحدث بما يشبه الهذيان الموقّع
بالرعدة؛ وفي جليّ كلامه قال:

– أنا كالإله المهشم الأعضاء، الذي لن تعثروا على بعض
بقاياها إلا في حقول الصخر أو رمال الصحراء. أه يا دعاتي،
كم أمرٌ وكم تمرُّ مآتمي وأعراسي! وخلف الليل كم سأختفي
عن رعيتي وأناسي! ليبقى البحر.

هذي الفاظي والأسنان: في فمي تنهار انهياراً. وللأقوام من
بعدي أن يوقدوا النار في أمكنتي وأركانتي، ويقذفوا بأوامري
وعهدي في بواطن النسيان، ليبقى البحر.

فيا عباد الله! كونوا مثل البحر الهائل المعطاء: فهو الوعدُ
الوعيد والرعدُ الباحثُ عن راحة الروح والبدء السعيد.

وفي كل حين استفتوا البحر، لا الأموات.

*

ظل الحاكم يهمس بكلمات غير مفهومة، ثم تمدد فوق
الأرض مرتعداً محموماً، وطلب ورقاً ليكتب عليه وصاياها
الأخيرة، فبادر الدعاة إلى تدثيره بالأغطية، وأجمعوا على رفض
طلبه وعلى نقله إلى قصره ووضع بين يدي طبيبه الخاص.
وكان هذا ما فعلوه، قبل أن يهيم كل منهم في وادي تأويله لما
سمعه من أحاديث الحاكم وشطحاته، وانتقاه منها على أجنحة
الهوى وتحريير الدلالات وفي أبواب استقطاب الأنفس وجذبها.

الباب الثالث
زلزال أبي ركوة، الثائر باسم الله

«... واقام (أبوركوة) ببرقة وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر. وقام الحاكم من ذلك وقعد، وسقط في يده وندم على ما فرط، وفرح جنود مصر وأعيانها، وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه، وأظهر الاعتذار عن الذي فعله. وكتب الناس إلى أبي ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه الحسين بن جوهري المعروف بقائد القواد. فسار عن برقة إلى الصعيد، وعلم الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ...».

ابن الأثير، الكامل في التاريخ

كانت بوادي برقة الصحراوية تحيا حياة الضنك والخصاص على رقعة من البسائط الرملية الفقيرة الممتدة جنوباً. وكانت واحاتها الهزيلة المتناثرة - كجفرة وأوجلة وجغبوب، وغيرها - لا يتمر نخيلها وينمو كلاًها إلا بفضل واد ضنين، يستمد ماءه، في شتاء دون آخر، من ينابيع وأبار جوفية بعيدة المنال. والناس في الصقع - ومنهم قبيلة بني قره - يتشبثون بالعيش العسير، ويقاومون ببأس شديد ما يتناوب عليهم من زوابع الصحراء المتلفة وندرة الأقوات المفرطة، وما يكلل كل هذا من هجمات عساكر الفاطميين المدمرة. وكانت قبيلة بني قره لا تقوى على البقاء وتضميد ندوب الدهر إلا بالفارات الموفقة أحياناً على جيرانها من القبائل كلوارة ومزانة وزناتة، مما كان يمكّنها من الغنائم الضرورية لمعاشها في حدوده الدنيا. وهكذا كان أفرادها يقيمون على سراط الشظف والشدة، لا يعيشون سلماً إلا مشوباً بالمخاطر والحذر، ولا ينتهون من حرب إلا ليستعدوا لأخرى. فأينما ولّوا وجوههم فثمة وجه الحرب، لا حياة ولا حلول إلا بها، هي هي دوماً مهما تعددت دوافعها وأسبابها: العدوان أو الثأر أو الوقاية. سنة الكون في الخلائق، ولا غالب إلا هو!

ذات يوم من شهر محرم خمس وتسعين وثلثمائة، ظهر على
واحة بني قرة رجل غريب بهيئة المتصوفة، يقبض على عصا
غليظة، ويردف ركوة يتوضأ منها، ويكثر من العبادة والخلوة
والتأمل. كان الرجل، كما وصفه الواصفون، في الثلاثين من
عمره، طويل القامة نحيلها، أسمر الحيا، وافر اللحية، بادي
القطوب، تعلق نظراته حمرة الحياة والجد والتقوى. وكان إبان
الأيام الأولى من إقامته في ضيافة القبيلة، معزراً مكرماً، لا
ينطق إلا إشارة ورمزاً، ولا يركب جملاً إلا للعن الطفافة
والترحم على السلف والاستغفار بالله. ولما طالت حيرة القبيلة
حول ضيفها وأصله ومراده، أقدم شيخها - واسمه
أبو المحاسن - ذات ليلة هادئة مضيئة على مجالسته مرحباً
متلطفاً به، مشاركاً إياه في توعداته ومناجاته. وبعد صبر مديد
وجهد جهيد، استطاع إنطاقه واستخباره، والليل في هزيعة
الآخر. وما أن بزغ الصبح حتى خرج الشيخ على قومه مهلاً
مكبراً، وخاطبهم:

- ابشروا يا قوم! فالرجل بين ظهراننا هبة من الله إلينا.
لقبه أبوركوة، واسمه الوليد من ذرية هشام بن عبد الملك بن
عبدالرحمن الناصر سليل الدوحة الأموية. وسبب خروجه من
الأندلس أن الحاجب الطاغية المنصور بن أبي عامر، بعد أن
حجر على خلف الحكم الثاني الصبي المؤيد هشام ونكح أمه
صبح، قام بإعمال السيف في أعضاء الأسرة الحاكمة بقرطبة،
فمنهم من قتل ومنهم من لاذ بالفرار، وكان ضيفنا المبجل
أبوركوة، وهو في العشرين من عمره، من بين هؤلاء الناجين.
وقد قضى في أسفاره عقداً بين مصر والشام واليمن ومكة
المكرمة، يطلب العلم ويعلم للصبيان قول الله ونبيه عليه

السلام. فبشرى لنا بمقدمه إلينا من أرض الكنانة بعد أن طرده منها حاكمها.

وما أن انتهى الشيخ من كلامه حتى برز أبو ركة إلى جنبه، والقوم في حالة من الذهول والخشوع عظيمة، فقبله على جبهته، وقال بصوت متهدج متأثر:

- يا عرب بني قرّة، يا أماجد! الحق ما فضحني به هذا، الشيخ الوقور، وأنتم تريدون أن ترفعوا كل الحجاب عني، فلا والله لن أحرّمكم من أحوالي وأسراري، وستعرفونها قبل أن أرحل عنكم اليوم مع المغيب.

توقف أبو ركة لحظة كأنما يستجمع قواه، وبعد أن جلس الشيخ أبو المحاسن وفعل مثله الحضور، قال كلاماً بليغاً بصوت يميل إلى الرقة والانشاد:

- طردني البغي والغدر من أرض أندلس ،
وتنسكت يا قوم، فلا نساء لي اليوم أحرثها،
ولا متاع إلا ركوتي وجبتي
وعصاي
أزود بها عن حرمتي
وأخر شبر في حماي.
تنسكتُ فسرتُ في دنيا الله أقضي الأوقات
بين تلقين الصبايا وإتيان الصلاة.
دعوتُ الناس في مصرَ والشامات إلى الحياة الأخرى،
وقلبي معهم نواره،
الم أوصيهم بالصبر والأناة!
قلتُ لهم: الجلدُ الجلدُ، وإن تفسخ الجلدُ
وشاعت سطوة الحاكم الجباره

ألم ألقِ الحلاوةَ في الفعلِ والعبارة!
مجدتُ الحبَّ، وسرتُ أمامَ الناسِ:
أمدحُ التراشقَ بالزهورِ وأسترُّ الحجارة.
(...)

هكذا غيّبتُ حياةَ الحكم،
فأخيتُ تهاليلَ الفصولِ والندى،
وقلتُ للتباشيرِ أهلاً وقلتُ مرحى،
هكذا اعتليتُ الصخرَ
وبايعتُ البحرَ،
قلتُ للناسِ: لا شيءَ يطيبُ غيرُ استباقِ اشتياقي إليكم
يا بقيةَ الأحبابِ.

(...)
قلتُ ما قلتُ وادعيتُ
ومرَّ وقتٌ وأتى الوقتُ...
أتى بمهامه عهدٍ لعينِ لحاكمٍ بالجبروتِ،
وبالسلاسلِ والأسلاكِ في الأرجلِ والرقابِ،
أتى يستحيلُ على السمعِ والبصرِ:
بالتواييتِ الصغيرةِ والدمارِ،
بالنساءِ المعتقلاتِ وبالرجالِ تسيلُ على حدِّ السيوفِ
أنفسهم،

أتى بالوجوهِ المرعوبةِ والمحنِ الصماءِ،
وبالنيلِ تفيضُ مياهه بدمِ الضحايا ورؤوسِ الأبرياءِ.
(...)

على ضوءِ ما رأتِ العينُ:
نطفةُ كلِّ سلامٍ وعدُّ كاذبٍ،
فناعورةُ الانتظارِ لم تعد تجلبُ ريحاً

ويتهاوى الجَلْدُ ويبقى الجِلْدُ...

على ضوء ما رأت العين، وجب الاعترافُ:

حيالَ الحزنِ بالمعنى القاهر للكلمه،

تدبيرُ المتوحدِ خدعةٌ وتخريفُ.

وجب الاعترافُ:

أحاديثي حولَ الحيلةِ في دفعِ الأحزانِ شُلَّتْ

وخواطري عن الزهدِ في الحكمِ باخت،

ورأسي التوي وبار،

فظللتُ أحملُ الدمعةَ الأثريةَ الغبراءِ في بصري،

وأطالعُ الدمَ الفوارَ الصاعدَ في تواريخِ المحنِ

وكمياتِ الجراحِ.

قال أبو ركوه كلمته الأخيرة ثم استوى على الأرض متعباً،

والحاضرون مشدوهون كأنهم استمعوا إلى حديث انتظروه منذ

أمد بعيد، وكأن جل لآلئه كانت مضمرة في شعورهم الخفي

وفي باطن ذاكرتهم وكيانهم، فلا تطلب إلا من يخلصها ويرصع

بها وعيهم القائم. وبينما هم على هذه الحال، قام شاب مدجج

بالسلاح معروف بين قومه بشجاعته وبلاغته، يسمى

شهاب الدين بن منذر، وقال:

— الحياةُ عندنا يا غرّةَ الهادينِ ليست كما نشاءُ ونبغي!

فصولُ الضيقِ وحرقةُ الأيامِ هدتنا.

اغتربنا وافترشنا الاحجارَ وطفنا سنينَ عجافاً لا نعقلُ ولا

ندري.

فاليئابيعَ والوديانَ قصدناها قائلين:

لعل الخلاصَ في الماءِ، ففاض الماءُ وأتلفَ الأقواتَ وبعضنا.

قلنا: لعلَّ في الشمسِ والرملِ الخلاصَ،

لكن يبسنا، تفتى العياء، يئسنا.
وعلى حافة الاندحار، رأينا المخرج في الغارات على الغير،
فظفرنا بمعركةٍ وأخرى خسرنا...
الحياة عندنا يا غرةً الهادين ليست كما نشاء ونبغي!
يلفنا الصمتُ بعد كل موتٍ أو مجاعة،
وإن رفعنا الهاماتِ أتى عسكرُ الحاكمِ فينا بالسبي
والاحراق.
فيبقى اليأس، كما ترى، كالفأسِ يحفرُ في آفاقنا الخنادقِ
والغيران.
فبالله عليك، وأنتَ ابنُ دوحةٍ وتعرفُ مثلنا سحقَ الضيمِ
والطغيانِ،
لا تغبِ عنا وإن غابت شمسُ هذا اليومِ أو شمسُ أيامنا
المقبلة.
لا تغبِ عنا وأنتِ الآتي إلينا لتطهرِ الرؤوسَ وتشلُّ ذاكرةَ
الماتم.
لا تغبِ وقد نعتُ لنا المحجةَ المخرجَ كي نحولَ اليأسَ
والجرحَ إلى مغنم.

قامت أصوات كثيرة كأصدااء لكلام شهاب الدين، تكرر هذا القول أو ذاك، وتجمع كلها على ترغيب أبي ركوه في البقاء مع القبيلة لينظر مع مشايخها في أحوالها ومآلها. ووقف شيخ بني قرة فخرج عن صمته وشرع يسكت المتكلمين، ثم قال بصوت حازم:

– يا رجال، بالله عليكم، إن كنتم ترومون من بقاء أبي ركوه تحكيمه فيما شجر بينكم وبين قبائل زناتة، فأنا معكم؛ وأما إن كنتم تبغونه لينصركم على خصومكم الأقربين،

فاتركوا الرجل وشأنه، وحرروه من هواجسكم وحساباتكم،
وأخلوا سبيله إلى الله.

لاحت بين الرجال علامات الاعتراض والخيبة، وتميزت
بعض الوجوه غيظاً. ولما أدركها أبو ركة سارع إلى القول:

– الرأي الصواب ما يقوله هذا الشيخ الموقر. وحق فاطر
السموات ومبدل الأحوال، لن تروني مقيماً بينكم ولو هنيهة،
إن كانت نفوسكم لا تتوق إليّ إلا لحاجة خسيصة في صدوركم.
فإني لم أت وفي نفسي تغليبكم على خصومكم الوهميين، أولئك
الذين لا يقاسمونكم في عراء هذه الصحراء إلا سعي العيش
فيها. فأنتم وهم، في نظري واعتقادي، سواسية عند وهاد
الضنك والضيق، تتقاتلون لأنكم أشباه ونظائر، كل يريد محو
عوزه بمحو من يحمل مثله أو أكثر، تتطاحنون لأنكم تغيبون
صانع بؤسكم جميعاً أو تستعظمون جبروته ووقاعه... فاعلموا
أنكم أنتم وخصومكم من زناة وغيرها لا يجري في عروقكم إلا
دم واحد لا اختلاف فيه ولا شبهة، هو دم التقوى والعقيدة
السمحاء، ولا عدو لكم إلا من حرقكم جميعاً وحلبكم ورمى
بكم إلى عرض الصحراء، حيث يشح القوت ويندر الماء.

طافت برؤوس القوم ذكرى التحريق المشؤوم الذي سلطه
عليهم سابقاً الحاكم الفاطمي، وفي فورة أجيحها أدركوا من
دون عناء تلميحات مخاطبهم وقصوده، فبدت عليهم أمارات
الفهم والقبول، لم يلبث أبو ركة أن استغلها مضيئاً:

– يا عرب العز! أيرضيكم أن يبعث الحاكم بأمره دعائه في
مصر والشامات ليشيعوا عنكم أمام الناس صوراً تمسخكم
وتذلكم؟ يقولون إنكم جبابرة وغصابون، وإنكم أجلاف العرب
تعيشون بقطع طرق الحجيج إلى بيت الله، وإنكم تسفكون

دماء الصبيان والنساء، ولا تحلون بأرض إلا أتيتم على
أخضرها ويابسها ونشرتم فيها شعائر الردة والخراب...
يقولون هذه الفضائع وأشنع منها وذممكم منها برايا. فإلى متى
وأنتم صاغرون قانعون بسوء الصيت وبالمسكنة؟ إلى متى
وأنتم تصرفون الأيام في حروب رديئة غاشمة ضد المستضعفين
أشباهكم؟ إلى متى والصحراء تُفيض عليكم الفقر والعذاب؟
وحق من له الحول والقوة، لأعودن إلى مخابئي وغيراني إن لم
تغيروا ما بأنفسكم وتحققوا في هذه الدنيا وعود الله بالعدل
والعزة والتوحيد.

كان كلام أبي ركوة يهز وجدان سامعيه، وتنزل غاياته
عليهم برداً وسلاماً، وتقابله الأفواه بالتعجب والتبريك. وفي
هذا الجو المشحون بالهيبه والانفراجات الواعدة، بادر شيخ
بني قرة إلى دعم أبي ركوة وتقريبه من الجماعة، وقال:

— حقاً ما قاله ضيفنا المجل يا قوم! انقضاض الضعيف
على الضعيف جبن وشماتة، وفوز الضعيف على الضعيف
حشو وحماقة. فلا حرب لنا بعد اليوم ضد المستضعفين
نظرائنا، ولا شغل لنا بعد اليوم إلا الاضطلاع بالمهم من
الامور. والمهم الأهم أن نُظهر للعالمين أننا عرب الشهامة،
والإباء، ليس من طبعنا اقتراف الفواحش ما ظهر منها وما
بطن، ولا إيتاء المنكرات من قطع الطرقات إلى الله أو سفك دم
القاصرين والأبرياء. المهم الأهم اليوم: أن نتطلع مع أندادنا
وأشباھنا في الحال إلى قطع طرق الجيف والطفى ونقل الجهاد
إلى قلب دولة الفواطم، حتى نقتلع الشر من جذوره، وننال بهذا
فضل الدنيا وجزاء الآخرة. ونحمد الله أن بعث إلينا إمام
الوعي والهدى الوليد أبا ركوة هذا.

ما إن أتم الشيخ أبو المحاسن كلامه حتى نهض الشاب
شهاب الدين بن منذر، وقال:

- يا أبا ركوة، السعد كل السعد أن نتبناك ونسير وراءك.
فنحن اليوم لا رشاد لنا إلا معك، وأنت لا قوة لك إلا بنا. ولكن
قبل أن نوثق العهد بيننا ونبايعك على الامامة، أجبنا بربك: ألا
ترى أنك تتعجل الأمور وتستبقها وأنت لا تُمضي على السلم
الذي تدعو إليه إلا بأيدينا وحدها، ولا تأخذ برأي الذين بيننا
وبينهم عداوة؟

ورد أبو ركوة على هذا الاعتراض الحصيف بصوت واثق
مطمئن:

- لتعلموا، أكرمكم الله، أني قبل حلولي بينكم، أقمت مدة
مع عشائر الزناتيين، أعلم صبيانهم، وأنصت لشكاويهم من
حكم الفواطم المزيفين، وأرى بلاياهم تحت نير الطاغية الحاكم
بأمره، وفاتحني وجهائهم وعقلاؤهم غير ما مرة بما في
صدورهم إزاءكم، وأيقنت أنهم يجمعون على أن حروبهم معكم
لغو وهباء منشور، لا يخوضونها إلا مكرهين، وبقلوب ملؤها
الحسرة والمرارة. فثقوا وتأكدوا، أيدكم الله بنوره، أنكم إن
جنحتم للسلم مشياً، فسيجنحون إليه هرولاً، وإن طلبتموه
محددأ، فسيطلبونه مؤبداً. فلا تكونوا أشداء حيث لا تنفع
الشدّة، ولا متكبرين حيث يهون الريح. يا عرب بني قرّة، إن
كنتم ترومون السلام الذي لا رجعه فيه بينكم وبين الزناتيين،
وكل الذين تربطكم بهم قرابة الاسلام الحنيف، فإني ساع به
غداً، أمهد بساطه وأدقق معكم ومعهم معانيه ومراميه؛ وأما
إن كنتم تخشونه وتستوعرون عواقبه، فلا مناص لكم من أن
تخلوا سبيلي إلى الصحراء، أتعرق فيها وأترك رملها يعلو عليّ.

تبادل شهاب الدين وشيخ القبيلة نظرات التوافق والتآزر، فأقبلا على أبي ركوة يضمامه ويقبلانه، ثم تعالت الأصوات بالقبول والتأييد والترحيب، معززة بزغاريد النساء وهتاف الصبيان. وكان هذا إيذاناً بالاجتماع على السلم الذي لا محيد عنه وتمهيداً لمبايعة أبي ركوة على الامامة. ووافق هذا كله أذان المؤذن لصلاة الظهر، فهبّ القوم إليها مصطفىين وراء ضيفهم الكبير، طالبين منه ان يؤمهم، فنالوا بعد إلحاح ما أرادوا، وصلوا صلاة خيمت عليها علامات سكينة وخشوع، لا عهد لهم بها من قبل... وما إن انتهوا وسلموا وتعانقوا حتى همّ نفر منهم بذبح ناقه، تكريماً لأبي ركوة وتيمناً بمقدمه السعيد، إلا أن هذا الأخير منعهم وأقسم ألا يفعلوا إلا يوم يعقد الصلح بينهم وبين جيرانهم من القبائل. وبعد أن أقنعهم اكتفى منهم بكسرة خبز وحفنة تمر وقدر من اللبن الطري، وكانت هذه وجبته المعتادة مرة كل يوم. ولما انتهى من تناولها حمد الله ثم استأذن القوم بالغياب عنهم، فدخل خيمته واستقر هناك سويعات، يصلي النوافل، ويقرأ القرآن تارة ويكتب الأحاديث متأملاً طوراً.

*

كان النهار يميل إلى الأفول، وشفق المغيب ينشر حوله أكاليل هائلة الأشكال، ما لبثت أن شدت إليها أبا ركوة، فظل يرمقها من ثقب في خيمته، وينسخ من وحيها الفكرة تلو الفكرة، وذلك إلى أن حلّ الليل بربوع هذه الصحراء. وكان الناس بشيبيهم وشبابهم يعيشون هم كذلك حالة من الوجد والانفراج الأخاذ. وهكذا تبدى لهم هذا الليل متميزاً عما سواه: أمن من حمام مكة، وله نكهة السمو وطعم الجنات.

فالسماء المفروشة باللالء ما أقربها إلى الأرض وأرحمها بالخلق! والقمر الفياض بنوره واكتماله ما أسخاه بالتباشير والآمال على القلوب! والرياح كأنها تعاقدت على التهادن والتنافس في لفّ الرحاب ومن عليها بالرقّة والخفة والشروح. فما كان من عشائر المخيم إلا أن تجمهرت حول خيمة إمامها، وشكلت الدوائر تلو الدوائر. فهذه دوائر الصبيان يلعبون ويرتعون فيها وقد صار الواحد منهم أنشط من ظبي مقمر، وهذه دوائر النسوان يتضحكن ويرددن الأهازيج المحببة لديهن، وهذه دوائر الشيوخ والشيوخ يتناوبون على ملء الفضاء بالأوراد الدينية تارة، وبأناشيد الفروسية والإباء المصحوبة بالرقص طوراً.

ظل القوم على هذا العرس والفرح والابتهاج ما شاء لهم حمسهم وتوثبهم، ووسعتهم حدود السهر. ولم تبد لوائح الخفض والتراخي تسري بينهم إلا بعد أن تنبه الرجال إلى غياب أبي ركوة وفرسه من المخيم كله، ثم إتيان شهاب الدين ابن منذر ببطاقة بتوقيع الامام الغائب تقول: «لم أشأ استئذانكم في الغياب، حتى لا أفسد عليكم أفراحكم ومسرّاتكم، يا أحبائي. فإني ذاهب إلى ربي أستعين به وأستفتيه. ولن أغيب عنكم أكثر مما يطيقه شوقي إليكم وتقتضيه حاجة سعبي بالسلام بينكم وبين الذين تعادونهم. وبالله التوفيق ونعم الوكيل».

وما إن انكشف فحوى هذه البطاقة حتى تفرقت الجموع، وعاد كل إلى ملاذه طلباً للنوم أو قصد الانتظار، فسقط المخيم في سكون مبرم لا يشوبه إلا نباح كلاب أو حركات الحراس.

*

طلع الصباح واستفاق الناس على شعور عوز وخصاص،
ومر عليهم يوم فبضعة أيام، وهم في حالة من الترقب والقلق
صار يستغلها رهط بزعامة رجل اسمه حماد الماضي، فيشهورون
بأبي ركوة، ويشككون الناس في نسبه وأقواله، ويفسدون
قلوبهم عليه. وكان الماضي سباقاً إلى اغتنام كل فرصة سانحة
لمخاطبة الجموع بكلمات تفور بالتحريض والغیظ، فكان يقول:

- يا بني قومي وأبناء الدم الواحد، إني والله لم أعد أرى
لوجوهكم وجهاً، ولا لحلماتكم حلماتاً. فكأنني بكم قد أضعتكم كل
رشد ودهاء، حتى صرتم أخبط من حاطب ليل وأحمق من
ماضغ ماء، تلوون على السراب وتحسبونهُ حقاً، وتتبنون ضالاً
كأن به الخلاص والخير الأبقى. فما لكم وهذا الغريب المتلبس
بالنسك والذلاقة والتقوى، قد بايعتموه على الامامة
والاستسلام، وليس هو، وحق قرابتنا، بأنفع من بائع أوهام،
لا يشع إلا بنور مشبوه سيلقى فيكم صرعا، ولا تأتي رياح
مأربه ودعواه إلا بما يهلك وتبوء عقباه. من أنتم وما قوتكم
حتى تنقادوا إلى قتال جيش الفواطم الجرار! تالله إن فعلتم
فستظهرون أغبي من الفراش المترامي على النار، وأعمى من
الوطاويط. في واضحة النهار. حذاركم حذاركم! لا خلاص لكم
من هذا الحدثان، وحق دمنا، إلا في نبذ فالية الأفاعي، والعود
إلى مباركتكم وما تعارفتم عليه من الحروب الصغيرة والمساعي.

كان وقع كلام الماضي على نفوس الناس يقوى بقدر ما يطول
عندهم انتظار عودة أبي ركوة. ولولا تطمينات الشيخ
أبي المحاسن وشهاب الدين، لكانوا قد أعلنوا الردة وفسخوا
عهد البيعة وشقوا عصا الطاعة. وبينما كان الماضي ذات
خميس في سوق هذا اليوم يكرر على الجموع تنديداته، إذ

صعد في الأفق غبار كثيف لم يلبث أن تكشف عن فل فرسان يتقدمهم أبو ركة. وما أن لحقوا بالمخيم وترجلوا حتى ظهر أن الرفقاء هم من أعيان قبائل زناتة ولواتة ومزاتة، فاستبشر بنو قرة خيراً وأظهرو للزائرين كل علامات الحفاوة والتكريم. أما الماضي ورهطه فقد لاذوا بخيامهم، واعتصموا بها صاغرين. ولما أن حان وقت صلاة الظهر، قام الجميع بأدائها وراء أبي ركة، ثم جلسوا لمشاركة ما تهيأ من الطعام، على أن يأخذ الضيوف بعد هذا قسطهم من الاستجمام والراحة، استعداداً لاجتماعات الصلح في يوم الغد الذي هو يوم أول جمعة من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

في صبيحة هذا اليوم المشهود، قام الزائرون وشيوخ بني قرة عن بكرة أبيهم، فالتحقوا كلهم بالامام في خيمته، وصلوا صلاة الصبح وراءه ثم جلسوا للإفطار، فتلاوة أي من القرآن. ولما خيمت على المكان علامات التواصل الروحاني ونفحات الخشوع والتعالي، برز أبو ركة مقتعداً مخدتين، وشرع يقول بصوت رخيم مؤثر:

أحمدُ اللهَ رازقَ نعمتي وماليءَ ركوتي.
ها إنني قد اغتسلتُ وتطهرتُ،
وعلوتُ ثم علوتُ فوقَ وحدتي واندلعتُ،
علني أوحدُ القلوبِ وألقى الفرغ،
علني أعملُ كالعضو، وسائراً أحلمُ بالسير والجماعة.
(...)

سميتُ مثلكم هذي النارَ التي تحرقنا عافيةً،
وغطسنا كلنا في الوديانِ حمانا.
وإدنا، أهٍ كم وددنا لو احتفلنا بمن تبقى من الأحباب،

وجعلنا الكلام مسكاً وانرنا الأركان!
وددنا لو بكت العيون غبطةً وانتشت الديار...
لكن كيف والشوكة في اللحم صحت
وصح الجرح وضيق الحال؟
كيف السبيل والعيش الحق أضحى عين المحال؟
(...)

صح ما ترونه وأراه:
أجسام أناسكم وبنيتكم تجف ببطء عروقها،
وتظل جاحظة العيون وجلاد الحاكم يكشطها.
عمرها؟ لو أهل الإسلام تعرفوا كيف تقضي عمرها،
لتحولت الزيوت في خوابيهم دماً، وفاضت دموعهم على
الشفاه.

والآه! صح أن الآه في ربكم كنه الحياة.
فهذا الواد الواحد يعبركم بالمياه الفقيره،
وهذي الفصول تأتيكم بالعلامات الخطيره،
وهذي التربة الضنينة،
من أحشائها لا شيء يطلع.
صح ما تقولونه:
فسد الوقت والقوت غلت على المقهور أسعاره،
صح ما صح والحب بينكم تداعت دعائمه،
وضاق الانسان والترحال لا ينفع.
(...)

هنا أنتم: بين جذب الأرض وأسلحة الجند،
تمرون من ضيق إلى ضيق،
ومن مد العوز إلى اللحد.
(...)

صَحَّ مَا صَحَّ، وَلَكِنْ صَحَّ أَيْضاً مَا تَحْكُونُهُ عَنِ الْأَجْسَامِ
العنيدة:

قد برزت فيكم بين الردمِ والصَبَّارِ والأشجارِ الشريده،
وراحت تغالبُ الموتَ وتبحثُ عن صباحاتٍ جديدة.

سكت أبو ركة هنيهة، وظهر أن القوم أجمعين كانوا
بكلامه مولهين منفعلين، وكان الكثير من شباب العشائر قد
طوقوا خيمة الاجتماع بأسماعهم وجميل مشاعرهم. ثم
استأنف أبو ركة الكلام بلهجة حازمة تروم التقرير
والاقتضاب، قال:

- أيها الاخوة في التقوى والعقيدة السمحاء، قد علمتم بما
سعت به بينكم من سعي حميد، وأدرتكم أن لا خلاص لكم
إلا في أن تهرقوا على جمركم، وتتوحدوا في الجهاد ضد قوى
البغي والطغيان. فماذا ترون وبم تشيرون؟

انتصب شيخ الزائرين واقفاً، وكان طرماحاً وقوراً، وغمر
الجالسين بنظرة ود ووثام، ثم خاطب أبا ركة قائلاً:

- صدقت القول، أيها الصالح المقدام. إننا لا نراك في
مساعدك الميمونة إلا محفوفاً بأسباب العز والفلاح، ونحن في
القبائل التي ننطق باسمها في هذا المقام الجليل، سنذكرك
أجياً بعد أجيال حصافة رأيك وجميل صنعك. وكيف لا،
وأنت تنجز فينا وفي جيراننا من بني قرة ما عجزنا عنه جميعاً،
ويؤسنا منه بالمرّة: وحدة بعد شتات، وإحلال الاخوة في
التقوى والعقيدة السمحاء محل التعصب للدم والقراية،
وتهيبىء الجهاد المقدس ضد الظالمين الطغاة بشرط الكف عن
حروبنا المزمنة الرديئة. فجزاك الله عنا خير جزاء.

عاد الشيخ إلى جلوسه، مصحوباً بإشارات التأييد

والتبريك من الحضور. وقام بعده شيخ بني قره، وقال:

- نِعَم القول قول شيخ زنّاة المجل، فاحمدوا الله يا قوم
ان هدى الامام ابي ركوة إلينا، وهدانا به وبفكره السديد.
احمدوا لله الذي ازال عنا همنا المقيم، بأن جردنا من أسباب
العراك والشقاق، ويسر لنا شروط التآزر والوفاق. ونحمده أن
جعلنا بوحدتنا وتكتلنا قادرين على الجهاد في سبيل الحق، غير
هيايين من تجبر متجبر وطفى طاغوت. خير الرأي ما سبقته
المشورة، ولعلي بالامام ابي ركوة يطالبنا بما نراه في باب
الحيلة والمسار، بعد أن تحددت معالم الغاية والمرمى.

كان الشاب شهاب الدين يترنح في مكانه ويتربص فرصة
الظهور برأيه ومواهبه. وما إن جلس أبو المحاسن حتى قام
وقال:

- أيها الاخوة في العقيدة السمحاء، ويا نزلاء السلم
والوثام، حمدنا لله لا حصر له، وتيمننا بوحدتنا لا حد له. أي
غاية أكبر من أن نتعاون في صبّ جام غضبنا على مصدر
قهرنا وانسحاقنا، بعد أن كنا نصبه على بعضنا بعضاً! لكن
الغاية هاته، لن نعرف نعمتها ونتملى ببهائها إلا بالسعي إليها
والحصول عليها. فالينا بالفكرة نبلورها، وبالشروط والأسباب
ننظر فيها ونرتبها. ولنا أن نتوكل على الله ونستعين بأضواء
إمامنا المقدام.

شعر أبو ركوة بضرورة التجرد للأسئلة المضمرة، التي تدور
في خلد الحاضرين: حول تحديد الأهداف الترابية واقتسامها،
وحول ميزان توزيع الغنائم بالقسطاس، وقال:

- بهجتي الكبرى وسعادتي، يا سادة، في أن تعلموا
وتتيقنوا أن لا مطمح لي ولا مطمع إلا في إعلاء كلمة الله

ونصرة العدل والحق. فإن كنتم تريدونني لهذا، فأنا معكم فيه في السراء والضراء، أقاتل معكم، وأبارك أعدادكم، وأترقب منكم في باب إعداد القوة كل مزيد. وإني لأراكم مستبشرين بوحدةكم خيراً، وعازمين على رصها وتطعيمها بالجهاد في سبيل الله.

صعد من بين الزناتيين صوت فظ مستفسراً:

– سبل الله التي تطلبنا للجهاد، يا ولي الله، لا حصر لها، فحدد لنا فيها المبتدأ وعين المنتهى.

أجاب أبو ركة بلهجة حازمة أمره:

– برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا.

تهامس جل الحاضرين مستعظمين خطب المهمة: «برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا!»، فسارع شهاب الدين إلى نجدة الفكرة، ووقف قائلاً:

– الصواب يا قوم ما يراه إمامنا، فأنتم إن قنعتم ببرقة فوالله لن يكون حكمكم عليها إلا كسحابة صيف؛ وأما إن أردتم لوحدةكم إشعاعاً ولقوتكم دولة، فلا بد لكم من أرض مصر والشام، تقبلعون منها حكم الطاغية الفاطمي، وتقيمون فيها حدود الله.

وارتفع صوت من بين رجال بني قرة سائلاً أبا ركة:

– يا إمامنا المجاهد، هب أننا نلنا بسيوفنا مجتمعين ما تتوخاه لنا وتبغيه، فكيف نتقاسم البلاد وكيف ندير؟

شعر أبو ركة بلزوم أخذ المبادرة في الرد على هذا السؤال الوعر، وقال:

– لا أرى إلا ما يقره العقل في هذا الباب: الأرض أرض الله، فإذا ما كتب لنا النصر، فبلاد مصر لكم ولي نحن السابقين، نحكمها بالعدل والشورى، ولا نهتدي فيها إلا بمصاييح التدبير والاجماع، وأما الشام فنولي عليها من لحق بنا على دروب الجهاد.

ترددت بين الجمع أصوات التأييد والتسليم، تكاد لا تشوبها شائبة ريب أو نزاع، ثم برز رجل من الزناتيين، وقال:

– يا أبا ركوة، لم لا تباشرنا بما يتوق كل القوم هنا إلى معرفته عن المغانم، فاضبطها أيدك الله، وحدد لنا فيها قسمنا لندرك كيف نجرد سيوفنا، ونتبين من أمرنا رشداً.

أجاب أبو ركوة، وكله ميل إلى تليين حدة السؤال:

– قال تعالى: «تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة»، وقال النبي عليه السلام: «الغنى غنى النفس».

رد الرجل لتوه معانداً:

– مغانم الله الكثيرة لن تنفعنا إلا في الآخرة، أما عنا في هذه الدنيا فقد قال تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً».

قال أبو ركوة بصوت مهادن:

– «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله»، صدق الرب الكريم. يا قوم لا تقوى في توزيع الغنائم إلا بالقسطاس. خمس للفقراء والمعوزين وأبناء السبيل، وخمس لبيت المال، وما تبقى فخذوه حلالاً طيباً، لا فرق فيه بين المجاهدين. ولا مغانم تؤخذ إلا من أقوام قتلونا وظلوا شاهرين السيوف علينا. وأما المسلمون والأبرياء، فلا خوف عليهم ولا على ما ملكت أيديهم. كل من نهب وسطاً، أو أحرق شجرة أو أتلف

غلة، فليس منا ولا نحن نقصر في عقابه. هذا قولي إليكم
فاعتبروه.

لم تبد على الوجوه إلا علامات الموافقة والرضى، فاغتنمها
شيخ بني قرة فرصة لدفع القوم إلى مسك الختام والانشراح،
إذ دعاهم إلى قراءة الفاتحة، فقرأوها خاشعين، ثم وقفوا
وانتشروا خارج الخيمة وهم يتصافحون ويتعانقون.

في الخارج كانت النسوان منهمكات في إعداد صحون
الطعام. وأتى رجال من القبيلة المضييفة بجمل، فطرحوه أرضاً
أمام أبي ركوة طالبين منه أن يباركه بنحره، فتوضأ الامام،
وصلى ركعتين، ونحر والناس من حوله يكبرون. وما ان
انتصف النهار حتى كانت خيمة الضيافة تضم إليها الزائرين
وأكابر المضيفين، وهم يأكلون ويشربون هنيئاً مريئاً، ويتبادلون
النوادر والطرائف. ولما انتهوا سارعوا إلى أداء صلاة الظهر
وراء أبي ركوة، ثم عادوا إلى خيامهم قصد الاستراحة
والقبيلة.

مضت مدة والمخيم كله غاص في محيط سكونة شاملة.
وكانت ريح لياح تهب على الأبدان، والمعدُّ تعاني لحظات هضم
عسير. ورغم هذا وذاك، فإن النفوس كانت عالية بعيدة
التحليق، تحلم بخيرات برقة ومصر وكل المدائن الموعودة،
وترى المغانم ما ظهر منها وما بطن على طول أميال لا تنتهي،
وترى في ملكها حقول الخصوبة المتجددة والنيل المحاط
بالبركات، وترى الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام،
وترى الجاه والصولة والصولجان. ولولا نداء المؤذن لصلاة
العصر، لظلت النفوس تلاحق رؤاها تباعاً، زاهدة في الوقت
واليقظة.

بُعِيد الظهر، شرع الزائرون في التهيؤ للرحيل. كان التصافح المكلل بالعناق بينهم وبين مضيفيهم حاراً صادقاً؛ وتواعدوا كلهم باللقاء القريب، وتواعدوا بالتأزر والنصر. وفي غمرة هذه العواطف الجياشة، أتى أبو ركة أمام شيوخ زناته، فأخرج من كفه حزمة أوراق، وقال وهو يسلمها لأكبرهم سناً:

- هذه، أيديكم الله، وثيقة الصلح بينكم وبين عرب بني قرة، حررتها بمداد الوفاء والخلاص. ومعها كما ترون وثيقة هي سر بيننا وبينكم، وفيها قيدت ما تعاهدنا عليه في باب الجهاد ورفع المظالم والظلمات. فأطلعوا عليها كافة عقلائكم، ثم ردوها إلينا موقعة بخواتم الشرف والاباء حتى نعيد اليكم نسخها بخواتم مثلها من بني قرة. وما إن يتم لنا هذا بحول الله حتى يكون ربيع الآخر الآتي من هذه السنة المباركة شهر لَمْ شتاتنا، وتوحيد صفوفنا، ودخولنا برقة أمنين مفلحين. وأما الآن فعودوا إلى عشائركم مستبشرين ومصحوبين باليمن والسلامة.

لما أن أتم أبو ركة كلامه وقبل الضيوف واحداً واحداً، امتطى هؤلاء خيلهم وانصرفوا ملوحين بالتسليم، تاركين بني قرة في حالة غبطة وإنشراح. وحين غابوا قال أبو ركة:

- «الحمد لله الذي هدانا لهذا. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله». أيها القوم، أنتم منذ الآن في حالة استنفار قصوى من أجل يوم عظيم، فأعدوا لعدوكم ما استطعتم من قوة، وتدبروا أموركم بالجملة والتفصيل، وأنا معكم كعضو منكم، أشارككم في التنظيم والترتيب، وأعزز نظركم في ما صعب من شؤون التخطيط والتصميم. وإن طلبتموني لهذا،

فاطلبوني في مساء كل يوم من شهرنا الجاري. وأما الصباحات، فإليّ بأطفالكم، أعلمهم كلام الله وما صحّ من الأحاديث، إذ العلم في الصغر أبقى من وحي في حجر. إليّ بصغاركم منذ غد، أتقلد تعليمهم أمانة في عنقي ومهمة أتشفع بها يوم القيامة. وما بقي من هذا اليوم، فلي فيه حاجة إلى خلوة أكيدة، لأستجلي نفسي وأستفتي ربي.

*

سارت حياة بني قرة على ذلك النحو الذي ارتآه إمامهم. وكان كل يوم من ربيع الأول والآخر يأتيهم بتيسير أو خبر سعيد: فها هم زناتة وحلفاؤهم يبعثون بوثائق الصلح والتعاقد على الجهاد ممضاة بالموافقة والتأييد، وها هم الكتاميون في افريقية يعرضون مشاركتهم في كل حرب ضد الحاكم الفاطمي، وها هي الاعدادات الجهادية على قدم وساق تسير من حسن إلى أحسن. وكان أبو ركوة، بالرغم من انشغاله بالتعليم والقراءة والتفكير، يتتبع كل خبر ويتلقاه من الشيوخ بالابتسام وأي الشكر والتبريك. ومما كان يسمعه أو يلاحظه أيضاً، هو عن تفوق الفتى شهاب الدين في تدريب الفتيان على استعمال كل أنواع السلاح الأبيض، وخوض غارات ومعارك وهمية، وتنظيم الأفخاخ والكمائن. وذات ليلة استدعاه أبو ركوة إلى خيمته وأجلسه قريباً منه سائلاً:

– أراك يا شهاب الدين تبلي البلاء الحسن والحرب لما تشتعل، فهل تبغي الزعامة؟

أجاب الفتى بصوت متردد بين الحيرة والوثوق:

– أيها الامام، إن بيني وبين ما أبغيه مسافة لا يقطعها من كان مثلي إلا هلك.

- ومن وضع المسافة وأقام عليها رقيباً؟ أهم العشائر؟

- ومن غيرهم يقدرّون على تطويق كل جانح بالموانع
والمتاريس إذا كان منهم! لو قدر لي أن أتصدرهم وأسوسهم،
إذن لكان عليّ أن أكون أنت.

قال أبو ركوة متظاهراً بالفضول والدهشة:

- أن تكون أنا؟ أفصح أيها الفتى.

- لقد أحاط بحر فهمك بما أعنيه. وإن أردت بياني فاعلم
أنك أنت ما ينقصني. هذه القبائل هكذا هي: لا تروم السمو
إلا بفعل مهدي يأتيها من خارجها، متحدثاً بلسان شعورها
الباطن، واعظاً بالتقوى والتطهير، واعدأً بانكشاف الغمة
والفتح القريب، داعياً إلى الخير وقلب الدنيا والموازين. ولا يهم
أن يأتيها متنكراً بزّي الناسك أو متلبساً بنسب عريق، بل
الأهم والأجدى أن يأتيها مع الظرف الموعد والدفع الميمون.

شعر أبو ركوة لأول مرة أنه بمحضر نداء يكلمه بكلام المرايا
وحديث النفس للنفس، فظل ينصت ببله، محملاً في الرمل من
تحتة وكأنه تحول إلى بركة ماء شفاف. وأضاف الفتى
موضحاً:

- إني يا أخي وإمامي لا أرد عليك نسبك أو زهدك، وكيف
لي بهذا الفعل اللاغي وأنا لا أرى الحقيقة إلا فيما تحقق،
فأتى بالخلاص والنفع! وأنت قد تحققت في بني قرة، وحققت
فيهم خيراً عميماً وهم من التلف قاب قوسين أو أدنى.

أخذ أبو ركوة طبقاً من التمر كان بجواره، واهتم بتقديمه
إلى شهاب الدين من حين لآخر. وإذ تضايق هذا الأخير من
سخاء جليسه قال:

- أتريديني في متابعة الكلام أم في مضغ التمر؟
- لا والله لا أرغب إلا في تكريم الحلاوة في خطرارك
بحلاوة أخرى.

- كيف لي أن أردّ عليك حلاوتك وأنا لم أردد عليك نسبك
أو زهدك! فانظر ما أفعله بالتمر لتدرك مقدار معزتك عندي.

قال هذا وشرع في بلع التمر واحدة تلو الأخرى، حتى كاد
يأتي على الطبق لو لم ينتزعه منه أبو ركة قائلاً:

- أنت غني عن هذا الامتحان، وأنا بك واثق.

أجاب شهاب الدين بصوت يغالب الفواق والتأثر:

- قد كان عزمي ألا أفضي إليك بما ينوء به صدري حتى
بعد أن تراني على ساحة الوغى، أحقق في ذلك مع القوم أول
النصر في ديار برقة. غير أنك وقد عجلت لي بهذا اللقاء، فأليك
بالبقية في جعبتي. قلت عنك إنك تنقصني، والأصح من هذا
أنك أنت لا تنقصني إلا بقدر ما أنا أنقصك. فإن التقينا على
الرحب والوفاق، اكتملنا ومهدنا الظفر تلو الظفر: أنا بسيفي
البتار وأنت بدرعك الواقى، أنا بضم التربة إلى التربة وأنت
بالسقي والاستسقاء، أنا بالترهيب وأنت بالترغيب، أنا بالردع
والوعيد، وأنت بالوعد والتيسير، فهلا ضممتني إلى بحر فهمك،
وحملتني إلى ما تبحث عنه وتسعى إليه؟

- ويحك يا فتى، أراك تستبق الأحداث بكل جوانحك وتروم

الدولة!

- وهل لنا من مخرج غير الدولة ونحن نريد الانتشار؟

- ولكن لمّ الحديث عنها قبل الأوان؟ هل ربحنا المعارك

كلها، وطوينا الهموم قاطبة ولم يبق إلا الهم بالدولة؟

- الدولة العامة أمر عظيم، وإن كنا نبغيها ونتقصدها،

فالحلم بها قبل النصر أخصب وأجدى من الحلم بها بعد
النصر. ألسنت أنت القائل: «برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا».
فأنتى لنا المعبر والغاية من غير أن تظهر على الناس بجهاز
حكمتنا والاحتكام إلينا؟ دعنا بربك نتعاهد أنت وأنا على ما
نتقاسمه ونتوق إليه، فنرتب للحلم قضاءه ونمده بأسباب
التحقيق.

– هبني واطأتك على عهد، فما أنت قائل لقومك؟

– تسألني وأنت أعلم بالخفايا، وتواضعني وكأني في بني
قومي كالطين اللابز، لا حق لي أن أخرج بهم ولا فيهم، فكفى
مواضعة ومداهنة، وانظر إلى نفسك في ترى ما أراه: كلانا
صنو الآخر، ولا نريد لهذه الاقوام إلا أن يخرجوا من
هوامشهم وغيرانهم، ويرموا خلفهم رمال تفرقهم وشتاتهم؛
وهم لا يريدون أن يسيروا إلا وراعنا، ولا أن يتسيدوا إلا بنا،
مسترشدين بهدينا وعلو مرامينا.

– ليت لي ما لك من غليان وحماسة حتى أرى مرمى أوعر
وأعز من القضاء على الحاكم الفاطمي ودولته.

– ضريع هذا المرمى هو الخروج بأقوامنا وأحلافنا إلى
المدائن ومجالات الفعل والحضور.

ربت أبوركوة على كتف شهاب الدين وعلق مقاطعاً:

– هو ذاك يا صنوي، هو ذاك. أنت حقاً الشهاب الذي
ينقصني ويعوضني عن تردداتي وشكوكي.

– هل مثلك أيها الامام يعرف الشك والتردد؟!!

– من لا يعرف هذا فلا إمامة بل لا إيمان له. تراك فكرت
مرة في ما سنؤول إليه كلنا إن نحن رسبنا وهزمننا. لو كنت
تعرف طغيان الحاكم الفاطمي كما أعرفه، لو كنت تعرف

شراسته وعلو كعبه في تقتيل الخارجين عليه وحتى الداخلين في طاعته، لو عرفت ما أعرف لتخيلت ولو مرة ما أخشاه: أودية من الدماء بيننا تجري، وتلال من الرؤوس المقطوعة، لا قدر الله، يقف عليها دعاة الحاكم يسبحون باسمه ويدعون إلى عبادته وتأليه. أرى هذا فأقول: أيقظ لي أن أدفع هؤلاء الأقوام إلى درك اندحارهم وزهق أرواحهم؟ وبماذا أجيبهم إن واجهوني كلهم غداً يوم القيامة قائلين: لقد وعدتنا بالنصر ولم تعدنا بالخسر، وخيبت آمالنا خيب الله مالك؟

كانت عينا أبي ركة تلمعان بالدمع، ورنه صوته يخالجهما تهدج وانكسار. وانتاب شهاب الدين شعور بانفلات الأرض من تحته، وقال متغلباً على حيرته واندهاشه:

- عجباً يا أخي! أيرتاب في النصر من له إيمانك، ويريد نصرة كلمة الله على الأقوام الظالمين؟

- ليس خوفي من هؤلاء الأقوام، بل من ضربات الخيانة والغدر أن تأتيني من أتباعي وأنصاري.

- إذا كنت تقصد حماد الماضي ونفره، فأنا معهم أسهر من النجم، وإن أردت سحقهم غداً واحداً واحداً.

- ليس الماضي وقد ارتاع في لحمي إلا زبد الأفاعي الخفية، فلا تنفذ فيه الوعيد حتى نرى كيف يحارب معنا في معركة برقة الآتية.

- حسناً نطقت! وأحسن منه أن تطرد من بالك الشكوك والمخاوف كلها، فاعقلها وتوكل على الذي هو حسبك. أما أقوامنا فإن انتصروا فلهم الدنيا والآخرة، وإن هُزموا فما فقدوا إلا أصفادهم وأيامهم النحسات، وما أراهم يوم القيامة

يحاسبونك وهم في سدرة المنتهى، ينعمون بما وعد الله به
المجاهدين في سبيله.

- هو ذاك يا شهاب الدين، هو ذاك! إما ملك وإما هلك،
أليس كذلك! وإن خسرنا فلسنا بأول من غرهم السراب. والآن
ماذا تريد من السلطان؟

- لك الامامة كلها والسلطات الروحية ما ظهر منها وما
بطن، ولي دونها دفة الحكم، أديرها بوحى منك، وبما قلّ ودلّ
من الأتباع، فمدّ لي يد التعاهد.

- لك إن خلصنا إلى مصر هذه القسمة، وليس الإمامة أطل
منها عليك مراقباً راعياً، لا أقبل من الأتباع إلا أتباع الحق،
ولا أغمض جفني وسيفي إن رأيتك إلى التفرد بالحكم نزاعاً أو
إلى الفواحش تواقاً.

قام الرجلان وتصافحا، ثم تعانقا عناقاً حاراً، وافترقا على
أمل اللقاء في السر قريباً.

*

في أواخر ربيع الثاني، كان بنو قرة قد أنهوا كل
استعداداتهم وتدريباتهم، وظلوا يتطلعون إلى يوم المعركة على
أحرّ من الجمر. وارتأى الشيوخ أن يذهبوا إلى قبائل زناتة في
زيارة تفقدية، فبعثوا من يخبر بمقدمهم، وطلبوا من أبي ركة
مرافقتهم، فبارك الفكرة وشد الرحال معهم. وما أن حلوا بين
حلفائهم حتى وجدوا منهم كل علامات الترحيب والتكريم،
وسمعوا على لسان أكابرهم بيانات التأهب والتشمير. وشعر
أبوركة أن عليه الآن أن يأخذ بشأبيب جذوة الحماسة
وفورة الاندفاع عند أتباعه، فقال فيهم مقتضباً:

- أيها القوم، نحن اليوم على عتبة يوم عظيم، يوم

انطلاقتنا إلى برقة، نخلصها من مخالب الطغي والجبروت.
وأعظم من هذا اليوم يوم يكتب لنا النصر في مصر حيث مصدر
الداء وعلّة الوباء، فوفروا وادخروا لذلك اليوم الأعظم، أيديكم
الله، أعدادكم وعتادكم، ولا يطلبن مجاهد منا فوزاً ولا
استشهاداً إلا في يوم الحسم ذاك. أما برقة، فقد تضرعتُ إلى
الله وتوسلت أن يسلمها إلينا هبة من عنده، فرأيت في منامي
مرتين أننا، بحول الباري، ندخلها أمنين مطمئنين، لا نفقد فيها
قطرة من دماننا ولا نسيل دماء المعاندين.

تبادل جلّ الحضور نظرات التعجب والاستغراب، وارتفعت
بعض الأصوات سائلة:

– وإن شهر المعاندون السيوف في وجوهنا وطلبوا قتالنا؟

قال أبو ركوّة، وهو يغالب أصواتاً كثيرة تلهج بالسؤال
نفسه أو تحوم حوله:

– ذلك بعيد الاحتمال، وإن فعلوا فتطففوا في إزهاق
أرواحهم وتأنفوا. فنحن نوثر قبضهم أحياء، حتى نبادلهم
بالأسرى من كتامة في معاقل الحاكم الفاطمي.

سأل سائل من بني قرّة:

– وما يهمننا نحن من شؤون الكتاميين وأسراهم؟

فرد أبو ركوّة:

– نحن بهذا الفعل الخير نستميل كتامة القاطنين مصر
والعاملين في دولة الفاطميين وعسكرهم، وبه أيضاً نعلن قبولنا
لعرض العون والدعم من قبل كتامي افريقية... كل من عادى
الحاكم الفاطمي في الظاهر أو الباطن فهو حليفنا يوم الحسم،

نفرش له الطريق إينا بالورد والود، ونعده، بما نطيق
ونستطيعه. ألا هل بينت؟

ظل الحاضرون واجمين لا يبدون حراكاً، كأنما استبدت بهم
نوبة تمعن وتخمين. ولم يخرجهم منها إلا صوت الشيخ
أبي المحاسن الذي دوى من خلفهم كالرعد، وقال:

– ما بالكم، يا قوم، تؤثرون الصمت حيث يلزم الكلام
بالتنعيم والترحيب؟ أخرجوا ما في صدوركم لنتبين من أمرنا
رشداً.

نطق رجال من الفريقين وتوالت أقوالهم تباعاً:

– يلزم أن نسيل في برقة ما استطعنا من دماء، حتى
نرجف بها الحاكم الفاطمي.

– كيف نقنع مقاتلينا بدخول برقة أمنين مطمئنين، لا
يهتدون إلا بضوء رؤيا أبي ركوة في المنام؟

– أما الكتاميون، فإننا بأعدادنا وعتادنا في غنى عنهم،
والحساب عندنا أنه كلما كثرت الأحلاف كلما قلت المغانم.

عاد أبو المحاسن إلى الكلام، ولكن بصوت منهك متداع:

– أرى دار لقمان لا زالت على حالها، ويحزنني حزن أبي
ركوة وهو يراكم لا تنجذبون إلا إلى الدماء والمغانم،
وتستوعرون السهل وتستسهلون الوعر، وتبيعون الغالي
بالرخيص والعلو بالقريب. أما أن لكم أن تصححوا مداركم
وتغيروا ما بأنفسكم؟ أما بكم حاجة إلى مقامات العفة والرفعة؟

تبادل أبو ركوة وشهاب الدين نظرات استنجاد، وبدا أن
هذا الأخير يؤثر أن تكون كلمة الفصل من فم الامام.. قال
أبو ركوة:

- يا قوم، لست حزيناً إلا لكون بعضكم لم يفهم بعد ما أريده وأرضاه لكم جميعاً. فاعلموا اليوم قبل أن تتبعوني إلى ساحة الجهاد، اعلموا أن القصد عندي غير ما قد تظنون أو تتوهمون. القصد عندي ليس مجاراة الحاكم الفاطمي في إراقة الدماء التي حرم الله، أو في البطش والتقتيل بالمجان؛ القصد عندي ليس تعريض أرواحكم للنهش والاتلاف. أرواحكم بيد الله وليست بيدي. والله الذي تنصرونه يريد لكم نصراً ولا يبغي لكم خسراً. فأزروني فيما أقصده وأجنح إليه. برقة معبرنا ومصر والشام غايتنا، لا تنسوا هذا الذي اتفقنا عليه، ولا تعطوا للمعبر ما تعجزون عنه أمام الغاية. وإني لا أقول وأرى عن برقة إلا ما أعلمه؛ لقد طفت بها وهي أرض بور، وحرثتها مع الدراويش ومعطوبي الطاغوت الفاطمي، وزرعت فيها معهم بين الأهالي تهاليل الترقب والرجاء، وأشواق البشر والانعتاق. فبرقة اليوم لكم غلة ميسورة، لا أراكم تأخذونها إلا بالسلام والعناق. أما مصر فلا بد لنا فيها من حروب، وحروبنا تلك ليست كما عرفتكم وعهدتم. فوالله لن تنفعكم فيها حيل الغارة الخاطفة ولا مكاسب الكرّ والفرّ، ووالله لن تربحوها إن لم تدخلوها بأعداد تقارب الجحافل الفاطمية، وتقاتل بنفس سلاحها وفنونها. لهم خيالتهم ومشاتهم ورماتهم ولكم مثلهم؛ لهم قدرات على الحرب في الماء والبر والخنادق ولكم ما يضاهيها؛ لهم أنصارهم وأحلافهم ولكم مثلهم أيضاً. فإن وعيتم كل هذا، إذن لكنتم أحرص من كتامة على التحالف معهم وقبول عروضهم. فهم لنا على أبواب مصر كما في داخلها خير عون وأجدى نصير.

ما أن ختم أبوركوة كلامه حتى تعالت من كل الحاضرين بلا استثناء هتافات التأييد والترحيب، يؤجج لهيبتها

أبو المحاسن وشهاب الدين، فبدت على الامام علامات الابتهاج والانشراح، وقال:

— الحمد لله الذي هدانا إلى ما فيه خيرنا وصلاحتنا في هذه الدنيا والآخرة. وباسمه أعلن يوم الفاتح من جمادى الآخرة من هذه السنة المباركة يوم دخولنا إلى برقة الميمونة، أمنين مظفرين. وبهذا فليبلغ الحاضر منكم كل الغائبين.

كانت هذه الكلمات إيذاناً لبني قره بتوديع شركائهم، فودعهم وواعدوهم على اللقاء في اليوم العظيم، ثم امتطوا خيلهم وانطلقوا فرحين نحو مخيماتهم، يتقدمهم أبو ركوة على فرسه.

*

في فجر اليوم الموعود التقى كل أتباع أبي ركوة على مدخل برقة الجنوبي، حيث شكلوا جيشاً واحداً وعينوا قيادة مشتركة. ثم بادروا إلى تنفيذ وصية أبي ركوة بمحاصرة المدينة وتسريب رسل التحريض والتبشير إلى السكان. وما أن انقضى اليوم الأول حتى تقوت صفوف المحاصرين بالجنود الفارين من جيش الحاكم الفاطمي، وبأفواج غفيرة من الأهالي. وفي اليوم الثاني، وقد ضاق الخناق على والي برقة ينال الطويل التركي وبقية جنده، اقتحم أبو ركوة المدينة في فلول من أتباعه محاولاً استدراج مدافعيها خارج خطوطهم وتحصيناتهم، لكنه لم يفلح. ففقل راجعاً إلى معسكره والقلق يساوره على خطته السلمية، وانزوى في خيمته طالباً للراحة والتفكير. وفي اليوم الثالث، بدأت تدب بين بني قره وحلفائهم مشاعر الامتعاض والضيق من الترقب والامساك عن الهجوم، التي كان يثيرها سراً حماد الماضي ويذكياها. وقد تناهت كلها

إلى سمع أبي ركة المعتصم بخلوته في شكل احتجاجات
وأسئلة عسيرة. وكان أبو المحاسن يتدخل لدى المعترضين
إبان هياجهم، ويلقي بكل ثقله لحملهم على الانضباط والصبر،
حتى يخرج الإمام عن صمته وينطق بما جدّ من رأيه. وقبيل
نزل الليل، لوحظ غياب شهاب الدين عن المعسكر، فتعالت
صيحات التنديد والاستنكار، وعمّ جو من الجلبة والاضطراب.
فانتهاز حماد الماضي هذه الفرصة السانحة وخاطب قومه قائلاً:

- يا بني قرة، أرجال أنتم أم ربات حجال؟! تنقادون وراء
إمام يختفي عنكم وقت الغمرة، وتنخدعون بواحد منكم
يخونكم عند الغرة. أمعركة هذه التي ترومون أم مهزلة؟ ألا إن
كنتم تطمعون في برقة فاطلبوها على حد سيوفكم بالاجتياح،
وليس بالترقب والتمني والنباح. أما إن كنتم تخشون العاقبة،
وتدركون نقمة الحاكم الفاطمي وشدة ثأره، فارجعوا إلى
خيامكم ومستقر أيامكم. وإني أرى لكم هذا أحسن وأجدي.

لم يمه الماضي نذيره إذ انقض عليه فارس مهيب من قومه،
وانهال عليه باللطم والعفس صارخاً:

- يا أشأم من حفار! خسئت من رجل لا يسير إلا بالغبينة
والحسيفة، ترونه صغيراً ذليلاً في السراء ومنتفخاً متنطعاً في
الضراء.

كان الفارس موشكاً على صرع الماضي حين سارع
أبو المحاسن إلى إبعاده ونهيه، وقال:

- يا قوم، قد اجتمعت بالامام في خلوته، وإنه يخبركم أن
شهاب الدين ما خان ولا تقهر، وإنما بعثه في مهمة سترون
نتائجها الميمونة عما قريب، إن شاء الله. فعليكم بجميل
الصبر والأناة. أما أنت يا حماد فحبلك على غاربك، لا أنت منا

ولا نحن منك، فلا يبزغن فجر غد إلا وقد ذهبت برهطك حيث
ذهب الحمار بأمر عمرو.

كانت السكينة قد عادت الى قلوب المجاهدين، وعمت
أفئدتهم نوازع التعقل والتأني. ولما أخذوا يتهيأون للنوم
سمعوا حراسهم يصيحون بالإخبار عن ثلاثة رجال يقصدون
المعسكر، ويتقدمهم رجل يحمل مشعلاً وخرقة بيضاء. وخرج
أبو ركة وهو يعلن بأعلى صوته:

- أبشروا يا قوم، أبشروا، إنه شهاب الدين يعود إلينا بينال
قائد الأعداء حياً. وإن شاء الله، لن يطلع الصباح حتى
تدخلوا برقة أمين مسالمين.

لم يصدق الناس قول أبي ركة حتى رأوا بأمر عيونهم
شهاب الدين الذي بادر إلى إزالة الدهشة عنهم، وقال:

- يا قوم، ها أنذا أووب إليكم، وقد نفذت بتوفيق من الله
فكرة إمامنا المفدى في القبض على قائد الحامية ورأس الحربة
ينال الطويل التركي هذا. وقد ساعدني وأنار طريقي إلى هدي
هذا الجندي الكتامي، الذي نكرني بزي كزيه، وكان من أول
اللاحقين بنا والناصرين لنا.

عاد أبو ركة إلى خيمته ولحق به شهاب الدين لاوياً على
سجينه. فكان على الرجلين أن ينظرا في مصير هذا الأخير، وفي
إمكانية تسلم مواقع الفاطميين داخل المدينة من دون إراقة
دماء، سأل شهاب الدين ينال قائلاً:

- إنك ولا شك تريد أن تبقى على قيد الحياة.

فردَّ ينال بصوت متهدج يفصح عن انهياره:

– لا رغبة لي في الحياة إطلاقاً طالما أنني بينكم في حالة اعتقال.

– تبعث بأمر الاستسلام إلى جنودك فنخلي سبيلك.

– لن يقتنع جنودي بهذا الأمر إلا إذا بعثتم إليهم برأسي مقطوعاً، طرَّبِ الدم. أما إن أترتم إخلاء سبيلي، فلن يكون مؤداه إلا موتي بتدبير من الحاكم بأمر الله.

– تعطي الأمر وتبقى بيننا محمياً مصاناً.

– بينكم وبينني مسافات تعمرها المهالك.

– وكيف ذلك يا معاند؟

– أنتم مغاربة وأنا تركي، وأنتم كالترك ترومون القوة والسلطان، ولا أرى الغلبة إلى جانبكم، بل مع أبنا قومي الآتين.

– خسئت يا منبئء السوء، هل تريد ليدي أن تسبقني إلى صرعى حالاً؟

– ليتك فعلت! فهل تريد أن أطم سيدك أو أبادره ببصقة حتى تعجل بي؟

خرج أبو ركوة من صمته وقال مقطباً متذمراً:

– أما اللطمة والبصقة فلم أرهما في منامي.

ثم تناول سيف شهاب الدين، وضرب به عنق ينال ضربة طوحت برأسه قريباً من الجموع على مخرج الخيمة. وظل كل من شاهدوا الحادث مذهولين مذعورين، وكان شهاب الدين أشدهم ذهولاً وذعراً، فقال متمتماً مرتبك الثغر:

– أنت فعلت ما نراه؟ وببيديك الكريمتين فصلت رأساً

بعنف لم أره من قبل؟ والله لم أكن أتوقع منك هذا، وستبقى معرفتي بك على وجه دون آخر.

قال أبو ركوته وهو يمسح السيف من الدم ويعيده إلى صاحبه:

– أفعل هذا وأكثر مع كل من أغلق الأبواب كلها في وجهي، ولم يترك له منفذاً. والآن خذ الرأس الملعون وابعث به إلى جنود الفاطميين المحصنين، وارفقه ببطاقة تعرض عليهم الاختيار بين الاستسلام الفوري أو الموت المحقق.

– لن يطلع الصباح حتى يكون لك ما تريد ونريد بحول الله.

كان هذا ردّ شهاب الدين قبل أن يخرج متعثراً الخطى لتدبير أمر وصية الامام. وبعد أن عرض الأمر على كل الشيوخ، أشاروا عليه بطلب تطوع رجلين لأداء المهمة، مصحوبين بالجندي الكتامي مساعداً ومرشداً. وتطوع رجال كثيرون، فكان على شهاب الدين أن يختار اثنين من أشدهم بأساً وحنكة، واحداً من قبيلته والآخر من زناته.

لم يمض على زهاب البعثة سويحات حتى عاد أعضاؤها مصحوبين بكل جنود الفاطميين وهم يرفعون أيديهم، ويلوحون بالخرق البيض، ويطلبون الأمان. كان استسلام هؤلاء موافقاً لوقت السحر. ولما أطلت الشمس في مهد مشرقها ببواكير أنوارها، شاع الخبر في كل المعسكرات، فانضم مجاهدوها إلى معسكر الامام، وسادت أجواء من الفرحة العارمة، كل يطير بها على هواه، هذا الفريق يضرب على الطبول ويזمر، والثاني ينشد ويغني، والثالث يرقص ويتلاعب بالسيوف والعصي. ولم تهدأ هذه الفوضى الجامحة إلا بعد أن رأى المجاهدون أبا ركوته ممتطياً فرسه يردد بصوت عالٍ: «الله أكبر!»،

فيكبرون معه مراراً بصوت واحد مرعد، ثم أصغوا إليه في خشوع وهو يقول:

– يا قوم، الحمد والشكر لله الذي صدقني الرؤيا، ويسر لنا أول النصر هبة منه سبحانه. ونحن اليوم أكثر من أمس «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه». برقة معبرنا، فلنطأها آمنين مؤمنين، لا غازين ولا غاصبين. برقة مرآتنا نبث فيها للقريب والبعيد آيات عدلنا وتقوانا. ألا فادخلوا المدينة أفواجاً أفواجاً، وانتظموا على أرضها الحمراء بين الأهالي في دوائر العون والاغاثة والاصلاح، وتعالجوا بزيتها وتربتها الغبراء شفاءً لكم ورحمة، وتهيأوا ما استطعتم لمعركة الحسم في مصر ضد الطفافة الفواطم. أما السجناء فهم أحرار إن قووا صفوفنا وحاربوا معنا، أو هم رهائن نبادل بهم من أراد اللحاق بنا من معتقلي الحاكم بأمره.

تعاليت من صفوف المجاهدين كلمات الطاعة والتأييد، ثم امتطوا جميعاً خيلهم وانطلقوا الى أرجاء برقة، يتقدمهم أبوركوة وكل الشيوخ. ولما بلغوا أحياء المدينة وساحاتها، استقبلهم الأهالي بعرس مشهود، عبرت فيه كل الفئات عن فرحها الفياض بالتحير والانعتاق. وكان أبوركوة في طليعة موكبه يلقاه الرجال بالأمداح والتهنئات العاطفية الحارة، والنساء، بالزغاريد المتواترة والرشق بالورود الفياحة. كان المشهد مؤثراً حقاً حتى أن أبوركوة لم يستطع حبس دموعه، فمال على شهاب الدين قائلاً:

– إن هؤلاء الناس يطوقونني بمشاغرة حب لا أقوى على استحقاقها، ويقلدونني مهمة قد لا أطيقها، والآن إلى أين المستقر؟

أجاب شهاب الدين وبسمة الابتهاج تعلقو محياه:

- إلى حيث يليق المقام بالامام، إلى دار الامارة بالطبع والتأكيد.

- دار الامارة؟! ما شاء الله! رمنا التواضع والبساطة، وما نحن على بوابة الأبهة والتعقيد.

لما وصل الموكب أمام دار الامارة، ترجل أبو ركة وهول إلى داخلها متبوعاً بخدمها وبالشيوخ. وفي أقرب بيت مفروش استقر جالساً، وخاطب أتباعه مقتضياً:

- أيها الشيوخ الأماجد! ما تبقي من هذا اليوم المبارك قضوه لراحتكم وتجديد قواكم. وغداً، إن شاء الله، نظموا أحوال جنودنا ونشاطهم داخل المدينة وخارجها. وبعد غد، نصلي كلنا صلاة الجمعة، شاكرين ربنا، مجددين عهدنا على ما نريده من خير وعدل لأمتنا المسلمة. وسلام الله عليكم.

ومن بين الحضور هتف صوت جهوري لشيخ مهيب قائلاً:

- السلام على مقام الامام الجليل أبي ركة، وأهلاً بك وسهلاً في هذه المدينة المباركة، هذه المدينة التي دعوتها إلى الخير فاستجابت، وإلى الاصلاح فلبت وأيدت. وما هم رعاة هذه الدار قد أعدوا لك ولصحابتك أكواباً من لبن برقة وأطباقاً من تمرها احتفاءً بمقدمكم المظفر السعيد، فلا تردوهم قبل أن تتناولوا ما بأيديهم.

تقدم كبير الخدم إلى أبي ركة بالتمر واللبن، فأخذ هذا منه اليسير، ثم أقبل كل الحضور على ما بالأكواب والأطباق بكثير من الاستساغة والنهم. وقام أبو ركة وتقدم صوب

الشيخ المرحب به وسأله عن اسمه ومكانته، فأجاب باقتضاب ووقار:

- أنا زيدان المزاتي، ومزاتة، كما تعلم أيها الإمام، من البرابرة المعربين. وبرقة هذه مكان ولادتي ومقامي، لم أغادرها إلا مرة واحدة لأداء فريضة الحج، وإني بين سكانها أفتي بالمذهب الحنفي، وأرسخ ذكر الله رغم أنف الحاكم الفاطمي وشيعته المردة..

قال أبو ركة وعلامات التأثر بادية عليه:

- بوركنت أيها الفقيه العادل، وبارك الله في نباهتك وعلمك. رجائي أن تبقى قريباً مني، لتعينني على نصره كلمة الله وإظهار الحق وإزهاق الباطل.

ردّ الشيخ وهو يشيع أبا ركة إلى غرفة نومه:

- غداً، بحول الله، أعرفك على قبر الصحابي رويغ طيب الله ثراه، ثم أعاهدك هناك على العون والاخلاص.

*

في الساعات الأولى من صبيحة أول جمعة لجمادى الآخرة، رافق أبو ركة الشيخ المزاتي للترحم على روح الصحابي رويغ، واستمع من رفيقه إلى كلام مؤثر في العدل والتوحيد، وفي وجوب الجهاد ضد الظلم والجبروت، ثم تلقى منه عهد المبايعة والولاء. وبعد هذا قام الرجلان وتوجها إلى الجامع، فألفياه غاصاً عن آخره بالمصلين، وأديا معاً بعض النوافل قبل أن يقعدا لتبادل الكلام في ما يناسب المقام من أحاديث نبوية وآيات قرآنية.

ولما انتصف النهار بقليل، ألقى خطيب الجامع خطبة أبدل

فيها اسم الحاكم الفاطمي باسم الإمام أبي ركوة، منوهاً
بخصاله الدينية الحميدة وداعياً له بالنصر والتمكين. وما أن
انتهى حتى اقتعد أبو ركوة المنبر، فخيم على الجمهور صمت
رهيب لم يقطعه إلا صوته مجلجلاً مدوياً بين أبهاء الجامع وفي
صحنه، قال:

— الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهتد
إليه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

(...)

عباد الله!

«اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن
يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات
لعلكم تشكرون». صدق الذي لا حكم إلا له ولا احتكام إلا إليه.

ألا فاذكروا الله كثيراً، وأحضروه فيما شجر بينكم، يرفع
عنكم أسباب التنازع والشقاق، ويوحد قلوبكم وصفوفكم.
واذكروه هو الذي له العظمة كلها ولا يظلم مثقال ذرة. إنه
تعالى زادكم وقوتكم ضد من تخافونه وتخشون طغيانه، يمدكم
بثبات الصمود وفورة التصدي، ألا إني أذكره بكرة وأصيلاً،
وقياماً وقعوداً وعلى جنبتي. وأعوذ به من هذا الليل الفاطمي
الشاسع السواد، الكثير المذابح والفضائح. وأعوذ بالله ملبياً
طائعاً متطلعاً حثه على القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين
له كله. وأي فتنة أكبر من فتنة فاسدي النسب الفواطم، الذين
يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويعوضونه بحدودهم
الوهمية، وأقوالهم الهذيانية عن الأفلاك والموجودات، وهم لا

منزع لهم إلا تلويث رحاب العقل والصفاء، ولا غاية لهم إلا
تدجين البلاد والعباد بركوب الطغي والاهواء! وأي مروق عن
دين الله أكبر من مروق الحاكم الفاطمي الذي تأله وتجبر،
وأرهب الناس طغياناً وفتكاً، وساسهم بوساوسه، مسلطاً على
مصائرهم جفاف دماغه وزيف مزاجه!

(...)

عباد الله!

هذا الحاكم الفاطمي منكر كله، ينسى الله وما فعله بعباد
وتمود وفرعون. وترونه يفتك بالبعيد والقريب، والفقير
والصوفي، وبكل من رفع رأسه احتجاجاً أو سار يريد حباءه.
وكم من مؤؤودين بيديه المجرمتين ماتوا غصباً وظلماً! إن هذا
لهو العبث الأعظم! لا وعظ ينفع في الطاغوت ولا نصح.
وكيف ذلك وجلد الخنزير لا يندبغ!

عباد الله!

الذين يكتمونني يعلمون أنني أهدد الخنوع والهوان، لأنني
شيء من الجوع وكثير من الرفض. لا أقول إلا ما أمرني ربي
بقوله وهو خير القائلين: «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين».

والذين إذا ما صادفوني في المدائن تركوا طريقي، أو ولوا
راجعين، يهربون من غدهم، لأنني أذكر غدهم، وغدهم كثير
من الخوف وكثير من الموت.

في هذه الأصفاع وفي ما سواها تحت الحاكم بأمره، ما عاد
أحد يسأل عن المصير، وما مرُّ عام بخير. والبشر، كل هؤلاء
البشر، ليست حياتهم حياةً، وليست أرزاقهم إلا فتاتاً.

هل نظل، عباد الله، عرضة للمؤامرة الكبرى والحصارات،
نقيم سلفاً في أقرب المنازل إلى الهلك، متلفين أعمارنا في
الفجائع، معرضين عن حدود الله وحقوق الإنسان فينا،
مكتفين من الدين بالقشور والشعائر؟

(...)

حاكم وشيعته خدروكم وأحسنوا التخدير،
قد بثوا سموم الغدر والتخويف في مناطقِ اللحمِ بالتحريير،
واستقروا فوقكم، فوق خيام سبائكم...
قد عرفتهم وأتيت من كل جهاتهم إلى النقض .
فهل رأيتموهم يستهلكون خيرات هذه الأرض ،
ويرتادون أجواء اللذة والسلوان:

بالنكهة والاستنشاق،

واللمسة والاشراق،

ويقطفون ويبرقون؟!

هلا رأيتموهم فوق كل حقلٍ مغتصب من ترابكم،
يتجشأون ويحمدون واهب الأنعام والعطايا،
ويعيثون فيكم وفي آيات الله بغيا وخطايا؟!

(...)

لو رأيتم ووعيتم لتسابق المجاهدون منكم إلى خوض الحرب
ضد الطاغوت، أو لجمعوا الفقراء وقالوا لهم: الموت وراءكم
والعدو أمامكم، لاقتحموه بفل انتحاري، فأناروا لأفواج
القادمين المساري، ملين أمر الباري: «فقاتلوا أئمة الكفر،
إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون».

(...)

هكذا التففتُ التفافتُ شديداً حولَ وحدتكم

التففتُ وتجمهرت

قلتُ وكليّ تضرعُ إلى صاحبِ العزّةِ والملكوتِ:

أَنْ لِلْحَاكِمِ ضِدُّ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَنْ يَفُوتَ،

أَنْ أَنْهَدَامُ الْمَمَكِنِ فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ

الْمَتَمَكِنِ فِي أَهَالِيهَا بِالسَّحْقِ وَالْمَزَاجِ الْمَقُوتِ،

أَنْ لِلَّيْلِ الْعَهْدِ الْفَاطِمِيِّ أَنْ يَمُوتَ.

وَذَلِكَ النَّيْلُ قَادِرٌ أَنْ يَطْهَرَنَا مِنْ بَرَاثِنِ هَذِهِ الْغَمَةِ.

رَبَّنَا مَكَّنَّا مِنْ لَمْ شَتَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ،

رَبَّنَا أَعِنَا عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ سَرَادِيْبِ الْعِجْزِ وَالظُّلْمَةِ

(...)

وَأَنْتُمْ يَا مَغَارِبَةَ الْعِزِّ وَالذِّكْرِ التَّلِيدِ، إِنْ لِي لَا أَرَاكُمْ، وَحَقُّ

فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَمَبْدَلِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا مَسْتَحِيلِينَ عَلَى كُلِّ طَاغِيَةٍ

عَنِيدٍ، تَشْقُونَ عَصَا الْخَنُوعِ وَالتَّبْلِيدِ، وَتُعَدُونَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

قُوَّةٍ: لِاسْتِنْصَالِ شَافَةِ الْمَنْكِرِ وَالْأَزْمَةِ، وَلِصَّرْعِ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوِّ

اللَّهِ. وَإِنْ قَلْتَ غَيْرَ هَذَا أَوْ وَعَدْتَ بغيره فَقَدْ لَغَوْتَ، لِذَا دَعَوْتُ

كُلَّ الْعُنَاصِرِ الْحَيَّةِ أَنْ تَعْلُوَ فِي الْوَحْدَةِ الْكَبْرَى. وَإِنِّي لِأَسْمِيهَا

شَعْلَ الْبَحْرِ. وَأَقُولُ لَهَا تَأْجِجِي يَا شَعْلَ الْخُلَاصِ وَالغَيْثِ،

تَأْجِجِي بَيْنَ الضُّلُوعِ وَفِي الْعَيُونِ وَالرُّؤُوسِ. ضُمِّي أَشْبَالَ أُمَّتِنَا

ضُمِّيهَا، طَيُوراً مُشْتَعَلَةً صَيَّرِيهَا، نِسَاءً نِسَاءً ثَائِرَاتٍ، رِجَالاً

رِجَالاً أَشْدَاءَ.

(...)

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُرِيدُهُ وَنُرُومُ: حُدُودَكَ بَيْنَنَا وَحَقُوقَ

الْإِنْسَانِ الْكَادِحِ إِلَيْكَ كَدْحًا.

«رَبَّنَا لَا تَرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ أَنْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً.»

«ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».
«ربنا وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة».
«ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».
«ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرنا عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار».
«سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين.
والحمد لله رب العالمين».

*

كان المصلون في أثناء تضرعات أبي ركوة يرددون «أمين» بصوت واحد يتأرجح بين هدير المد وخفوت الجزر. وبعدها نادى المؤذن للصلاة، فأداها خاشعين خلف الامام المصلون الذين امتلأت بهم حتى سطوح الجامع وكل الرحاب المجاورة. ولما انتهت الصلاة وأراد أبو ركوة اللحاق بدار الامارة، كان لا بد له من اختراق صفوف المزدحمين الراغبين في رؤيته أو مصافحته والدعاء له. وقد قضى وقتاً طويلاً وهو يشق طريقه مبتسماً، مسلماً وشاداً على الأيدي تلو الأيدي. وكان شهاب الدين يتبعه وعيناه تحملقان في كل اتجاه، ويده على سيفه. لم يصل أبو ركوة ومرافقوه إلى دار الإمارة إلا بعد جهد جهيد، وما أن دخلوها حتى أقبل عليه شهاب الدين معاتباً، وقال:

– أيها الامام، كيف تحتك بتلك الجماهير الغفيرة ونحن غير واثقين بها، وتخاطر بحياتك ونحن في أول الطريق؟
قال أبو ركوة وهو لا يزال يتصبب عرقاً ويسترد أنفاسه:

– الآن وقد اجتزت هذا الامتحان، لنا أن نقول بأننا قد وثقنا بالناس بعد أن وثقوا بنا، فكان هذا مصداقاً لقول ولي

من أولياء الله: «في المخاطرة جزء من النجاة»... أه كم في
نفسى أن أخلد إلى خلوة، أناجى فيها ربي واستفتيه في ما
سلطه علي من أحداث ومهام!

قال شهاب الدين محتجاً:

- لك ذلك بعد أن تأكل وتقتات، فإن لمعدتك عليك حقاً.
- إن نصيبي من الغذاء سيبقى هو هو وإن مكنا الله من
الأرض كلها. فابعث لي به إلى خيمة تطلب من أهل هذا القصر
أن ينصبوها لي على سطحه.

- - خيمة! تدخل قصراً وتسكن خيمة في سطحه! ما
أعجب ما أراه منك! ألا تعلم أن الملك يؤخذ كله أو يترك كله؟
لقد دخلت هذه المدينة منتصراً، وقطعت الدعوة الفاطمية من
الخطبة، ولعنت الحاكم وأباه، فما يبقى عليك إلا أن تتلقب
اليوم بلقب وتعين حاجباً وتضرب السكة.

- قل للقوم أن يلقبوني بلقب «الثائر باسم الله»، إن
شاءوا، واطلب من كبير رعاة هذا الدار أن يدخل عليّ بمن
أراد ملاقاتي، إن شاء. واضرب أنت السكة باسمي، إن شئت.
أما ما أشاء أنا فخيمة في السطح، والدار هذه دار الله،
يسكنها من لا مسكن له، بدءاً بالدرأويش والمعطوبين الذين
مهدوا هذه المدينة وفتحوها لنا فتحاً.

وضرب شهاب الدين كفا بكف وقال منصرفاً:

- ما شاء الله، ما شاء الله! سيكون لك ما تريد!

*

قضى أبو ركة زهاء شهرين على النحو الذي ارتضاه
لنفسه، فكان لا ينزل من خيمته إلا ليوم بالمصلين، أو ليقضي

بالعدل في النزاعات المستعصية. وكان من حين لآخر يتفقد بنفسه أحوال الرعية والجنود للتحقق من صحة التقارير التي تصله في شأنها. وبقدر ما خامره شعور التفاؤل بحياة الناس وتحسن حقوقهم، بقدر ما ساوره قلق من تحرشات بعض الفئات في الجيش، التي ملت موقف الانتظار واللاحرب، واستخفت بضعف الغزوات والمغانم. وفي متم الأسبوع، بينما هو يفكر ويتدبر الحيل لطمأننة المجاهدين وتمنياتهم، إذ دخل عليه أبو المحاسن وشهاب الدين لإبلاغه بأخبار تقدم عسكر الحاكم الفاطمي نحو شرق برقة. قريباً من ذات الحمام، فهتف قائلاً:

– الحمد لله والشكر له! هذا خبر مفرح يثلج صدري ويرفع عني غمة أزعجتني طوال هذه الأيام الأخيرة.
قال أبو المحاسن مؤيداً:

– الحق ما تقول يا أبا ركوة، جيشنا، ككل الجيوش، كأنه لم يخلق إلا ليحارب، ولا يحارب إلا طمعاً في النصر والمكاسب. فعلينا الآن أن نعدّ له العدة من أجل أن يخوض غمار ما خلق له، والله المستعان.

وعقب شهاب الدين بلهجة حازمة مقررة:

– جيشنا لم يحارب حتى الآن إلا على جبهة الملل والأعمال الصغيرة. ولن يكون لفرحتنا شأن إلا بعد أن يحقق أول نصره على جيش قوي مثل الجيش الذي يتقصدنا.

استقام أبو ركوة واقفاً، وقال أمراً:

– إذن اتفقنا ولا سبيل للمزيد في الكلام. انزلا إلى القوم، وتدبروا معهم ومع كل حلفائنا أمور المواجهة والقتال. قولاً

لهم: عليهم بغور الآبار والاستعداد لحرب التطويق والتناوب في الهجومات الخاطفة. ولا يرجعن أحدكما إليّ مستقبلاً في أمر ذي خطر إلا مصحوباً بشيخ أو شيخين من زناتة.

لم تمض ساعة على هذا الأمر المصحوب بالانذار حتى عاد أبو المحاسن ومعه شيخان زناتيان، وقال:

– أيها الامام. كل شيء على أحسن ما يرام. قد هيأنا العدة، ونظمنا المشاة والخيالة صفاً صفاً، فلا ننتظر منك إلا إشارة الانطلاق. ورجاؤنا جميعاً ألا تشارك بنفسك في هذه المعركة القريبة حتى لا يصيبك مكروه ولا نفقدك عبثاً.

قال أبو ركوة غاضباً:

– ويحكم، هل جننتم! أتجمعون على ما لا أرضاه وأبتغيه. أما علمتم أن لا إمامة لمن ظل محتماً وراء الصفوف؟ أنسيتم أن الأعمار كلها بيد الله!

قال أبو المحاسن مهدئاً هائجة الامام:

– إنه الاجماع يا أبا ركوة، ولا ضير أن تقبله ونحن في أول الطريق إلى الديار المصرية. وقد كنا مضطرين إلى اقراره لسبب تقدم به الزناتيون. وكلفوا هذين الشيخين منهم لإطلاعك عليه. وإني أترك معهما وسأرجع إليك بأخبار النصر إن شاء الله.

ما أن انسحب أبو المحاسن حتى اقترب أبو ركوة من الشيخين مبتسماً ملاطفاً، وقال:

– ما وراعتك يا حمو؟ وما الخبر يا يحيى؟ الخير كل الخير، أليس كذلك؟

أجاب يحيى مقتضباً:

- بلى أيها الامام، أما ما نريد إطلاعكم عليه فهو أننا نحن الزناتيين أكثر الناس حرصاً على حياتك وسلامتك، لأنك مرجع وحدتنا مع عرب بني قرة وضامننا. وقد زاد حرصنا هذا بعد أن خفنا من افتضاح سر لنا في القتال، ما كنا بدونه في الماضي نقوى على الصمود أمام خصومنا.

قال أبو ركة مقاطعاً متعجباً:

- أي سر الذي تتحدث عنه؟ هل أعدتم الكرة إلى علائق الاحتراس والتوجس وسوء الظن؟

قال حمو موضحاً:

- يا أبا ركة، إن لنا اليد العليا في معرفة مواضع المياه السطحية والجوفية بنواحي برقة. ولنا في إخفائها عن عيون الأعداء طرق فعالة لا يحسنها غيرنا. هذه الطرق نريد اليوم استعمالها في المفازة الفاصلة بيننا هنا وبين ذات الحمام، وذلك حتى نسلط العطش المرير على العدو قبل مواقعه، ولكن برجاء بقائك حياً بين هذه الأقسام، الذين ألفت بين قلوبهم ووقفت على وحدتهم شاهداً ووكيلاً.

ضرب أبو ركة كفاً بكف وقال مستسلماً:

- يخاف القوم عليّ من سهم طائش يقتلني، ولا يفكرون أنني قد أموت على فراشي بأمر من بيده كل الأرواح! لكن ما حيلتي وقد سيجوا بإجماعهم عدولي عن رفع سيفي في ساحة الوغى. والآن اذهب، وليفعل كل مجاهد ما يحسنه، وإني سأكون على مشارف المفازة التي تذكر أن، أراقب المعركة عن كئيب، وأنتظر بقلب خفاق لوائح النصر منكم ومن الله.

*

ظل أبو ركوة في خيمته يقتعد حصيرته ويهدىء اضطرابه بالدعاء والتوسل إلى مولاه أن تسيل الدماء قليلة في صفوف المجاهدين، وأن يتم أسر الكثير من الأعداء. ثم ما لبث أن توجه رفقة حراس إلى ربوة مطلة على ساحة العراق، وظل فوقها يغدو ويروح، ورأسه يعج بمشاهد التطاحن؛ وينصدع بوطيس جعجعته ولهيب جحيمه. ولم يكن يتلقى بعض الانشراح الا بتركيز ذهنه على أتباعه وهم يتنافسون في الإيقاع بالعدو وهزمه. فهؤلاء يشتون شمله ويديرون عليه الدوائر. وأولئك يقنصونه محصنين أمنين، وآخرون يستدرجونه إلى الماء وقد حولوه إلى سراب فيأسرونه أسراً.

وبينما المشاهد تتوالى على عيني أبي ركوة، إذ أتاه شهاب الدين ويحيى وحمو يبشرونه بانتصار المجاهدين على جيش الحاكم انتصاراً ساحقاً، ويقطع طرق انسحابه بحيث لم يفر منه إلا القليل. قال حمو بحماس واندفاع:

– لقد أذقناهم عذاب الظم الذي لن يعرفوا مثله إلا يوم يبعثون لسعير جهنم. وكنا نلقاهم بسيوفنا، وألسنتهم خارج أفواههم تلعق العرق وهي أعطش من الرمل.
ردّ أبو ركوة معاتباً:

– استغفر الله يا هذا، وقل بأنكم أبلتكم البلاء الحسن. يا شهاب الدين، لقد أبلت زناته البلاء الحسن، أليس كذلك؟

قال شهاب الدين وقد وعى مقصود الامام:

– بلى يا أبا ركوة، وقد فعل مثلهم كل مجاهدين الذين مكّنونا بعونه تعالى من نصر مبين. فالمغانم كثيرة، ولا يزال الرجال الأكفاء يحصونها ويهيئون توزيعها، وخسائر العدو في

أجناده ألف بين قتيل وجريح، والأسرى ألفان ويزيد وعلى رأسهم القائد التركي ينال الطويل.

- ينال الطويل؟! كم عندهم من ينال؟ هل هو غير الذي هلكناه قبيل دخول برقة ظافرين؟

- ينال الذي تشرف بموته على يدك لم يكن سوى جندي بئيس، خدعنا بانتحاله لصورة سيده ينال الحقيقي، حتى يمكنه من النجاة منا. وقد أفلح في هذا لعنه الله.
- سنرى هذا الأمر بعد أن تحدثني عن عدد قتلانا وجرحانا.

ظل شهاب الدين واجماً لحظة، ثم تدارك غضب سائله قائلاً:

- قليل هم والحمد لله: مائة وعشرون مجاهداً موعودون للجنة، وواحد وخمسون جريحاً من بينهم.
- من بينهم من؟

- أبو المحاسن أيها الامام، إنه قد أصيب بطعنة بليغة غادرة في الظهر. وقد تركناه طريح فراشه محاطاً بأمر مطبينا.

- اللهم لطفك يا رب! خذوني إليه حالاً، ثم اذهبوا وابلغوا أمري بالسهر على علاج كل الجرحى وبالرفق بالأسرى.

هرول أبو ركوة خلف الرجال الثلاثة في اتجاه مقر أبي المحاسن. ولما وصل باب به بادره كبير المطبين بكلمات في أذنه: «حالة الجريح خطيرة وقد بذلنا ما في جهدنا لإيقاف نزيف دمه، فاطلب له اللطف من الله يا أبا ركوة». وأشار الإمام على الحاضرين بالذهاب إلى شؤونهم، ثم جلس قريباً من أبي المحاسن واضعاً يده تارة على جبينه وأخرى على

صدره، وقال حابساً دموعه:

– ليس هذا وقت توديعنا يا أبا المحاسن. فحاجتنا إليك ما زالت عظيمة وتعويلنا عليك ليوم معركة الحسم.

وقاطعه أبو المحاسن متمتماً:

– أستغفر الله يا أبا ركوة. ألم تقل مع القائلين: الأعمار

كلها بيد من له الحول والقوة؟

– أستغفر الله ونعم الوكيل. صدقت أيها المؤمن النبيل،

فاعذرنى واعذر خوفي من تضييعك وأنت بينا ركن ركين،
نهتدي بنضيح رأيك ومحكم فكرك.

– أحمد الله أن أنعم علينا بهذا النصر، كما أحمده أن

كتب عليّ الشهادة مع أول المستشهدين. وما وددت إلا ما ودّ

النبي عليه السلام: أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيأ

فأقتل ثم أحيأ فأقتل. ولك العزاء عن غيابي المحتوم في شهاب

الدين إن ضببت جموحه وفي رجال زناته وبني قره وفي

اللاحقين. فأحط نفسك بهم، وتعزز بوحدتهم وتأخيهم، تنل

مرادك، وتجعل لخير سلف خير خلف، وأنا لله وإنا إليه

راجعون.

وما أن أتم أبو المحاسن كلامه هذا حتى أخذ يكرر

الشهادة ويتبادل العناق مع أبي ركوة إلى أن شهق شهقة

وأسلم الروح. وظل الإمام هنيهة يرسل دمعاً حاراً، ثم قام

وخرج على القوم بعينين محمرتين، ومال على يحيى قائلاً:

«اطلب من يعينك على دفن الشهداء المقتولين في المعترك كما

هم وعلى غسل جثمان أبي المحاسن ومن مات مثله حتى نصلي

عليهم، إن شاء الله».



مر يوم فيومان على وفاة أبي المحاسن، وأبوركوة في خيمته يتلقى التقارير تلو التقارير من مساعديه، ويخرج بين الفينة والأخرى للتأكد مما ترويه من بشائر الخير والنعمة. ليس بين الأهالي فحسب، وإنما أيضاً بين المجاهدين الذين ارتفعت همهم، وفاضوا قوة وحماسة، وشرأبت أعناقهم إلى موعد حرب الحسم. وكان كلما سأل هؤلاء عن هذا الموعد والحواء في السؤال، يجيب مهدئاً مازحاً: «الصبر عندكم أعز من مخ البعوض. فوالله لن تظفروا بتمرة الغراب وأنتم ميالون إلى فرصة العجزة». ويسألونه: «وما فرصة العجزة؟ أبقاك الله»، فيرد: «إنها العجلة!». ويخلون سبيله وهم يرددون منشرحين: «إمامنا يعلم من أين تؤكل الكتف».

*

كانت الشهور الزاخرة بالأحداث تتوالى بسرعة لم يعهد لها أبوركوة. فكل شهر كان يأتيه بمستجدات يتلقاها بالتفكير والإمعان، ويكتب بإيعاز منها الخطرات تلو الخطرات. وذات ليلة من رمضان سنة ست وتسعين وثلثمائة، بينما هو منكب على القراءة والتدوين، إذ تسلل إلى خيمته رجل مدجج بالسلاح، قوي البنية، جميل الحيا، فبادر إلى التسليم عليه والجلوس قريباً منه، وقال:

— لا تؤاخذني ايها الإمام على طريقة زيارتي لك هاته، ولعلك تعذرني إن علمت فحواها ومقصدها.

قال أبوركوة وهو أبعد ما يكون عن الخوف أو الإنكار:

— خيراً إن شاء الله يا فتى! قل لي أولاً من أنت ومن أين

أتيت؟

— أنا علي بن الحسين بن جوهر الصقلي.

– هل تكون ابن قائد القواد في جيش الحاكم؟

– ابنه بالذات ورسوله إليك يا أبا ركوة، وإني لم أت إلى برقة بل كنت فيها قبلك، أرعى مصالح أبي وأتظاهر بخدمة الحاكم كقائد لحاميتها. ولما دخلتها وجيشك منتصراً، اختفيتُ في مطمورة بضعة أيام أفكر في أمري وأتدبر المخرج. ويوم خرجت متفكراً في زي متسول، كنتُ قد عقدت العزم على اغتياك والهرب إلى مصر.

– كيف تفتالني وبين الحاكم وأبيك شنان وبغضاء؟
ولحساب من أردت أن تقوم بهذه الفعلة النكراء؟

– لو كنت فعلت ذلك، لا قدر الله، فليس تقرباً إلى الحاكم الذي أكرهه وأمجّه كباقي الناس، بل لرفع الشكوك والشبهات التي يحيكها جواسيس الحاكم حول تعاون أبي معك سراً وتشجيعك على دخول مصر.

– وماذا دهاك عن انجاز منكرك؟

– خطبتك أيها الامام! إنها كلماتك التي نزلت عليّ برداً وسلاماً، وأيقنتني أنك إمام الحق والصادق الصديق. ولما ختمت، غادرتُ المسجد نكرة وأنا أشتم نفسي وأقول إن قتلك قتل الصالحين المصلحين حرام، وأي حرام! ثم أخذت فرساً من أحد أعواني السابقين، وانطلقت عليها إلى حيث يعسكر أبي بضواحي القاهرة، حتى أخبره بمناقبك وخيرك. واليوم ها أنذا أعود إليك محملاً بكتاب منه وتزكية من صهره قاضي القضاة عبدالعزيز بن النعمان، وإنه يسلم عليك فيه، ويدعوك إلى التعجيل بفتح مصر وقلب حكم الطاغية المغضوب عليه، ويعدك بعون الصقليين والكتاميين جميعهم وبكل الأجناد الداخلين في طاعته.

تناول أبو ركة الكتاب من زائره، ونظر فيه بعناية وتمعن،
ثم قال:

– الليل الآن متقدم، والتعب باد عليك، فاتركني صحبة
كتاب أبيك، وانزل في غرفة تختارها لتنام قليلاً، وغداً، إن شاء
الله، لك أن تحضر بين قادة مجاهديننا في اجتماع التهييء
لفتح مصر، فإذهب يا علي، صاحبك السلامة.
– سمعاً وطاعة أيها الإمام، وإني غداً انتظر إشارتك
للمثول في اجتماع اليمن والتخطيط.

خرج الزائر متسللاً كما أتى، وأقبل أبو ركة على مطالعة
كتاب ابن جوهر، ثم أطفأ الشمعة واستسلم للنوم.



مع طلوع صباح اليوم التالي، وكان يوم خميس، أتى
أبا ركة خبر مقتل القائد السجين ينال الطويل على يد شهاب
الدين، بعد مشاكسة كلامية حادة بينهما. وفكر الامام لتوه في
استدعاء هذا الأخير وتوجيه لوم شديد اللهجة إليه على ما بدر
منه، لكنه عدل عن ذلك وأطفأ غضبه مراعاة لوحدة الصف
واقتراب موعد معركة الفصل. وبينما هو يفكر إذ دخل عليه
شهاب الدين، متوتر الأعصاب، محمر الوجه، فسلم وقال:

– لا شك أيها الامام أنك قد علمت بما حدث في فجر هذا
اليوم، وعذري في ما فعلت بينال الملعون أنني خفت أن يفلت
منا مرة ثانية، فيصير كحماد الماضي ونفره شوكة في أقدامنا أو
حجر عثرة أمام تقدمنا. وما كنت أروم إلا بتر ساقه، غير أنه
قدح في إمامك ورماني ببصقتين قائلاً: «الأولى لك، والثانية
لإمامك المزيف»، فلم أستسغ الإهانة، وثارت ثائرتي، فناولته
سيفاً، وتبارزنا مدة إلى أن بادرت بطعنة في بطنه وبأخرى في

رأسه شقته شقاً، فخر غارقاً في دمه النجس المنحوس.

قال أبو ركة محاولاً تهوين الموقف:

– حماد الماضي شوكة في أقدامنا، والله لقد صدقت. هل فكرت كيف نكسر هذه الشوكة؟
– بالحيلولة دون تأخير سيرنا.

– علينا إذن بالإسراع والتعجيل بمعركة الحسم، أليس كذلك؟

– بلى يا أبا ركة! فالوقت الآن سلاح خطير الشأن، إما نغتنمه فنقطع به وننجز، وإما نضيعه فنقطع به ونهلك.

– والسجناء المتبقون، ماذا ترانا فاعلين بهم؟

– كلهم ميالون إليك، كلهم آثروا أن يعززوا صفوفنا بدل الرجوع إلى مصر حيث ينتظرهم موت محقق.

– ومع هذا فأطلق سراح من أراد من المعطوبين الالتحاق بذويه وأقاربه... والآن عد إلى القوم واخبر الشيوخ بأني بعد صلاة العشاء لهذا اليوم أنتظرهم في خيمتي لنتشاور جميعاً في حربنا المقبلة. ولا تنس استدعاء حمو ويحيى. فانطلق واطلب لي الشيخ زيدان المزاتي.

ما أن غاب شهاب الدين مدة حتى دخل على الإمام الشيخ المزاتي مسلماً، متلقياً من مضيفه كل الترحيب والتقدير. وظل الرجلان مقتعدين الحصر، يعبان كؤوس الشاي الأخضر، ويتجادبان أطراف الحديث في مواضيع شتى: في المذاهب الفقهية السنية، وفي الشيعة والاسماعيلية، وفي الحاكم الفاطمي وهل يجوز تكفيره.. وكانت نقط الخلاف بين الرجلين تطفو من حين لآخر على سطح الكلام، ومنها مثلاً أن الشيخ

المزاتي الحنفي النزعة كان كثيراً ما يأسف لتوزع أهل السنة إلى فرق ومذاهب، ويقول:

- الأئمة في الاسلام يا أبا ركوة رجال مثلنا ولنا أن نجتهد كما اجتهدوا. ولأن أبا حنيفة النعمان قال هذا فأنا معه. وأما أتباع الأئمة وتابعوهم فقد أخطأوا في حق وحدة الدين لما تفرقوا وتمذهبوا، بل أتوا بالبدع والمنكرات حيث تراموا بالفسق والتكفير وتقاتنوا. فهل يعقل يا أبا ركوة أن يكون الحق واحداً وأن يذهب فيه المتلقون كل مذهب؟!

- الحق يا زيدان واحد، ورسالات الله لا تتغير، لكن الخلق كثير متكاثر وأحوالهم متحولة متبدلة دوماً، فهذا توزعوا ملأً ونحلاً، وداخل الملة الواحدة إلى فرق ومذاهب، فكان الاختلاف في التأويل وكانت الفتنة، وتلك سنة الله في عباده.

- إذا كان الأمر كما ذكرت، فلماذا لا تترك الحاكم الفاطمي وشأنه؟

- لأنه لا يتركنا وشأننا... وحتى لو تركنا خوفاً منا وتقية، لظل الجهاد ضده وضد دولته فرض عين على كل مسلم. إذ كيف نسكت عنه وقد لوث صفو الحياة ونكل بنفوس بني آدم التي كرمها الله؟ كيف نسكت عنه وقد تعدى التأويل إلى الفتنة، وجاوز الفتنة إلى القتل، وذهب الجنون به إلى التآله، فاستقر في الضلال البعيد؟ لا وحق رب المشارق والمغرب، الذي لا إله إلا هو، لأقاتلنه حتى يتخلص العباد منه، فتعود بينهم آيات العدل والعز والتكريم؛ وإن عجزت فالله وكيل ومحقق وعيده في المشركين: «ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق».

- نعم الجهاد جهادك يا أبا ركوة! وليكن الله في عونك،

وينصرك على القوم الظالمين. وإني معك بما تبقى من قوتي المتأكلة، أعطي الرأي تارة وأستقبل أفراحك أو همومك طوراً. - بارك الله فيك أيها الشيخ الجليل وأطال في عمرك. وبرقة، عرج بنا عليها وحدثني عنها قليلاً.

- لو تركنا جند الحاكم ورفعوا سيوفهم عنا لكننا أسعد الناس بأرضنا. فبلادنا هذه بلاد مباركة، حبا الله تربتها بمناقب لا توجد في غيرها، فهي في بعض البقع مع الزيت علاج لداء الحية والجرب والكحة، وهي في كل البقع حمراء بحمرة لطيفة، أرى أن ثيابك، يا أبا ركوة، قد نالت نصيبها منها، كما هو حال ثياب كل قاطنيها، ولا خلاص لك منها إلا إذا غادرت برقة ونواحيها.

- أهلاً بالحمرة وسهلاً، وإنها لحمرة حتى الفوز!

- أما الخضرة فهي تحيط بنا من كل جانب، فذلك الجبل - الذي تراه يعانق المدينة - يطل علينا بغابة عريضة من شجر العرعر؛ وتلك السفوح تنحدر مراعي خصبة ترتع فيها قطعاننا آكلة أمنة، وألسنتها تلهج بالشكر لله.

- أشجار العرعر والمراعي الخضراء، يا زيدان، حاضرة دوماً في سويغات خلوتي منذ أقمت على هذا السطح.

- والخضرة تمتد إلى العرصات شمالاً، حيث تكثر الثمار من الأترج والسفرجل والجوز، وتتناوب أصناف الفواكه على ملء الفصول جميعها.

- لو لم نكن على أهبة خوض حرب الحسم مع الحاكم الفاطمي لطلبت منك، يا أخي، أن تأخذني غداً إلى تلك العرصات لنقضي فيها اليوم كله نزهة وجولات، فعِدني بها إن كتب لنا النصر.

- إن كتب لك النصر يا أبا ركة ففهي لك، وإن لم يكتب
فلك أفضل منها وأعلى في جنات الخلد والنعم.
- صدقت يا زيدان... وماذا عن خيرات هذه الأرض
الأخرى؟

- إنها لحوم الذبائح الطرية، والعسل الحر والقطران
والصوف والقطن، وكلها خيرات يحملها جند الحاكم إلى مصر،
إما بأبخس الأثمان أو غصباً وعدواناً. وكانت قبائل برقة، من
عرب بني قرة وبربر زناتة ولواته وبربر مزاتة المتعربين، لا
تعرف لعدوها المشترك اسماً ولا لخيرات أرضها طعماً إلى أن
أرسلك الله إليها لتوحيدها في دينه، وتنصر بها كلمته على
الطاغية العنيد.

قال الشيخ كلماته الأخيرة ووقف قصد الانسحاب، فنهض
أبوركة، وشيع زائره إلى خارج الخيمة وهو يمسه من
ذراعه ويقول:

- لا تنس النزه التي وعدتني بها ما إن كتب لنا النصر، يا
زيدان. وزد على هذا أني أترجاك أن تؤمّ بالناس كلما تغيبت
لسبب من الأسباب. ولا تنس أن تحضر اجتماعي بمشايع
القوم ليلة هذا اليوم.

كان زيدان يطأطأ رأسه موافقاً، ويربت على كتف أبي
ركة مبتسماً داعياً له بالفوز والتمكين.



بعيد صلاة العشاء بقليل بدأ مشايخ القوم ورؤساؤهم
يتوافدون على خيمة أبي ركة، فيصافحونه ويقتعدون أماكنهم
مستلمين كؤوس الشاي ومتبادلين كلمات المجاملة والتواد.

وكان آخر الوافدين شهاب الدين وحمو ويحيى مصحوبين بعلي بن جوهر والشيخ زيدان المزاتي. فما أن سلموا على الامام وعلى الحاضرين واستووا في جلستهم حتى بادر أبو ركوته إلى الكلام وعلامات البشر تعلو محياه، قال:

- مرحبا بالسادة الاماجد، هذه ليلة عظيمة والله! ونحن هنا، كما تعلمون، نجتمع لننظر في آخر الاجراءات قبل انطلاق مجاهدينا الأبرار إلى مصر، ليدخلوها فاتحين لا غازين، ومبشرين بالعدل والتوحيد لا ظالمين ولا باغين. وقد صرنا الآن أكثر من أي وقت مضى مطالبين ببدء السير ودخول جهاد الحسم، متوكلين على الذي له العزة والملكوت، فالرقاع من المصريين تأتينا بلا انقطاع، وكلها تسجل تظلمات الأهالي من الحاكم المتجبر ونداءات استنجادهم بنا ودعواتهم لنا بالنصر والتوفيق. وهذا قائد القواد في الجيش الفاطمي، الحسين بن جوهر الذي تسمعون به ولا شك، قد أرسل إلينا بابنه علي، الذي تعرفتم عليه، وكلفه بتبليغنا آيات تآزره الصادق ودعمه الأكيد، وحمّله كتاباً قرأته، فأبيت إلا أن تعلموه حتى تروا ما يحيكه الحاكم من مؤامرات ضدنا، وما يعده لملاقاتنا. قال فيه بعد البسملة والحمدلة والتسليم عليّ:

«أيها الامام،

لقد جلت في مصر، ورأيت بأمر عينك طغيان الحاكم الفاطمي وعبثه بالبلاد والعباد، ويبقى ما رأيت وسمعته دون هول الخفايا والتفاصيل. وقد عرفت أهالي مصر الطيبين، يقاومون الظلم حين يقدرون، ويستقرون في الصبر والنكته حين يعجزون. وقد صاروا اليوم لا قوة لهم ولا حيلة في وجه الحاكم وأتراكه وعبيده. فحتى النكته لم تعد تجلب لهم إلا انتقامات

الطاغية المتبوعة بالمآسي والويلات. ويعز علي أيها الامام أن أرى الأهالي قد باتوا يعتصمون بالصمت والهمود، خوفاً من وقوع استنكارهم واستلطافهم على مسامع أو عيون جواسيس الحاكم المدسوسين في الدور والصفوف، حتى أن سموم التوجس والحذر صارت تسري بين أعضاء الأسرة الواحدة. ولئن بقوا على هذه الحال، ولو لعهد قريب، فسيصابون - لا قدر الله - بالمس والهوس، وبئس المصير!

أيها الامام،

إن شعباً كاملاً من المسحوقين والمذعورين يترقب رفع هذه الغمة على يديك، بإذن وعون من الله، وينظر إلى أسباب الخلاص في قدومك المبارك إلى مصر على جناح القوة والسرعة؛ وإننا معشر الصقليين مع الكتاميين جميعهم نبث بين الناس لوائح الرجاء فيك، ونستنهض همهم بالاعتماد والتعويل عليك معزراً بالذي له القوة والملكوت. ولكن بربك لا تجعل شعار التآني حجاباً على عينيك وقيداً في يديك، فإن في بعض الامهال إهمالاً؛ ثم حذاريك! فالحاكم الطاغية ليس عنك بمدبر ولا غافل، بل إنه طوال هذه الأيام في طلب الإيقاع بك مجدّ مثابر، لا يجتمع إلا بمن يريدون بك سوءاً، ولا توجد قريحته معهم إلا بالحيل والمكائد؛ ومنها أنه أصبح على غير عادته ميالاً إلى اصطناع العدل والحكم بالقسطاس المستقيم، فأمسك - قاتله الله - عن الفتك وسفك الدماء؛ ومنها أنه أمسى يستقدم من الشام جيوشاً من الصنائع والمرتزة ليحتمي بها منك، فيجزل لها العطايا والهبات، وينفق من أمواله وأموال الخزينة ولا يدخر. وإن أشد ما أخافه أن تنقاد إليه وتغتر بمكره النفوس الضعيفة أو اليائسة من الفرج والرخاء. وحتى لا يقع هذا

المكروه فيعم الانخداع والبلاء، أبعث إليك بابني حاملاً لك هذا الكتاب، وأناشدك فيه بالله أن تأتي إلينا بمجاهدك من غير تلكؤ ولا إبطاء، وأن تحقق ونحن معك وعد الله بالنصر على القوم الظالمين. وإننا منذ اليوم في انتظارك وجندك على أبواب مصر غرباً، نمهد المجال، ونوطيء المساعي، ونعدّ الزاد والعتاد، ونستجلب ما استطعنا من الفرسان والمشاة، ولا توفيق إلا بالله، عليه توكلنا وإليه المصير، وسلامه عليك وعلى صحبك وتابعيك». ويحمل الكتاب إلى جانب توقيع الحسين بن جوهري توقيع صهره عبدالعزیز بن النعمان القيرواني قاضي قضاة مصر.

أيها القوم،

هل بعد الذي سمعتموه من هذا الكتاب يحلو لكم الاسترسال في التجالس والتشاور؟ هل نبقي هنا من حلقة إلى أخرى نحول التآني إلى تقاعس والانتظار إلى إرجاء وتسويق؟ إنكم تعلمون ولا ريب أن الوقت سلاح ذو حدين، يخدمنا حين نحسن استعماله، وينقلب ضدنا حين نهمل فرصه وفضائله. فلنتعظ بالحكمة في إدارته وتطويعه لصالحنا، قبل أن يهجر دوائرنا وحظوظنا ويفوز به عدونا. ألا هل بلغت! فاذكروا رأيكم في ما نحن فيه حتى نبدأ السعي غداً أو بعد غد بحول الله وعونه.

خيم على الحاضرين صمت عميق كأنما يلمحون به إلى موافقة أبي ركة على أن الوقت وقت فعل وعمل، وليس وقت كلام وتناظر. ولم يكسر ذلك السكون إلا علي بن جوهري إذ قال:

- نعم الصمت صمتكم أيها السادة الأبرار! فوالله لقد أدركتم خطورة الأحوال في الديار المصرية، وكفاكم في هذا

الكتاب أبي الذي أتى بالقليل الدال، وأعفاكم من طول المقال، حتى تبادروا إلى شد الرحال وخوض فرصة الجهاد قبل فوات الأوان. فالمعول عليكم، ومقاتلو الصقليين والمغاربة برجالهم الألفين في انتظاركم على أحر من الجمر، والله الموفق للفلاح والتمكين.

قال أبو ركوه بصوت ملؤه الامتنان والحزم:

– بورك يا علي، وبورك في أبيك وبني قومك. والآن ما هي أعدادنا بالضبط وما هو عتادنا؟

بادر شهاب الدين إلى الرد:

– إن مجاهدينا، أيها الإمام، قد وصل عددهم هنا ببرقة وما جاورها ستة آلاف رجل، من بني قره وزناتيين ومزاتيين ولواتيين مختلطين، ألفان منهم من الخيالة والباقي مشاة. وهناك فرق صغيرة مدربة أحسن تدريب على الرمي بالحجارة والنبال، وفرق أخرى مختصة في شغل العدو بالمناوشات والمخادعات. وما عدا هذه الفرق فكل المقاتلين هم كما نعرفهم يحسنون حرب المصادمة والمنازلة المنظمة.

ثم تناول حمو الكلمة مضيفاً:

– أما عتادنا أيها الإمام فهو والحمد لله على ما يرام. فلكل مقاتل سيفه وخنجره ودرعه، لا فرق بين فارس وراجل، ولنا احتياطي من السيوف والسهام يكفي لحرب عدة أيام. وأما القوت والماء، فلن نعرف فيهما خصاصاً إن ظللنا على حالنا من التقشف والاقتصاد.

وسأل سائل من القوم:

– وجيوش الحاكم الفاطمي، ماذا نعرف عن أعدادها

وعتادها؟ عرّفونا بعدونا قبل ملاقاته جزاكم الله!

نظر الحاضرون إلى أبي ركوة، ثم إلى علي بن جوهر، فأجاب هذا الأخير مقتضباً:

– الجيش الفاطمي يا سادة، من دون الصقليين والمغاربة الكتاميين أنصاركم، ليس سوى غول من قش، متنافر الأطراف متضاربها، لا تجمع بينها إلا شهوة المال والطمع في العطيات. وهذه الأطراف من أتراك وروم وعبيد وغلماان الحمدانية وأجلاف البدو لا تفوق أعدادكم إلا بالضعف. وجيش كهذا، عديم العقيدة والإيمان، سوف لن ينفعه عتاده ولا طبوله وأبواقه يوم جهاد الفداء والحسم.

وتعالت من الحضور عبارات الثناء والمصادقة على كلام علي ابن جوهر، ولم يوقفها إلا سؤال سائل إذ قال:

– والمسلك إلى مصر حيث نروم المواجهة والصدام، هلا أطلعتمونا عليه حتى نتبين المسار ونقيس عبء الترحال؟
أخرج أبو ركوة من كفه خارطة، وقال وهو يسويها:

– لقد سألت بهذا السؤال العارفين منكم بأحوال المسالك من برقة إلى ضواحي الإسكندرية، فاستقر رأيي معهم على أن نسلك الساحل إليها، ثم منها إلى مصر حيث نخوض بحول الله معركتنا الأولى. ولن تتعدى مسيرتنا إلى غايتنا شهراً لا عسر فيه ولا إرهاق. وهذه الخارطة، التي أهداها إليّ الشيخ زيدان المزاتي مشكوراً، تدلنا على أهم مراحلنا نحو الاسكندرية، فخذها يا يحيى واقراً لنا ما فيها.

تقدم يحيى متثائباً وتناول الخارطة ثم قال وهو يصطنع النظر إليها:

- طريقنا إلى ضواحي الإسكندرية أيها الإمام يوجد في ذاكرتي بكل تفاصيله ومحطاته، فلا محيد لنا إليها من قصر الندامة، ومنه إلى تاكنست فمغار الرقيم فجب حليلة فوادي مخيل فجب الميدان فجناد الصغير فجب عبد الله فمرج الشيخ، ومنه إلى العقبة فحوانيت أبي حليلة فخربة القوم فقصر الشماس فسكة الحمام فجب العوسج، ومنه إلى كنائس الحرير فالطاحونة فحنية الروم فذات الحمام فثونية فالإسكندرية. وهذا الطريق الأقصر الأقوم تكون مراحلها الواحدة والعشرون قريبة من اثنين وسبعين وخمسمائة ميلاً، وهذا ما لا أراه في الخارطة والله أعلم العالمين.

ونطق الشيخ زيدان المزاتي بصوته المتعب قائلاً:

- لقد علمك الله يا فتى بالتقدير المصيب. فالمسافة بين برقة والإسكندرية كما ذكرت بالذات، وهي ليست مضنية طالما أن مراحلها تزخر بالمياه الشروبة، ما ظهر منها وما بطن، والله وليّ النعمة وهو المستعان. وأما الطريق من الإسكندرية إلى الجيزة قريباً من مصر فسهل، ولا يزيد عن مائتين وخمسين ميلاً، أليس كذلك يا علي بن جوهر؟

أجاب علي مندفعاً مؤيداً:

- بلى أيها الشيخ العارف. والله ليس لي ما أضيفه إلا أن أبشركم بأن صفوف مجاهديكم ستتقوى بالحلفاء والمعاضدين، حيثما حلت وارتحلت على طول مسالكها إلى مصر.

أجال أبو ركوة نظره بين الحاضرين، وقال كأن به ميلاً إلى رفع الجلسة:

- ألا فاشهدوا أن فقه الشيخ المزاتي يشمل أيضاً قياس

المسافات. ما شاء الله وهو خير الواهبين! أيها القوم، إذا كنا قد استنفدنا الأسئلة فلنترك ما سيبدو منها لوجي الميدان. وأدعوكم الآن إلى قراءة الفاتحة قبل أن نقيم الصلاة، ثم نفترق على أمل اللقاء في فجر منتصف شوال المقبل، وهو يوم انطلاق قوافلنا لخوض الجهاد المقدس.

قرأ الجمع الفاتحة بإكبار وخشوع، ثم نزلوا لأداء صلاة العشاء قبل أن يعود كل واحد إلى مستقر راحته ونومه بين أسرته وذويه.

*

في فجر اليوم المذكور، كان جيش أبي ركة على أهبة تامة للاقلاع وطي المدى بعد أن ودع أفراده الأهل والأحباب. وما أن امتطى الامام جملة وتفقد صفوف المجاهدين حتى أخذ يكبر، والكل يردد تكبيراته في اندفاع منقطع النظر، ثم نطق بكلمات قصيرة موصياً بالتناوب على ركوب الجمال والخيول وبالتأزر وحسن البذل والانتظام، وأخيراً تقدم جموع المجاهدين وأعطى إشارة الانطلاق، فانطلقوا - والألوية الخضراء تعلو قوافلهم، وزغاريد النساء وهتافات الأطفال والمعطوبين والعجزة تودعهم - ولما أن غادروا برقة، أخذوا يقضون وقت ركوبهم بين ترديد أناشيد حماسية وتراتيل دينية وبين الخلود إلى الصمت أو الكلام اليسير. وساروا على هذا النحو يطوون المراحل تلو المراحل، في كل يوم عشر ساعات أو يزيد، ولا ينزلون إلا للصلوات والاستراحات اللازمة.

كان أبو ركة طوال الأيام الأولى لا يمتطي جملة أو فرسه إلا ويستبد به قلق غريب، فتتناوب عليه بعض الرؤى الكئيبة، يرى فيها الخيانات تعصف بتخطيطاته وأسراره، وجيشه

مهنوماً مشتت الشمل والقوى، ورجاله في وطيس معركة ساحقة يتساقطون قتلى وجرحى أمام جيوش جرارة متكثرة لا يحدها البصر. ودفعاً لهذه الرؤى المقنطة كان يعود بالله، فينزل من مطيته ويمشي على القدمين ساعات طوالاً مرتلاً الآيات وقارئاً اللطيف. وحين يعود إلى ركوبه كان يتجاذب أطراف الحديث مع علي بن جوهر حول أرض مصر وطبيعتها، أو ينادي على شهاب الدين فيسأله: «أحقاً أن حماد الماضي شوكة في أرجلنا؟»، فيرد المسؤل: «إنه كذلك أيها الإمام، ولكننا، بحول الله، سنزيل الشوكة ونقطع دابرها».

بعيد قطع نصف المسافة الإجمالية بقليل كانت جموع المجاهدين الزاحفة قد وطأت أرض الكنانة، فتطايرت بينهم كلمات الحمد والتبريك، لا سيما وأن الأهالي أخذوا يلاقونهم بالتهليل والترحيب بدل المقاومة والمجافة، وبالتمر واللبن بدل العصي والحجارة. وكانت كل هذه العلامات الحسنة تتلج صدر أبي ركوة وتنزل عليه برداً وسلاماً، فينسى كل وساوسه وتطيراته، وينادي على علي بن جوهر ويحيى وشهاب الدين وآخرين ويسألهم: «هل يعقل أن تكون هذه البشارات وعوداً كاذبة؟ هل نحن نسير في سحائب الحلم أم بين تضاريس اليقظة؟ بالله أجيبيوني يا جنود الخير والرحمة!»، فيجيبه الجميع بالتأكيد على صدق البشارات وواقع اليقظة غير أن الشيخ زيدان المزاتي كان يضيف: «إلا أن الرأي ليس التظني، ورأس الدين صحة اليقين، فلا تسلخوا جلد الدب قبل حبسه». وكان أبوركوة يعقب مؤيداً: «صدقت يا زيدان، رأي شيخ خير من مشهد غلام».

*

لما انقضى شهر تقريباً على مسيرة المجاهدين، كانت قوافلهم قد بلغت بوادي الاسكندرية. وتجنباً للدخول في حرب عقيم مع حامية هذه المدينة، أخذوا، بأمر من أبي ركوة، في النزول الحثيث جنوباً صوب مصر. وعلى مقربة من هدفهم بعشرين ميلاً، عسكروا طيلة ليلة كاملة بقصد الخلود للراحة واستجماع القوى والاستعداد. وفي صبيحة اليوم التالي، وكان يوم ثلاثاء، انعقد رأي الجماعة على تقسيم الجيش إلى فيلقين: فيلق بقيادة الامام يقتحم الجيزة ويحتلها، وفيلق بقيادة شهاب الدين وحمو ويحیی يكسر عسكر الحاكم الفاطمي في الفيوم، ثم يتم التقاء الفيلقين عند الهرمين قبل الدخول إلى القاهرة. وقال أبو ركوة معللاً: «هكذا يمكننا تيسير مقاتلة العدو في عقرداره، بعد إضعاف صفوفه الأمامية والخلفية معاً». وكان هذا ما أقروه مكبرين متواعدين باللقاء والنصر. فانطلق رجال كل فيلق نحو هدفهم بثقة وعزم كبيرين، مسترخصين أرواحهم، متنافسين في التضحية والإباء. وما أن غابت شمس يوم الثلاثاء المشهود حتى اجتمع شمل جيش أبي ركوة عند الهرمين كما تقرر، وكان الاستبشار بالانتصارات الأولى بين المجاهدين عظيماً. وقام الإمام بتفقد أحوالهم سائلاً عن عدد الشهداء والجرحى، فقال شهاب الدين: «مائة وثلاثون شهيداً وستون جريحاً. هذه هي خسائرنا البشرية التي قد لا تمثل إلا خمس ما فقدناه عدونا»؛ وأضاف حمو: «ومن بين الذين سقطوا في ميدان الجهاد يحيى رحمة الله على روحه الطاهرة». ونطق أبو ركوة بكلمات كلها شكر لله وترحم على أرواح الشهداء، ثم سأل عن الأفواج الجديدة التي انضمت إلى جيشه، فأخبره علي بن جوهر قائلاً: - إنهم، أيها الامام، الجنود المغاربة والصقليون الذين

وعدك بهم أبي... فقد تظاهروا في بداية المعركة بمقاتلة مجاهدك، ثم ما لبثوا ان انضموا إليهم، معملين سيوفهم في رقاب أعدائنا، فكان فضلهم في انتصاراتنا الأولى هذه فضلاً كبيراً. وإني الآن على رأسهم أطيع لك الأمر، وأنوب عن أبي الذي يختفي خلف هذه الأبواب في مكان مجهول من القاهرة.

قال أبو ركوه بعد أن أتاه مساعده يخبرونه باستحالة اقتحام القاهرة نظراً لعلو أسوارها وانغلاق أبوابها:

– لن ننسى للمغاربة وحلفائهم الصقليين فضلهم علينا. ونحن اليوم كما ترون قد هزمنا جيش الحاكم بقيادة علي بن فلاح، ولكننا لم نربح المعركة بعد، ما دمنا دون الظفر بالقاهرة حيث يقوم بيت الداء، فماذا ترون؟

بادر شهاب الدين، وحمو يؤكد كلامه:

– أرى، أيها الامام، أن نضرب على هذه المدينة المحصنة حصاراً شديداً نرغم فيه الحاكم وجيشه على الخروج لقتالنا أو على رفع ألوية الاستسلام.

وأضاف حمو:

– هذا هو الرأي الصواب ما دام أننا نفتقر إلى كل وسائل تسلق أو هدم أسوار هذه المدينة المنيعه، وأننا نؤثر تجنيب الأهالي داخلها مجازر جماعية لا تحمد عقباها.

قال أبو ركوه وبوادر الحيرة تغزو محياه:

– وأنت أيها الشيخ زيدان، مالك واجم لا تدلو بدلوك في ما نحن واقفون عليه ومحتاجون إليه.

تردد زيدان قليلاً، وقال ووجهه يميل إلى التقطيب:

– خير الرأي أيها الإمام ما كان بإجماع، وخير إجماع ما استند إلى علم وخبر صحيح. وأنا، وربما حتى أنتم، لا نعرف عما يببته العدو ويعد له إلا اليسير. فكيف لي، والحال هذه، أن أحكم عقلي أو أدعي حصافة رأيي؟ لكن يا علي بن جوهر، قل لنا، وأنت أعرف بهذه الديار منا: هب أننا صبرنا على تشديد الحصار على الحاكم ولم تحدث بيننا فتن وقلاقل، فكيف من الزمن يمكن لعاصمته أن تصمد أمامنا؟

رد علي بن جوهر كأن جوابه جاهز عنده منذ مدة:

– إنني، والحق يقال، لا أرى لحصار القاهرة من فائدة على حسم الحرب لصالحنا، فالحاكم محمي بعبده الأوفياء، ولا خوف عليه من الأهالي المستضعفين العزل. وخزائنه ومطاميره فيها من الخيرات والأقوات ما يكفي لبضع سنوات. وهذا وإن الخطر المحدق بنا إن نحن ضربنا حصارنا وأطلناه لهو الخطر الآتي من الشامات، المتمثل في توافد الجحافل من الترك وأجلاف البدو ومرترقة الروم وكل أصناف المصطنعين الطامعين في عطيات الحاكم وهباته. وإن كل الأخبار التي حملها إليّ حلفاؤنا المنضمون إلينا لتجمع على صحة ما أقول. فجيش الحاكم الذي هزمناه وبعثرناه في أعمال الصعيد، قد أخذ يستعيد نظامه ويلمّ شمله في صحراء الفيوم بقيادة رجل معروف بدهائه ومكره، هو الفضل بن صالح. ولقد صار هذا الجيش يتقوى يوماً عن يوم بالأعداد المهولة القادمة من الشامات. كما أن هناك خطراً آخر يهددنا إن نحن تشبثنا بخطة الحصار، هو أن يندس في صفوفنا المخبرون والجواسيس والساعون بالشائعات المغرضة وأسباب الضغينة

والانشقاق. هذا ما أعرفه والله أعلم، ولكم سلطة الرأي والقرار.

ما أن أنهى علي بن جوهر كلامه حتى سمعت أصداً جلبة وضوضاء، فسأل أبو ركوّة عن الخبر، وإذا بنفر من جنوده يتقدمون نحوه وهم يلوون على رجل بزّي كزيهم، فأعلموه بأنه جاسوس ضبط وهو في حالة تلبس، وبحوزته وثائق وصرر من قطع النقود والذهب. فتسلم شهاب الدين الوثائق والصرر، وطلب أبو ركوّة من الجند الالتحاق بمراكزهم، ثم أمر الجاسوس بالافصاح عن هويته وباعثه ومراميه، فاستقام الجاسوس وهو لا ينطق بكلمة، وبعد أن هدده حمو بسيفه، قال:

- إني رجل من رجال حماد الماضي الذي يعمل منذ زمن لحساب القائد الفضل بن صالح. وقد كلفني الماضي بالتسرب إلى صفوفكم وتقصي أخباركم، فتمكنت من ذلك وسجلت عنكم في هذه الوثائق ما رأيته فيكم وشاهدت. أما الصرر فهي للتغريير بجنودكم وترغيبهم في الغدر بكم والالتحاق بجيش الحاكم في صحراء الفيوم. وهذا كل ما لديّ أن أقوله عن مرامي مهمتي بينكم، فافعلوا الآن بي ما شئتم ورضيتم.

قال حمو بلهجة لا تخلو من المكر والتشنيع:

- أنت إذن كالخائن اللعين حماد الماضي من بطون بني قرة. أليس كذلك؟

- أخطأت، بل أعرابي متكسب من بادية الشام، وشاركت في حروب كثيرة بالتنكر والاتجار في الأخبار، وإن كان يهكم اسمي فهو...

قاطع أبو ركوّة الجاسوس وصعق في وجهه قائلاً:

– لا يهمننا من اسمك شيء، بل قل لنا كل ما تعلمه عن جيش الحاكم، مقابل أن نتركك على قيد الحياة، وإن قلت ما يفيد نظرنا في إطلاق سراحك. وإن دللتنا على الجواسيس والخونة بيننا رددنا إليك صرتين قبل رحيلك.

– لك أيها الإمام ما شئت وما شاء صحبتك. فاعلموا أن جيش الفضل قد ربا على عشرة آلاف مقاتل، وهذه الأعداد تركت حجمها في اتساع وعتادها في تراكم. أما المخططون فقد أجمعوا على استثمار الوقت لصالحهم بترككم على أبواب القاهرة تحلمون باقتحامها وتتداولون في حصارها. وفي نظرهم، كل يوم يمضي فإنه يأتيهم بالتعزيزات بقدر يأتي جموعكم بقنوط الانتظار وعقم الترجي. وهم يعولون على بث الجواسيس بينكم لإغراء مقاتليكم بالفرار من صفوفكم للالتحاق بجيش الحاكم أو العودة من حيث أقبلوا. وقد كلفوني، إضافة إلى الاستخبار عنكم، بالتفرس في رجال منكم يمكنهم الإقدام على قتلك يا أبا ركوة مقابل مال كثير. وأما عن الرجال مثلي وعن خونتكم فيحتمل وجودهم بينكم، ولكني لا أعرف عنهم مثقال ذرة، ولست من الخبث بحيث أقدم أبرياء قرابين لطمعي وجشاعتي.

وتناول أبو ركوة صرتين من شهاب الدين ورمى بهما إلى الجاسوس، ثم نادى على بعض جنوده وقال:

– فكوا يدي هذا الرجل، واعطوه فرساً وزاداً، واتركوه يرجع من حيث أتى. أما أنت أيها الجاسوس فعد إلى أربابك، وخبرهم أننا صامدون هنا وعازمون على حصار القاهرة حتى نظفر بها أو نهلك دونها.

ظهرت على وجوه أعوان أبي ركوة علامات الفرع والدهشة

والجاسوس لما يغيب عن المكان، إلا الشيخ زيدان الذي همس مؤيداً:

– أحسنت والله أيها الإمام! فالحرب خداع، ولا أرى الجاسوس إلا فرحاً بما ناله وقادراً على إقناع أوليائه أننا باقون هنا، ملبون خططهم وحساباتهم.

قال أبو ركوة وقد عاد الآخرون إلى رشدهم وأدركوا حيلة إمامهم:

– الآن يا قوم قد اتضح السبيل ونضج الرأي. فما فات لعلي بن جوهر أن نبهنا إليه قد أكده جاسوس قواد الحاكم. أفليس الرأي عندكم أن نترك الجيزة ونتوجه في فجر غد بمجاهديننا إلى صحراء الفيوم، فنباغت هناك أعداءنا ونكسر شوكتهم قبل أن تستفحل وتتعاظم؟

فأجاب الأعوان بصوت واحد:

– هوذا الرأي الصواب أيها الامام المظفر!
– إذن فلنتوكل على الله ولنجهز أنفسنا بعد أخذ قسط يسير من الراحة.

*

نُصبت خيام أوى إليها بعض المقاتلين المنهكين أو الجرحى، واستسلم الكثير في الميدان إلى إغفاءات متقطعة، يحرسهم بالتناوب رجال كتاميون من أهل البلد. أما أبو ركوة، فقد جلس متكئاً على جذع نخلة بعد أن أجهد نفسه في إقناع صحبه برفع الحراسة عنه وأخذ حظهم من الاسترخاء والنوم.

كان الإمام يعلم أن عينيه في ليلة كهاته لا يمكن أن تكتحلا بالنعاس، فالخطب عظيم وأسباب الأرق متوالدة

متكاثرة. وما كان له، في لحظات عسيرة كهاته، إلا أن يغالب أشباح المنكر والإحباط باستظهار ما تيسر من الآيات، أو بإمعان النظر إلى النجوم وعمق السماء. وبين الفينة والأخرى كان يغمض عينيه، لا لكي يراود نوماً مستحيلاً، بل ليفتش عن ذكرى أرق شديد عرفه من قبل، فلم يجدها. وأدرك السبب في كون يده لم تعد تفارق قريبها من خنجره أو سيفه، فهمس مرات والمرارة مستبدة به: «ها أنذا أمر بالتدرج من الخوف على الثورة إلى الخوف من الثورة. ها أن جنود الغدر المحجوبين أشمّ وجودهم ولا ألوي على واحد منهم! وما أن أبا ركوة بدأ يسقط بدوره، كأبي خليفة وأي أمير، في مزالق التوجس والريبة والفرع، فيرى أصمة الأمان قابلة للانفجار في أي وقت تحت ضغط المجهول وشدة الحال...». وتوالت على الامام الخطرات تلو الخطرات، وكلها سائرة من قبيح إلى أقبح، فلم يجد بدأ من الوقوف والطواف حول مكانه وهو يوبخ هواجسه السوداء، ويلعن نفسه الأمانة بالسوء. وظل على هذا النحو إلى أن أخذ يصيح بأعلى صوته: «إيه يا قوم! أفيقوا يا جنود الرحمن! الصلاة خير من النوم! الجهاد خير من النوم! حيّ على الفلاح، حيّ على القتال في سبيل الذي لا تأخذه سنة ولا نوم! حيّ على الفلاح يا قوم!». وظل يردد هذه الكلمات إلى أن نهض كل من في المعسكر من رجال ودواب. وأحاط أعوان أبي ركوة بإمامهم محاولين تهدئة روعه وصراخه، فنهرهم قائلاً: «ألستم من دعاة التعجيل بمعركة الحسم! والله لا خير في نوم تعمره الوسائس والهواجس، ولا راحة لنا بعد اليوم إلا مع النصر، فقولوا للمجاهدين أن يهيئوا أنفسهم ويجهزوا مطياتهم، فإننا منطلقون إلى ساحة الجهاد مباشرة بعد صلاة الفجر إن شاء الله».

لم يجرؤ الأعوان على مناقشة تعجل أبي ركوة واستنفاره، بل طأطأوا رؤوسهم واصطفوا وراءه كباقي كل الجنود، وأدى الجميع صلاة الفجر على جناح السرعة، ثم تجهزوا وبدأوا نزولهم إلى صحراء الفيوم في صمت رهيب، لا يداخله إلا وقع الأقدام والأصوات الخافتة. وفي أثناء هذه السفارة كان أبو ركوة يجهد نفسه لتحسين أساريه ووجهه وبعث الثقة في جموعه، فلا يبخل في ملامسة الاكتاف وتلقي الوجوه بالبشر والابتسام.

وكانت الجموع لا تفصلها عن معركة القتال إلا بضعة أميال حين أمرها أبو ركوة بالتوقف قليلاً للاستراحة واسترداد الأنفاس. فاغتنم شهاب الدين هذه الفرصة ليختلي بالإمام، وبعد تردد وتلكؤ أخبره بفرار بعض الجنود إلى معسكر العدو. وقبل أن ينهي خبره التحق بهما حمو صارخاً مهدداً:

– سبعون من الفارين أيها الامام، وقد تيقنت من عددهم هذا، وتعرفت على هويتهم واحداً واحداً.

ضرب أبو ركوة يداً بيد، وقال متهدداً:

– الصرر فعلت فعلها في المنافقين مرضى القلوب! «متاع قليل ولهم عذاب اليم».

قال حمو معقياً مشهراً:

– وكلهم من بني قرة. سبعون منافقاً أخزاهم الله!

عند سماع هذا الكلام المهين، استشاط شهاب الدين غضباً، وقال متحدياً:

– ليس ما تدعيه صحيحاً كل الصحة، فمن ذلك العدد قوم غر بهم الشيطان، وهم قلة، وآخرون بعثت بهم ليتسربوا بين

صفوف العدو ويتقصوا أخباره، ويستميلوا إلينا قلوب إخواننا
وأبناء عمومتنا العرب جنود الحاكم الفاطمي. ومثل هذه
الأعمال لا يقدر إلا رجال من قبيلتنا، ولا طاقة للزناتيين بها.

وصرخ أبو ركة مقاطعاً، وقد أقبل على الجمع الشيخ
زيدان المزاتي وعلي بن جوهر:

– تباً لاختلافكما ومنازعتكما، أهذا وقت الشجار والتقاذف
بالقذى، أم وقت لم الشمل ورض الصف؟ ألا فليعلم كل
مجاهد منا أن الإيمان في كفتنا، وأن المال في كفة أعدائنا،
وستنظر أي الكفتين أرجح. فإن اكتسحنا وعلونا فذلك ما نروم
ونرضى، وإن تردينا وسقطنا فإننا لله وإنا إليه راجعون.

قال الشيخ زيدان:

– صدقت أيها الامام. فمثل هذا الظرف لا يعود إلا بالويل
على الماشين بالريية والشقاق، ولا ينفعنا فيه إلا التقدم
والاقدام، معولين على سيوفنا وصمودنا وعلى الذي بيده الملك
والملكوت. أما بشارات الخير فاسمعها على لسان علي بن
جوهر.

قال علي بلهجة متأرجحة بين الفرح والحذر:

– أيها الامام، قد عاد إلى معسكرنا بعض مخبرينا الذين
احتكوا بالعدو سراً، فأبلغونا أنه يعلم الشيء الكثير عن
أعدادنا وأعدتنا، وأن زعماء العرب المحاربين معه يعاهدونك
على الانضمام إليك ساعة الحسم. فلا خوف علينا إلا من
جواسيس حماد الماضي ورهطه، ومما لا نعلم ولا نتوقع من
حيل ومكر قائد العدو الفضل بن صالح.

قال أبو ركة وقد امتطى فرسه ورفع سيفه:

- «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين». اركبوا دوابكم، وهيئوا الجيش فرقاً تقدم على المناجزة تباعاً حتى تضيق الصحراء على عدونا، فيطلب المصادمة العظمى أو الاستسلام. وأما زعماء العرب، فأخبروهم بأن يأتونا ليلة هذا اليوم حتى نشدّ على أيديهم، ونعدهم بالشام أرضاً لهم لقاء دعمهم لنا وانتصارهم للحق. والآن اتبعوني نحقق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله.

كان اندفاع جيش أبي ركوة شديداً كثيفاً بحيث قطع المسافة بينه وبين معسكر القائد الفضل في وقت وجيز، واكتسح ساحة القتال من كل جانب، فصارت سيوفه تهبر الأعداء وتبطش بهم بطشاً. وكان أبو ركوة من حين لآخر يخترق الصفوف المتشابكة، وينازل أمهر المقاتلين فيصرعهم، ثم يعود إلى مكان مستور يطلب فيه أعوانه للتشاور والتقرير. ولم يقترب نهار ثالث ذي الحجة من نهايته حتى كانت كفة النصر تميل لصالح جيش أبي ركوة. إلا أن الفرح الذي كان يبدو على هذا الأخير وصحبه لم يكن يوازيه إلا قلقهم من صحة الأخبار عن جحافل المرتزقة، التي سيرها الحاكم لتعزيز جيشه وإنقاذه. فاشتدت حاجتهم إلى وعود العرب بالانضمام إليهم توأ، من دون تسويق ولا إبطاء.

«فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده، وأظهر أنه صائم، وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم، فأكلوا وتحدثوا. وسير الفضل سرية إلى طريق أبي ركوة، فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا، ووصل الخبر إلى العسكر وارتج. وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل إلى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال، ولم يكن عندهم علم بما فعل

رؤساء العرب، وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب
وغاصوا فيها (...). وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً
يقول فيه: إن أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقراه على القواد،
وكتب إليه سراً يعلمه الحال، فأظهر الفضل البشارة بانهزام
أبي ركوة تسكيناً للناس؛ ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف
بالسبخة كثير الأشجار، وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوة بين
الأشجار وطارد عسكر الفضل. ورجع عسكره القهقري
ليستجروا عسكر الفضل ويخرج الكمين عليهم؛ فلما رأى
الكميناء رجوع عسكر أبي ركوة ظنوها الهزيمة لا شك فيها،
فولوا يتبعونهم، وركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيف
فقتل منهم ألوف كثيرة^(١٥)».

كانت أرض السبخة المشجرة قد اكتظت بالجثث والجرحى
من الجيشين، وارتوت بالدماء الساخنة الفوارة، فأضحت
حاجزاً وعرأً أمام ما تبقى من جيش أبي ركوة الذي كان
ينشد تحويل المعركة إلى ميدان عار أكثر وضوحاً واتساعاً.
وظل الصدام على أشده والقتل متفشياً وكثيراً إلى أن شقَّ
أبو ركوة مخرجاً ضيقاً وأمر أتباعه بالانسحاب منه تباعاً،
فمنهم من استطاع ومنهم من عجز ومات أو سجن في الكمين.
واتجه الإمام والذين معه جنوباً على جناح السرعة حتى
وصلوا إلى حدود النوبة، فتوقفوا قليلاً لفهم ما جرى وتقرير
ما يلزم، لكن التعب المستبد بهم كان يمنعهم من التفكير أو
التحادث المسترسل. وقبيل غروب شمس هذا اليوم الآخر من
أيام الشدة والعسر، كان أبو ركوة لا زال يحملق إلى وجوه
أتباعه الناجين - وهم دون المائة - ويبحث في العيون عن أثر
حنق أو غضب عليه فلا يجده. بل كانوا كلهم، بقلوب مطمئنة،
ينصحونه بالعودة معهم إلى برقة، حيث يتسنى له تدبر الأمور

والإعداد لحرب جديدة ضد الحاكم الفاطمي. وكان يتلقى كلامهم الطيب الوديع بابتسام عريض ويقول: «هيهات أن أقوى، يا أحبتي، على العودة إلى أهل برقة بالهزيمة! الجهاد القادم ضد الطاغية الفاطمي موكول إليكم، فاختراروا له من بينكم إماماً جديداً، يأخذ عني ما صلح، وطاب، ويستفيد من ثغراتي وأخطائي».

ولما جنَّ الليل، طلب أبو ركة قلماً وورقة، وأخذ يحرر وصيته الأخيرة وكأنه يودع الدنيا والأحياء ويستعجل آخر فصل في حياته المليئة الثرية. وما أن خط آخر كلمة حتى التحق بالجمع حمو وشهاب الدين على فرسيهما لاهئين منهارين، فترجلا وأخذا في تقبيل أبي ركة، وهذا الأخير يبادلها العناق ويحمد الله على سلامتهما. وحين سأل عن الشيخ زيدان المراتي وعلي بن جوهر وعن آخرين ذكر بعضهم بالاسم، قال له حمو مقاطعاً:

- كلهم إما استشهدوا أو سنقطوا في قبضة العدو. والآن أيها الامام ما بقي لك إلا أن تعود معنا إلى برقة. ولا بد من التعجل في الأمر قبل أن يداهنا جنود الفضل على حين غرة، فنلقى موتاً لا حاجة لنا به.

وقال شهاب الدين، وهو يخرج من كيس معه رأساً مقطوعاً مخرجاً بالدم:

- هذا، أيها الإمام، رأس الخائن اللعين حماد الماضي، قطعته بسيفي ليطاف به في برقة ونواحيها ويكون عبرة لكل مارق ومنافق. وإني أرى من الأسلم لك ولنا جميعاً أن نعود إلى برقة على جناح السرعة، فننظر ثمة في أمورنا ونعد العدة

لحرب أخرى ضد الحاكم الفاطمي. فقل لنا يا أبا ركوة ماذا ترى.

كان الجنود قد وقفوا كلهم مستعدين للرحيل، وكان أبو ركوة يدرك في قرارة نفسه أن ذهابه معهم سيعرضهم لا محالة لهلاك محقق في معركة خاسرة مع ملاحقيه وطلبة القبض عليه، فاصطنع الثقة بالنفس والتفاؤل بالمصير، وقال مطمئناً مبتسماً:

- المعول عليكم يا أحبتي في متابعة الجهاد، جهاد الحق الذي لا ينتهي. فانطلقوا وأبلغوا سلامي وحببي لأهل برقة البررة، وعاهدوهم على النصر بصحبتني أو في غيبتني. وهذه وصيتي حررتها بوجيز العبارة، لتقرأوها على شباب برقة، وتذهبوا في شرحها وتأويلها مذهب الانتصار للحق والانحياز للعدل. هي وثيقة الاخلاص بيني وبينكم، وبينني وبينهم. إنها حجر الأساس، فابنوا عليها ما اجتمعنا من أجله وأجمعنا عليه من قيم ومبادئ. فاذهبوا بها، رافقتكم السلامة. وأما أنا فإني قاصد ملك النوبة للجوء عنده هناك حتى تنفرج الغمة وتزول الصدمة. فهذا الملك رجل فاضل رحيم، يكرم الضيف ويحسن مثنوى كل ساع إليه بطلب الحماية والأمان. فإله أسأل أن يقيكم كل مكروه، وإنه سبحانه سميع مجيب.

أخذ أبو ركوة يضم إليه حمو وشهاب الدين معاً ويبادلها العناق والتقبيل، وهما لا يقويان على الكلام من شدة التأثر والانفعال، ثم عانق كل جندي على حدة. ولما انتهى ركب فرسه، وانطلق نحو بلاد النوبة. وحين غاب امتطى أتباعه الناجون خيلهم وتوجهوا صوب برقة مسرعين.

*

كان أبو ركة، وهو يقطع المسافات نحو مقصده، قد علا فوق سواده وضناه، وتجرد عن جسمه وحاجاته، فصار لا يتلقى من خفق قلبه وركض حصانه إلا أصداً كثيرة الخفوت، وينظر بعينين محمرتين إلى الأفق المشتعل ألواناً وبهاءً، ويبث إليه حنينه إلى ميعاد قريب. ولما وصل إلى أعتاب قصر ملك النوبة، استقبله ولي عهد هذا الأخير بالترحيب والتكريم، واستضافه حتى متم شهر ذي الحجة، ثم أخفاه في دير أبي شنودة. وهنا قضى أبو ركة شهرين من السنة الجديدة، يغالب الغربة والقنوط بالنوم والصلاة والصوم. وفي مطلع ربيع الأول، استقدمه مضيفه، وقال له بكثير من التأثر والخشوع:

– أيها الفاضل، لقد التحق أبي بالرفيق الأعلى في فجر هذا اليوم، وترك لي عرشاً مهدداً لا أقوى على أن أخاطر به في حرب ضد الحاكم الفاطمي. وها إن رسل القائد الفضل على بوابة هذا القصر يصرون على أن أسلمك لهم، ويقسمون بالآيمان أن سيدهم لا يروم إلا سلامتك ومساعدتك على الرجوع إلى موطنك، أمناً مطمئناً. فقل لي أيها الفاضل ماذا ترى.

لم يمه الرجل كلامه حتى كان أبو ركة على أهبة تسليم نفسه لطالبيه، وقال قبل أن يتقدمهم:

– «أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة». «كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة». رحم الله أباك أيها الفتى، ونفعك بذكره وحسناته، وها إنني ذاهب لملاقاة من لا ملة ولا خلاق لهم. فتحيتي إليك، ووداعاً.

خرج أبو ركة من بوابة القصر الرئيسية عالي النوجه، منشرح الصدر، فامتطى صهوة جواده وألقى على زبانية

الفضل نظره عفو ورحمة، ثم توسطهم فانطلق معهم وهم واجمرون صاغرون. ولما أن أتى على هذا النحو إلى مقر الفضل - وهو واحة نخل سامق ظليل -، استقبله جنوده بالانحناء والمباركة، وقادوه إلى خيمة قائدهم التي زينت بالأثاث الفاخر وفرشت أرضها بالزرابي الثمينة. وعلى عتبتها تلقاه الفضل بالتسليم والترحيب، وطاوله في ذلك إلى أن اجلسه على فراش وثير، ثم صفق فأتى الخدم بطبق التمر وأكواب الحليب، ودعا ضيفه إلى تناول ما تيسر من ذلك، وقال:

- مرحباً بك بيننا أيها الشيخ الجليل وأهلاً وسهلاً، وأنت منذ اليوم على الرحب والسعة، تأمر فنطيع وترغب فنلبي.

نظر أبو ركة إلى الفضل نظرة مستريية، ثم ندت عنه ابتسامة ساخرة عريضة، وقال:

- ايه، ما هذه الحفاوة وهذا الاكرام يا فضل! إني أخذ من طعامك لأنني موقن أنك لم تدسس فيه سبماً.

- وكيف أفعل وحياتك عندي أغلى وأثمن من كل شيء؟!

قال أبو ركة وفمه مملوء تمرأ:

- لئن تبيعتني إلى سيدك حيا خير لك وأجدي من أن تطرحني أمامه جثة هامة. فأنت الآن أخوف علي من نفسي، وتخشى أن أنوب عن الحاكم في حتفها. لكن هون عليك، وثق أنني لن أنتزع أجلي ممن بيده الأعمار كلها والمواقيت. فحدثني عما ستجنيه من فائدة وفضل وأنت تقدمني لمولك كما اشتهى وأراد.

- بربك أيها الامام المبجل لا تسيء الظن بي ولا بمولاي الحاكم بأمر الله، فقد يحبك أمير المؤمنين وقد كرهته، ويحابيك

وقد جفيتها، ويسدل عليك أنعامه وقد أقلقتة وحاربته.

– إذا كان لسيدك أن يحسن إلي وقد أردت به سوءاً، فقد يسيء إليك أنت وقد أحسنت إليه لما أن جلبت إليه نصراً.

وسأل الفضل وقد تولاه الفزع والقلق:

– ماذا تقصد أيها الإمام؟

– لن أجيبك قبل أن تخبرني عما أنفقه الحاكم لتغليب جيوشه عليّ.

– لقد أنفق كل شيء، أنفق ما في بيت مال الدولة عن آخره، ثم أخرج من خزائنه وخزائن أسرته ومترفي رعيته ما لا يقدر ويحصى من الأموال والذهب والفضة والنفائس. وكيف لا يفعل كل هذا، يا أبا ركوة، وقد جعلت عرشه من التلف قاب قوسين أو أدنى؟ لقد فرضت عليه رهاناً مريراً لا عهد له به، فإما ملك وإما هلك. وكان، وقد داهمته بصور الهلك الوشيك، أن استنجد بمرتزقة المشرق والمغرب جميعهم، من أعراب وصقالبة وسودان وروم وأتراك وغيرهم، وأجزل لهم العطيات والهبات بسخاء ما بعده سخاء، وبإغداق يُشبع حوايا كل ذي فاقة وكل طامع. وكان هذا السيل الجارف من الانفاقات سيذهب سدى لو أن جيشك لم يدخل أرض «السبخة» ويسقط في كمين مستنقعاتها وأشجارها الملتوية المعيقة. ولعلك اليوم تقول تَبّاً للكمائِن والأموال.

– وتباً لتكاثرهم عليّ بالصنائع والمرتزقة من كل الاجناس، تباً لمحاربين ملتهم الطمع والجشع، وحياتهم خرق دائم لحدود الله. وما صرحت به الآن، يا فضل، يجيب عما سألتني عنه سابقاً.

– أوضح يا أبا ركوة، وقل ما تراه.

– ليس ما أقوله عرافة ولا تنبؤاً بالغيب، بل إنني استقرىء مما أعرفه وتعرفه عن مولاك أنه لن يترك لك فرصة الانتشاء والمباهاة بـغلبك عليّ، ولن يقصر في الحؤول دون بروزك فوقه، لا سيما وأن فضل التغلب، في نظره، لا يعود إليك، بل إلى نفقاته وعطيائه. وهذا طبع كل طاغوت لئيم.

– لعل الموت بعد طي أمرك يكون في انتظاري. لكن ما الفائدة في أن أصدقك الرؤيا، وأنا محاط مثلك بأوفي أوفياء الحاكم من جنوده العبيد، ومكلوء بعيونهم التي لا تغفل ولا تنام؟

– إذم قم بنا نذهب إلى حيث قدر الله، ولا حول ولا قوة إلا به، هو حسبنا ونعم الوكيل.

قام الفضل ملبياً دعوة أبي ركوة، وأمر بتشكيل موكب العودة إلى مصر، فنفذ الأمر. وبدأت المسيرة، فكانت بطيئة كما أرادها الفضل. حتى يستعرض في الحواضر والبوادي سجينه، ويظهر غطرسته وخيلاءه. ولما مضى ما يقرب من ثلاثة أشهر، وصل الموكب إلى مشارف المدينة، يتقدمه الفضل على فرسه وأبوركوة على جملة، ووراءهما العبيد يهددون ويزمجون. وفي هذا اليوم من منتصف جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وثلثمائة، كان أبوركوة كلما تقدم في اختراق المدينة، جحظت عيناه من هول ما يراه: آلاف الرؤوس يطاف بها في الأزقة والساحات، والأسرى يقتلون تباعاً بالسيوف بعد تعرضهم «لأنواع البلاء بيد العامة، يصفعون أقفيتهم وينتفون لحاهم، ويضربونهم حتى تفتحت أكتاف كثير منهم. فكان أمراً

مهولاً^(١٦). مال أبو ركوة على الفضل، وسأله بصوت أجش
يتميز غيظاً:

- أهكذا شريعة مولاك في معاملة أسرى المغاربة
ومغلوبهم؟ لا والله لن تكون نهاية عهده المشؤوم إلا على
أيديهم، إن عاجلاً أو أجلاً بحول الله.
وصرخ الفضل بأعلى صوته:

- هكذا يعاقب مولاي أتباعك في البغي والضلالة حتى
يكونوا عبرة لكل زائع وكل متربص.

ثم صفع أبا ركوة صفة منكرة أسقطته أرضاً وهشمت
أنفه، وأمر العبيد بالانقضاض عليه وتصفيده وإحاقه بقوافل
المعذبين. وبينما العبيد ينفذون الأمر، فاجأ أبو ركوة الفضل
ببصقة في وجهه وقال هائجاً ثائراً:

- بدلت جلدك يا بن الكلب! لا والله لن تُقتل إلا بسيف
من تريد حباه بسفك دمي، فأنت وهو أقمتما شريعة الخراب
والقتل، وبها ستسحقان لا محالة، كما وعد الله.

كانت قوافل المعذبين تمر الواحدة تلو الأخرى، فألحق
أبو ركوة بإحداها مخضباً بالدم، مكسور القلب والقوى. وفي
لحظات وعيه كان يتعرف على وجوه الكثير من أتباعه، فيريد
ملاستهم أو مكالمتهم، فيُرد بالضرب واللكم والتعنيف. وكان
أن أبصر من خلفه الشيخ زيدان المزاتي يمشي متعثراً الخطى،
والدم ينزف من رأسه وتحمر به لحيته الوافرة. وبعد أن تبين
أبو ركوة أن الشيخ أضحى ضريراً صرخ سائلاً:

- هل نلام، يا زيدان، على أننا رمنا محاربة الشر، فكانت
الشر فوق ما فهمنا وتوقعنا؟

وردَّ الشيخ بما تبقى له من صوت:

– بل نجزي جزاء الحسنی، وننعم بما هو أخذ وأبقى.
وهذه أجسادنا يعيث فيها أعداء الحق فساداً وهدماً، وأما
أرواحنا فهي طائفة إلى جنات ربها الأعلى.
وقال أبو ركة منشداً:

– «إلى الديان يوم الحشر نمضي» وعند الله تجتمع الخصوم».

وأنشد الشيخ بدوره قائلاً:

– «لست أبالي حين أقتل مسلماً» على أي جنب كان لله مصرعي».
سُمع للشيخ توجع، إذ أنه تلقى لكمة قوية أسقطته أرضاً،
فتوقف أبو ركة، ونهر العبيد صارخاً: «أتضربون يا أبناء
الكلب هذا الشيخ الوقور، وهو على ما ترون من العجز
والانهدام! تبا لكم ولمولاكم وسحقاً». فبادرته بعض الأيدي
بضربات متوالية على كتفه فشقتة شقاً. وانتبه الفضل، فأمر
أن يترك المعتقل على قيد الحياة، حتى يقدم للفرجة أمام
ال خليفة الحاكم، قريباً من قصره في القاهرة. وكان أبو ركة،
رغم كل عذاباته، يتحين بعض الفرص فيتقدم للناس
المتجمهرين هنا وهناك، «فكان يسأل من يلقاه عن اسمه، وكان
يتلو القرآن ويترحم على السلف»^(١٧).

ولما انتصف النهار، كانت إجراءات الهول والتشهير قد
أعدت لاستعراض أبي ركة ورؤوس أصحابه أمام منظرة
الحاكم الفاطمي.

«وكانت القاهرة قد زينت أحسن زينة، وكان بها شيخ يقال
له الأبراري. إذا خرج خارجي صنع له طرطوراً وعميل فيه

الوان الخرق المصبوغة واخذ قزداً يجعل في يده درة ويعلمه
(ان) يضرب بها الخارجي من ورائه، ويعطى مائة دينار وعشر
قطع قماش. فلما قطع ابوركوة الجيزة امر به الحاكم، فأركب
جمالاً بسنّامين وأبس الطرطور وأركب الأبخاري خلفه والقرد
بيده الدرة وهو يضربه والعساكر حوله، وبين يديه خمسة عشر
فيلاً مزينة؛ ودخل القاهرة على هذا الوصف ورؤوس أصحابه
بين يديه على الخشب والقصب؛ وجلس الحاكم في منظره على
باب الذهب، والترك والديلم عليهم السلاح وبأيديهم اللتوت
وتحتهم الخيول بالتجافيف حول أبي ركوة؛ وكان يوماً
عظيماً... (١٨).

كان الفضل خلال هذه الفرجة المرعبة يلزم أبا ركوة،
ويفكر ملياً فيما سمعه منه سابقاً من تنبؤ وإنذار، فيكفهر
ويعبس، ثم تساوره نفسه بقتل الإمام سراً حتى لا يصل إلى
حضرة الحاكم حياً، كما امر هذا وطلب، فتكون بينهما مناظرة
قد تخلق المفاجآت وتقلب الموافقات قلباً. وظل يههم ويذمجر
إلى أن قرر مع نفسه: «لئن يموت ابوركوة الآن أضمن لي
وأجدى. فلا بد لي من زهق روحه قبل أن يطأ الأعتاب
الحاكمية». وهكذا أمر أحد أوفياءه سراً بتوجيه الطعنة
القاضية إلى الضحية، فنفذ، وأخذه المنفذ فقتله. ولما حمل
ابوركوة إلى القصر كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، فغضب
الحاكم وسأل الفضل عما حصل، فأخبره القائد بأن جندياً
حدثاً قتل أبا ركوة غدرًا فقبض عليه وقتل. وتنهى الحاكم
متحسراً، وقال:

— وعدت نفسي بمجادلته ووعدتها بذبحه، فاستحال وعدٌ
وتيسر آخر. والآن يا فضل، قربه مني وناولني خنجرك.

- لكنه يا مولاي ميت ولا حاجة إلى أن يقتل من جديد.

أخذ الحاكم من الفضل خنجره غير أنه لكلامه، فانحنى على جثة أبي ركوة وشق حلقومه حتى سال منه الدم، ثم استقام ومسح يديه في ثياب الفضل، وردَّ إليه خنجره قائلاً: «سلاحك متآكل يا فضل، وإياك وأن تعول عليه عند الشدة، فاشحذه أو بدله». وغادر المكان مرديداً: «وليعتبر المتطاولون المنتظعون النهازون الذين لا جدوى لهم ولا فضل». ولما أسفونا انتقمنا منهم»، «إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى»، «صدق وليي ومستخلفي في الأرض على العالمين». وقبل أن يغيب صاح يأمر العبيد: «خذوا جثة الثائر، وعلقوها في أذن أبي الهول حتى تتداول عليها الفصول، فتضحو هشيماً تذروه الرياح».

ظل الفضل جامداً في موضعه واجماً، شاحب اللون كالتمثال، ثم انهار متمتماً: «صدقت رؤياك يا أبا ركوة!»، وحمله العبيد إلى منزله، وأجمع المؤرخون على «أنه مرض فعاده (الحاكم) مرتين أو ثلاثاً، وأقطعه اقطاعات كثيرة ثم عوفي من مرضه، وبعد أيام قبض عليه الحاكم وقتله شر قتلة»^(١١).



لم تمض على مقتل الإمام أبي ركوة ساعات حتى وصل خبره إلى برقة، فأعلن فيها الحداد لمدة أسبوع، وصار أهلها رجالاً ونساءً وشيباً وشباباً في حالة تعبئة عامة، يتجمعون في المساجد والساحات للترحم على أرواح شهدائهم، ويستمعون هناك بخشوع وتأمل إلى وصية إمامهم، التي كان يتناوب على تلاوتها وشرحها حموشهاب الدين، وهي تقول:

في اللحظة التي أحاول فيها النطق بالحمد لله على كل نعمة
وكل محنة، تتهاك الدنيا في ناظري وأكبو.

سأستقيم يا ابنائي من برقة ومن كل بلد مقهور، وأقول لكم
قولاً حقاً هو كل ما ترثونه مني:

فيا قرء عيني!

إن شاهدتم عنف الطفافة في حاضركم، وتهتم في تجاوير
الظلام، ورأيتم الناس في الأصقاع المقهورة يخرجون من سجن
ويدخلون آخر، ورأيتم مصرع الفقير والثائر، فلا تنهاروا.

لأنكم الوعد لن تنهاروا، ولن تقيدوا أنفسكم في طرق الحيرة
والتخلي، ولا في فيالق الفتك والطغيان.

امشوا في مناكب الأرض، وترعرعوا بين المستضعفين
والجوع، لأن عندهم يورق الحزن مع النفوس والأجساد،
وتكبر النفوس والأجساد، ويكبر الغضب؛ لأنهم الأهل
والسند، وحجتكم في هذه الدار وفي الأخرى.

اعلموا، يا ابنائي، أنني لست آخر الشهداء. فخذوا مكاني،
واجعلوا من حياتي بعضاً من حياتكم، واجعلوا حياتكم سلاحاً
في حالة وعي واستنفار، وقاوموا فالنصر لكم، قاوموا ثم قاوموا
بكل قواكم. وإن خسرت معركة وخانتكم الحظوظ والبشائر،
فأنتم الوحي والآية، وأنتم الهادون إلى الجهادات الآتية،
والنصر المكين لذريتكم ولذرية الفقراء. وسلام عليهم وعليكم.

الباب الرابع
من آيات النقص والغيب

I

بين النكته والانتقام: مصر تحترق

«واستدعى (الحاكم) القواد والعرفاء، وأمرهم بالسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها [...] فاستمرت الحرب بين العبيد والعامّة والرعية ثلاثة أيام، والحاكم يركب في كل يوم إلى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع، ويقول: لعنهم الله! من أمرهم بهذا...».

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

في الشهور الأخيرة من حياة الحاكم، كانت الانهيارات النفسية الضاربة تتناوب عليه وتلزمه القعود في دوائر الخلوة والكآبة. وكان يردد مع نفسه في كل فورة سوداوية: لست جالساً على عرش أنا، بل على بركان من البغضاء والسخط والحسيفة.

في هذه الشهور كان بركان الرعية يرمي الحاكم بسيل جارف من العرائض والرقاع في القذف والتشهير بنسبه وحسبه وأفعاله. وكان يقضي الليالي الطوال، في شعب المقطم أو على منارة جامع، يقرأها مراراً باندفاع وانشداد قوين. وأكثرها وقعاً على جوارحه الملتهبة كانت تلك التي تستنسخ وتوزع على نطاق واسع بعض الرقاع والعرائض الموجهة إليه سابقاً أو إلى أبيه العزيز من قبله، فكان أن وقف مطولاً عند اثنتين بالتخصيص مواجهاً فداحتها بعينين حمئتين وقلب مصدوع. فالأولى عبارة عن رقعة نصبت أمام العزيز وهو يستوي على المنبر ذات مرة، وتقول:

«بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماسة
إن كنت أعطيت علمَ غيبٍ فقل لنا كاتب البطاقة،»

أما الثانية فهي العريضة الشهيرة التي كان الخليفة

العباسي القادر قد استصدرها بتوقيعات القضاة والأئمة، وحتى بعض العلويين المرموقين، حول الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ومذهبهم، إذ تقول في مقطعها الأساسي:

«وهم منسوبون إلى ديسان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين، ونطف الشياطين، شهادة يتقربون بها إلى الله، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس؛ فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم - حكم الله عليه بالبووار والخزي والنكال - ابن معد بن اسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد - لا أسعده الله - فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي، هو ومن تقدمه من سلفه الانجاس الانجاس - عليه وعليهم اللعنة - ادعياء خارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم ادعياء. وقد كان هذا شائعاً بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يُدلس على أحد كذبهم، أو يذهب وهمٌ إلى تصديقهم؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة، ولذهب الثنوية الجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الانبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية، وكتب في [شهر] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة». وكتب خلق كثير في المحضر المذكور^(٢).

كانت هذه النصوص على اختلاف أحجامها ولذعها تحوّل كيان الحاكم كله إلى ذاكرة خانعة يتقاذفها التلوث والفرع، ويحكمها دوار الانجذاب نحو هوة الانسحاق. وبينما هو على هذا الحال من التورط في الأسوأ، إذ عادت به الذكرى إلى سنة خلت من ربع قرنه، كان المصريون إبانها قد بلغوا شوطاً قياسياً في التهكم واللعب عليه، وذلك بأنهم نصبوا له في إحدى جولاته داخل الفسطاط امرأة مومياء، عليها إزار وحجاب، وببيدها المدودة بطاقة مختومة كأنها ظلامنة. فلما تناول الحاكم البطاقة منها ونظر فيها كاد يسقط من على حماره

مذعوراً مما تحويه من اقوال الطنز والسب فيه، اقوال فاجرة قاذرة فادحة لم يسمع نظيرها من قبل. وإذ ثارت ثائرتة وأمر بالتنكيل بالمرأة وإحراقها حرقاً، أخبر بأنها تمثال امرأة محشوة بالقراطيس و«الشرراويط»، فزاد غيظه وغضبه، وعقد العزم على انتظار الفرصة للانتقام لنفسه من أهل مصر على ما يقتربونه في حقه من تشنيع وتنكيت...



ترى هل حلت اليوم تلك الفرصة المترقبة، والمصريون صاروا يتبادلون عبر الأكمام وفي الدور والسطوح البطاقات بالآلاف ويملأون الجدران والبوابات بالملصقات، وكلها تتنافس أساليب بلاغتها وبيانها في الدعاء على الحاكم والقذح فيه؟ لقد سمى الأهالي في مصر مقاومتهم لطغيان الحاكم بالمقاومة الساخرة، وثورتهم عليه بثورة البطاقات، وسرت بينهم هاتان التسميتان سريان العهد والميثاق، وعنت عند الكبير والصغير الرغبة في التصدي والانعقاد.

أمام اتساع نطاق هذه الانتفاضة وفعالية وسائلها، كان الحاكم يقف موقف الحيرة والذهول، ويلقي باللأئمة على أعوانه ومساعديه، ويصف طوابير الأحداث بالمخنثين وأولاد القحاب. وبدا له أن يقتصر من بعضهم للعظة والاعتبار، فكان أولهم القائد لؤلؤ قائد الشرطتين، الذي دعاه الحاكم إلى حضرته صبيحة ذات يوم مشهود، وقال له بعد أن وجه إليه أفحش التوبيخ وأغلظ السب:

– يا لؤلؤ المصائب والروائح الكريهة، كنت عبداً ذا زببية فأعتقتك، وكنت ضيعاً ترفل في الاغلال فحررتك ورفعتك، وها أنت اليوم تجازيني بعجزك عن كبح جماح الرعاع، وضرب

مصادر المس بالقدس والحرقات، فقل، قبل أن أفتك بك،
كلماتك الأخيرة أخزاك الله.

بدا لؤلؤ، بالرغم من جثته الضخمة، كطفل مسحوق
يتخبطه القلق والارتباك، وقال متعلثماً:

– مولاي أسألك الأمان، وأسألك يوماً أو يومين حتى أتيك
برؤوس الفتنة وموزعي البطاقات.

– لقد فات أن عرضت أمامي الكثير من الرؤوس
المقطوعة، وتبين أن جلها رؤوس نساء وأطفال لا حول لهم ولا
قوة.

– الاطفال والنساء هم بالذات محك البلاء يا مولاي!
– لكنك أخذت نصفهم من أسر تدين لي بالولاء، وتنضوي
في أسلاك دعوتي بالنجوى والوفاء.

– في حلقة الفتنة يصعب التمييز يا مولاي، ويستحيل أو
يكاد تجنب الأبرياء.

– بل قل يا لبخة السواد إنك صرت أسخف من حاطب ليل
وأعجز من نخلة خاوية، فاذهب بيوميك، وعد لي بما هو أغنى
من قرني حمار.

*

مر يوم فيومان وأحضر لؤلؤ بين يدي الحاكم، وأرغم على
تقبيل الأرض، ثم استقام وصاح ضاحكاً ملء شذقيه:

– إنها والله لحرب خاسرة يا مولاي، لا تلوي على رأس إلا
وتخلفه رؤوس، ولا تتلف أطناناً من البطائق والملصقات حتى
تظهر أضعافها وزيادة. هذه الحرب ليس ما عرفناه وعهدناه،
ففيها يضرب السيف وكأنه يرتطم بالماء، ويعلو القمع فيلقى

الهزء والسخرية. وها إني أمد عنقي إلى السيف والنطع،
وأردد عن قناعة وإيمان ما تناقلته العرائض والافواه: كثر
الموت حتى هان، فلنقطع ببعض موتنا دابر الطفيان.

صرخ الحاكم أمراً «اقطعوا لسانه بدءاً، ثم مزقوه إرباً
إرباً، وانظروا واعتبروا»، وهروا نحو منزل خلوته في المقطم
يتبعه ركابيان وصبي من صبيان الحجر. وما أن وصل إلى
مستقره حتى كلف الركابيين بنقل أمره المطاع إلى العبيد بأن
يغسلوا جثة لؤلؤ ويدفنوها في القرافة مع التكريم؛ ثم قال
للصبي: «أرني قمرك»، فتعري الصبي وسجد أمام مولاه
الذي بادر عورته ببصقة، ثم تركه على صخرة ثابتاً في هيئته.

ظل الحاكم يذرع منزله جيئة وإياباً، وجنون الهواجس
القائمة يخبطه خبطاً، ويعمر الفضاء أمام ناظريه بلوائح
الكروب المتدائمة والتعاسات المزدحمة. وكانت عقارب الزمان،
وقد أصابها البطء والتراخي كأنها غاصت في أوحال مستنقع
دبق شاسع. فكان الحاكم يملأ الفراغ بإشارات الأمر أو
الترجي لاستئزال المساء، طمعاً في حلول الليل. وفي لهيب
انتظاره كان يخرج من منزله إلى كدنة قريبة زاخرة بالصبار
والنبات الوحشي، ويصيح:

— يا شعب الدف و«المدمس»! بحق من ولاني الملك، لن
أعجز عنك كما عجز الخصي لؤلؤ، فإن كنت تطعن اليوم في
قدرتي ومهابتي، فستري على حد سيفي نسبي وفي بساط
ذخائري حسبي. لن يكون لك معي مخرج إلا أن تذكر أن
جدي وصي النبي مستقرٌ «في السحاب، وأن صوته الرعد
وسوطه البرق».

نادى الحاكم على صبي الحجر وأمره بالذهاب في طلب

مؤرخه مختار المسبحي. ولم تمض ساعة حتى كان المؤرخ واقفاً في الكدية ينتظر عودة الحاكم إلى وعيه. ولتبيد عياء المثل والترقب، أخذ يسجل وثيقة ضمنها ما فهمه من مناجاة الخليفة الجالس في التراب، ومنها:

وحقي في التوهج والإعصار!
لا بد لي، أنا المكبوت، من نيران.
وحقّ التنين الذي ينزعُ جلدهُ ويزحف!
لأتركنّ للمزابل والنسيان
أحوال نفسي الثكلي،
وأضرمنّ الحرائق في النكتة والعصيان.

ولما عجز المؤرخ عن ملاحقة كلام الحاكم، أخذ يحنن، ثم برز أمامه وقبل الأرض قائلاً:

– نادتنني الحضرة المقدسة إليها، وها إني ألبى النداء طائعاً، وأفتح أوراقك كلها لما تريد أن أقيده بقلم الوفاء من جليل كلامها ودقيقه، وناصر برهانها وموثوقه. فحدثني، يا مولاي، بما تريد وترضى حتى أشرف به ناعورة الزمان وأصقله في ذاكرة الأجيال.

انتصب الحاكم على قدميه وخطا نحو المؤرخ، فأوقفه وأخذ منه أوراقه ومزقها، ثم خاطبه بلهجة تفيض حزناً وكآبة:

– اتق الله يا مختار، واسجد له وحده وليس لمن تروي عنه وتحكي، ثم كفّ عن بلاغة لا تنفع اليوم ولا تشفي. الغمة أمست عظيمة والمصيبة زباء، ولا من تاريخ يفيد أو من حيلة تجدي.

– وقاك الله كل شر يا مولاي، وحفظك من كل مكروه.

– حسناً يا مختاراً! ادع لي ما وسعك الدعاء، فإنني في هذا الزمن العصي، لم أعد ألقى إلا من يدعوني علي ويقذفني بأمر الهجاء. هل تراني، يا صديقي، قد هرمت وفاتني الركب والتيار، أم تراني قضيت في الحكم أكثر مما يجوز ويلزم؟ ذكرني كم بلغت اليوم من العمر يا ضابط الأوقاف، يا أيها الأعلم!

بدت على المؤرخ علامات الدهشة من كلام الحاكم كله، وأخذ يجري حساباً ذهنياً مستعيناً بأصابعه، ثم قال مندفعاً:

– سنك اليوم، يا مولاي، ست وثلاثون سنة لشهرين بقيا، لا أقل ولا أكثر، وهو سن الرجولة الكاملة والقوة الظاهرة.

– هذا من حيث الظاهر يا أمهر الموثقين، أما سني الباطني فهو مثلث ما ذكرت أو يزيد، ولا يحس بوقعه ويعاني من ندوبه أحد سواي. هكذا تظل أوراقك، إلا في ما ندر، دون الحقائق الحية ودون تقطع الأوصال والأكباد، فلا تسود بياضاتك إلا بالقشور والأزباد.

– أراك يا سيدي هذا المساء ميالاً إلى سوء المزاج ويبس الدماغ، فهل أطلب طبيبك أو أجلسك في دهن البنفسج؟
– لا طب ينفع في اليوم ولا عقاقير. لا تخفيف من قرحتي ودائي إلا بالتحريق. حزني أوسع من أن يفهم. حزني أكبر من أن يُعذر!

تنبه الحاكم فجأة وهو يكرر آخر كلماته إلى انتشار سدول الليل، فتنفس الصعداء، وهرول نحو مرصده فنظر فيه، وغمغم: «لم يظهر بعد نجمي المشؤوم، فماذا دهاه!»، ثم دخل منزل الخلوة متبوعاً بمؤرخه. وهنا جلس الرجلان متقابلين، وبينهما شمعتان تشعان بنور دائم الخفوت والاضطراب. ظل

الصمت سيد المكان والجلسة، وطالت مدة كان ذهن الحاكم فيها يعج بالافكار والظنون، ويحفل بالرؤى والبوارق، فصار يهتم بها متردداً في الإفصاح عنها لمؤرخه، قائلاً في نفسه: «لو نطقتُ بما يسكنني ويهز عقلي وكياني، لو كشفتُ عن مناجاتي مع ربي وولهي الغريب بالسلطانة أختي، ولو أنفقت في تيسير نطقي وكشفي بلاغة ناصعة وبيانا قصياً، لما اقتحمتُ على مؤرخي دوائر وعيه وفهمه... باطني «مزيف» هذا المؤرخ، ونهاز يكثر من زلفاه ومن خفض الرأس!».

كان المسيحي يتمسك في جلسته وينكمش كأنما يغالب خوفاً على النفس استبد به وجعله يتحين فرصة للإفلات والهروب. وبجهد جهيد حلّ عقدة لسانه وتمتم وهو يمسح العرق من جبينه:

– إن كان حضوري هنا يشوش علي مولاي أو يلوث فضاء خلوته وخطراته، فهل لي أن استأذن الحاضرة بالانصراف.
– تنصرف وأنا أحوج ما يكون إلى التاريخ! تنقلت كأنك لا ترتاح إلى أمانني! ومن غيرك يخبر الزمان والأجيال عني؟

– هي بياضات طفيفة بقي لي أن أسودها بعون منك يا مولاي، فأكون قد أنهيت المجلد الأربعين من تاريخي، الذي عنوانته: «كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار، وسير من حلها وحل غيرها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين».

– وما هي بياضاتك يا مختار؟

– هي شيء يسير في باب من نال عقابك بالموت من الأكابر والأعيان. لقد تشرفتُ، يا مولاي، بإلحاق كل أحكامك في هذا الباب بالعلل الدامغة والشريعة الرادعة. وكنتُ كلما تدببت أو

خانني البيان، استمسكت بعقل السياسة النافعة، وكتبت على لسان الهمداني: «الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن منته، تحرك ننته». إلا أنني، يا مولاي، والحق يقال، عجزت بالتمام عن فهم حالتين، أو قل ثلاث حالات، أولاها قتلك لمؤدبك أبي التميم سعيد بن سعيد الفارقي.

– تذكر أن ابن عمار كان يختال عليّ بعصبيته، والمحنك بورجوان بسيفه وسراويله الألف ذات التكك الحريرية؛ والفارقي كان كهذين وآخرين أرادوا التربيع فوقى والحجر عليّ، فأسفوني كثيراً فانتقمت منهم.

– لكن الفارقي، يا مولاي، لم يكن رجل سيف ولا عصبية، بل كان فقط رجل نصح وإرشاد.

– النصح الذي يكبل الأيدي ويتعبد التجريد لغو، والإرشاد في السياسة بما يلزم أن تكون خبط لا ينفع السياسة بما هي كائبة جارية. غير أن الفارقي لم ينله سيفي بسبب أفكاره التي كانت مصدر معاشه، بل لأنه أمسى يحيطني بظله الثقيل ويغلق عليّ بعبره وعظاته أبواب العمل، ويتدخل في شؤون وأسواق لا تعنيه.

– وقد وافقني السعد ذات يوم، يا مولاي، فحضرت لحظة رائعة من لحظات غضبك عليه، إذ نهرتة الحضرة قائلة: «لا عبرة إلا مما أحصله بالعاناة، ولا ماضي إلا ما أصنعه أنا بأعمالي وخواتمي وأثاري، فأضيفه إلى ذاكرة الدنيا عربوناً على بقائي بعد موتي». وسجلت في تاريخي حكمتك هذه بالقلم الجليل... والفارقي الآخر، مالك بن سعيد، قاضي القضاة، يا مولاي؟

– هذا القاضي، أخزاه الله، لو أنه نهض اليوم من قبره

لقتلته مجدداً. فأنت رأيت بنفسك يا مختار، حين وليتك على ديوان الترتيب، أنه كان يهتك سر مراسلاتي، ويطلع على الرقاع المرفوعة إليّ.

– هذا عين الصحة يا مولاي، ولكنك غفرت له هذه الجنحة، بعد أن أحطته بتكليف منك بإنذار مكتوب شديد اللهجة.

– وهل تظنه قد ارعوى وتاب؟ بل إنه عاد إلى غيه ومكره، مبتدعاً حيلاً وأساليب توهم أنها ستعمي «عيوني» وجواسيسي. وقد ثبت بالحجة والبرهان أنه كان يستغل النساء المتظلمات، ويساومهن بالفسق والزنى، بل ذهب الشيطان به إلى حد التسلل إلى حرمي، فأخذ يتفقد ست الملك بالملاطفات والغوايات. وقبيل أن أنزل به عقابي سألته ممتحناً عن الفرق بين الرجل والمرأة، فهل تدري يا مختار بم أجابني الفاجر الوجد؟ قال «الرجل له عورة»، وتابع وهو كمن تخبطه شيطان الشبق من المس: «وأما المرأة فعورة كلها».

ومال الحاكم على جليسه هامساً في أذنه كلمات، وهذا الأخير يقفر جالساً ويستغفر الله. ثم استأنف المسيحي سائلاً:

ما دمنا، يا مولاي، في سلك القضاء، فهل لي أن أعرف سر اختيارك للتحريق وسيلةً للتخلص من قاضي القضاة عبدالعزیز ابن النعمان، مع أن ضرب عنقه بالسيف كان كافياً للاقتصاص منه على ما أتاه من فضائح؟

– إنك، يا مختار، لا تعرف عن كبائره إلا أخذه للرشاوى والبراطيل، واستكثاره من التقلب والتحريض عليّ، وتعرف وقوفه في السر مع أبي ركوة وكل تائر ضدي. وهكذا كان أسوأ خلف لخير سلف، فحق فيه عقابي بالقتل، كما حق في

قريبه وشريكه في التآمر عليّ الحسين بن جوهري. وإنما أمرت
بتحريق جثته لأن الملعون كان يسرق اليتامى ويحلبهم، فحققت
فيه وعيد الله، وهو أعظم المتوعدين: «إن الذين يأكلون أموال
اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً».
وقف الحاكم فجأة، وتمشى في الظلمة قليلاً، ثم قال وهو
دون الباب:

– أظنك استوفيت حالاتك الثلاث، وأخذت مني ما تنور به
تاريخك.

– لا يبقى، يا مولاي، نور الله أعمالك، إلا قضية واحدة
لا مزيد لها، تؤرقني وتعوزني فيها أسباب الفهم والتعليل.
إنها قضية قتلك لقائدك الفضل، والذي ما قصر في خدمته لما
أن هزم جيش أبي ركوه ووقاك شرور خطر عظيم.

قال الحاكم مقاطعاً وذارعاً المنزل بخطوات متوترة:

– لا يحل لك، يا مختار، أن تقف ككافة الناس عند سطح
الأمور وسخيفها. فتعمق رعاك الله، وسترى أن انتصاري على
أبي ركوه لا ناقة للفضل فيه ولا جمل. ستري أن غلبتي إنما
تمت بما أرهقت به خزينة الدولة وخزائني كلها من نفقات
باهرة، جلبتُ بها الموالي والصنائع من بلدان وأجناس كثيرة...
تعمق وابحث، وستري اني ما قبضت على الثائر إلا لأنني
قايضته من حامية ملك النوبة بهدايا وموئن مختلفة. وكان
مجمل ما أنفقته يزيد عن ألف دينار ذهباً صناعاً. ولولا
لجؤي إلى هذه الحيل الأخيرة المتبقية في جعبتي، لما قاومت
جيش أبي ركوه واندفاعاته، ولولاها لما كنت هنا أشرح لك
وأفسر، يا أيها السطحي!

– صدقت يا أمير المؤمنين فاعذر قلة عمقي وقصور فهمي.

- وقتلت الفضل أيضاً لأنه اغتال من غيري أمري
أبا ركوة، فأتى أمراً إداً، إذ حال بيني وبين استقباله حياً، ولم
يخلف لي منه إلا رأساً لا يتكلم. أه يا مختار، كم رغبت في
مناظرة أبي ركوة والتحدث إليه! كم تلهفت إلى استظهار ما
عج به رأسه من رؤى وأفكار! لو تيسر لي ما منعني منه
الفضل، لو ناظرني أبو ركوة في خروجه عليّ واستمالني إليه،
إذن لكنت عينته لعهدي ولياً.

- وهل، يا مولاي، يصح هذا... شرعاً؟

- الشرع مع الأصلح والأفيد. ألم أعرض عن تولية ابني
الشرعي الحسن وأعين بدله ابن عمي عبدالرحيم بن إلياس،
مخلاً بتسلسل الإمامة في الأعقاب، ومفضلاً الأقوم على
الأعوج والأقدر على الأعجز؟

- بلى يا مولاي، وهذه قضية أخرى تستعصي على فهمي!

- إذن لو قابلت أبا ركوة وتيقنت من أنه أصلح من غيره،

لكنت قاسمته الخلافة وأوصيت بنقلها إليه بعد اختفائي.

ظل المسيحي مذهولاً لا يعرف ما يقدم وما يؤخر، فسأل

متمتماً:

- وهل أنقل ما تقوله الحضرة عن أبي ركوة؟

- افعل ما بدا لك، بل اترك عنك ما قلتُه، فقد لا تجد من

يصدقك إن أنت رويتَه. ولكن سجل عليّ في تاريخك قولي: لا

إمامة إلا للأجدر، لا إمامة إلا للأصلح.

- مولاي، وهل أضمن تاريخي في باب أبي ركوة ما نسبته

إليه من أبيات طلبتُ من شاعرك محمد بن عاصم نظمها،

وكلها في طلب عفوك ومغفرتك؟

- اذكر شيئاً يسيراً منها حتى أرى.

- هي قصيدة طويلة، لكنني اجتزيت منها مقطعاً صغيراً معبراً:
«فرتُ فلم يغن الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة
سوى فزع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمني إليك برمتي
كما هز ميت في رجا الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي
فيا رب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي
وأخذك منه واجب لك واجب»
قال الحاكم مقاطعاً غاضباً:

- اتق الله يا مختار، وخلص المهزومين الأموات من خيالات
الشعراء وأكاذيبهم.

- لكن يا مولاي، هذا النص المنظوم بالشعر والخيال،
سيتحول بالتدريج إلى وثيقة صحيحة يكرر نسخها حتى أقرب
المؤرخين إلى قيام الساعة. وأنا أراها من الأهمية والنفاسة،
بحيث يحسن روايتها كما تروى كل الوثائق التي بدأت خيالاً
ثم صارت تاريخاً.

- اتركها إن شئت لدواب التاريخ تتناقلها في أسفارها،
فهي جرعة من بحر. ثم من قال إننا لا نحيا كلنا في حلم مزعج
أو أكذوبة شاملة متواترة!

كان الحاكم يقول كلماته وقد تعدى باب المنزل وهرع نحو
مرصده، منقضاً عليه، مصوباً منظاره إلى السماء. وبعد مدة،
رجع إلى جلوسه في الظلمة، وردد كلاماً كأنما يناجي نفسه:

«السماء مثقلة بالنجوم، وكل نجمة على قفا أخرى قابضة.
وأما نجمي المشؤوم فقد أراني ذنبه...». وبعد أن تعب من
الترديد، هوى في سكون مريع لم يجرؤ المسبحي على تغييره أو
رفعه، فشرع يتربص فرصة خلود الحاكم الى النوم يهرب إلى
بيته. وما أن تنامى إليه أول الشخير حتى وقف وخطا كاللص
نحو الباب، غير أن زئير الحاكم المصحوب بكلمات التأنيب
أرجعه توأ إلى مستقره.

– إيه يا مختار، تغادرني من غير إذني، وتعجز عن أخذ
قسطك من أرقى وظلامي. قبح الله فرارك وسعيك!

– معذرة يا مولاي، لقد رأيتك مكفهرأ، ينوء عليك الغم
بكله.

– فأرخ لاكفهراري وغمي، فتفهم ميلي إلى الابداع وطي
الماضي.

– ورأيتك غارقاً في الصمت.

– فأرخ لصمتي وغرقي فيه، فترى اختمار أفعالي ومخاض
محدثاتي.

– لكني، يا ذا المواهب والجلال، لا أقدر على انتحال هذه
الصنعة الوعرة المتعذرة.

– إن كنت لا تحسنها فتعلمها كما تعلمت أنا فقه النجوم
واستنطاق البواطن والأنواء، وهل خلقنا لغير العلم والبحث عن
الأنوار؟ فيإلى متى يا مختار، وأنا لا أراك إلا على طول
أسمطتي ومحافلي، وفي ركوباتي إلى فتح الخليج أو تدشين
بنياني ومفاخري؟ وإلى متى وأقلامك لا تلاحقني إلا في
مجالس أسماري وأمور دولتي؟ هل التاريخ في عرفك إلا
اعراس وولائم تقام، وأشرطة رمزية تقطع، وسجلات ومراسيم

تكتب وتختتم! أليس الخلفاء والسلاطين كلهم قد حواهم هذا التاريخ، وجالوا فيه وصالوا؟ ألا ترى أن جوامعك قد تتسع حتى لأضعف سلطان بويهى كبختيار الذي كان يحول مجالسه مع الوزراء والقواد إلى نحيب وعويل وشهيق حزناً على غلام جُنَّ عليه وضاع منه؟ ألسنت أسألك بالحق؟
- بلى يا مولاي.

- إذن أين تركت تفردى وتألقاتي؟ وأنى لك بتاريخك أن ترصع بي ذاكرة الزمان والاجيال؟
- إني، يا مولاي، ما أوتيت من العلم إلا قليلاً، وفوق كل ذي علم عليم!

- علمك هذا قليل أكثر مما يلزم، وفقير إلى العمق والتأويل، وقد يضر كثيراً ولا ينفع.

- وما الحيلة في رفعه إلى ما تريده الحضرة وترضاه؟

- أن تجتهد، يا مختار، ولا تألو، وأن تؤول حتى تعرق وتتعب، وأن تفتح حواسك كلها لتجاوز القشور إلى الالباب وتلقي المعاني المفيدة والدلالات الجميلة. وإن بقيت دون هذه الأبواب، فأنت وأهل الظاهر والأوساط على حد سواء، لا تعلق على كرور الأيام ولا تفلح إلا بالصدأ والنفايات.

- وهب، يا مولاي، أني اجتهدت حتى نتأت عروقي واصفرَّ وجهي، فلم أجد غير ما وصفته، ولم أتدَّ إلى غير ما قيدته وأبرزته. فلا محالة أني راجع إلى رحاب متعتي واحتفالي: رحاب السلطة والجاه واللمعان؛ رحاب سألت البلاد عنها، فدلنتني على عاصمة ملكك، وسألت عاصمتك عنها، فأشارت إلى بلاطك يا مولاي. وفي هذا البلاد العامر وجدت ضالتي المنشودة، وجدت قبلة وظائف القلم والسيف والمال كلها مجتمعة على التقرير وصنع الأحداث. كل امرئ ميسر لما خلق

له، وأنا لم أيسر إلا لخدمتك يا مولاي، كما خدمت سلفك العظيم، أروي عنك وأحكي، وأرد كل شيء إليك. لذا تراني متعلقاً لا بالعامّة والطعام، ولا بمعاشهم وأعشابهم ومعادنهم الوضيعة، بل بالأحجار الكريمة والخيل المسومة والأنعام، وبالنباتات النادرة والنافعة في صحتك، يا مولاي.

– بلاطي، يا مختار، محل انجذابك وحماساتك بقدر ما هو مبعث دوارك وعماك عما سواه.

– لكن ولوعي بالبلاط وما يدور في فلكه من خيرات وأنوار لا يمنعني، يا وهّاب، من حشر من ترمز إليهم في هوامش عصيانهم، أو في الكوارث العظام والآيات الجسام، من زلازل وحرائق وقحوط وطواعين.

– تريد لذاكرة الرعية أن تزخر بي وتشع، وأن لا تجد حيثما ولت وجهها إلا وجهي.

– وكيف لا أريد لها ذلك، والعباد في بلادك الشاسعة قد فاضت عليهم تآلقاتك وامتحاناتك وطوّقتهم تطويقاً!

– لكن الرعية، يا مختار، هي اليوم غير ما عهدت وأردت. إنها أمست تكثر الدالة عليّ بالقدح والتقريع، وتنفضني من ذاكرتها نفضاً. ألم تر إلى بطائقها كيف تعددت وانتشرت، وإلى عرائضها كيف تلطخت بها حيطان المدينة والأبواب؟ لقد توقعت من رعيّتي كل مكروه إلا مكروه الطنز والنكته.

– التاريخ، يا مولاي، لا يكتب ببطاقات الرعايا وعرائضهم، ولا يستوي بأعمالهم وترهاتهم. التاريخ هو ما أكتبه وتمليه علي بتوجيهك وروحي من الذي استخلفك في الأرض علي العالمين.

– البطائق تهزأ بتاريخك يا مختار، وتثأر منك ومني.

البطائق تكتب تاريخاً آخر لا أراه يذكرني إلا بالهجو القبيح. لو قرأت بعضها لأدركت ما أخشاه، واحدة ترد نسبي إلى حماري، وثانية تدعي أنني أراود أختي عن نفسها، وثالثة تشهر بنظري إلى عورات الغلمان وصبيان الدار وترميني باللواط.

كان الحاكم كلما قال بمضمون بطاقة، مال على المسيحي وهمس في أذنه كلمات، فيقفز هذا الأخير جالساً ويستلطف الله. وأضاف الخليفة قائلاً:

- هذا فضلاً عن تلك التي تنفق أعتى البلاغات في تصوير جنوحي إلى سفك الدماء وهتك الأعراض. لو نظرت مرة في ما يحمله إلي مظفر في مظلمته من بطاقات الشؤم والخزي، لغرقت نفسك في النيل أو فكرت معي في سبل الانتقام.

- كلام الغوغاء، يا مولاي، يرد إلى الغوغاء، وبطائق الدعارة والبغي تعود بعد وجيز الوقت نسياً منسياً وهباء. وهذا ما علمنا التاريخ إياه، وهو خير معلم وأقوى دليل.

- ورطتي اليوم ليست مع التاريخ، بل مع نفسي المحزونة. لقد هنت يا مختار، وبخست وتجرثمت، فصرت أضمر صيحة لو أطلقتها لاهتز القصر والجوار، وأغذي فكرة لو نفذتها لأنت على مصر ومن عليها.

- لقد فات أن سجلت في تاريخي، يا مولاي، أن الحضرة في الربيع الأول من سنة خمس وتسعين وثلثمائة:

«أمرت بشونة تحت الجبل ملئت بالسنت والتبوص والحلفاء؛ فتخوف الناس كافة، من يتعلق بخدمة الدولة من الأولياء والقواد والكتاب، وسائر الرعية عن العوام. وقويت الشفاعات وكثر الاضطراب، فاجتمع سائر الكتاب والمتصرفين من المسلمين والنصارى، وخرجوا بأجمعهم في خامسه

إلى الرياحين بالقاهرة؛ وما زالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون، ويضجون ويسألون العفو عنهم، ومعهم رقعة قد كتبت عن الجميع، ثم دخلوا باب القصر وهم يسألون أن يعفى عنهم، ولا يسأل فيهم قول ساع يسعى فيهم، وسلموا رقعتهم لقائد القواد، فأوصلها إلى الحضرة، فعفوت عنهم وأمرتهم على لسان قائد القواد بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم؛ فانصرفوا بعد العصر. وقرئ من الغد سجل كتب نسخة للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود بالأمان والعفو عنهم،^(٣).

بدأت على الحاكم فرحة جنونية، وقال بلهجة حادة:

– نعم ما ذكرتني به يا مختار! وتتذكر أيضاً أنني أحرقت الشونة لتمتيع ناظرني بمشهد النار. كان الأمر لهواً ومزاحاً في تلك الأيام، أما نارِي المقبلة فلتعريض البطائق وصانعيها للإتلاف والانتقام.

– اضرم الحرائق يا مولاي، وأنا إلى جنبك أدونها بأقلام التحليل والتبرير تناسب المقام.

– وأهل مصر، مرضى التعلق بالحياة، إن أتوني حبوا كالزواحف الذليلة المقهورة، فلا عفولهم عندي هذه المرة ولا أمان... والآن يا مختار، والليل وشيك الاندثار، عد إلى بيتك وذويك، وفي الليلة القادمة ابحث عني في قبة الهواء، بل في صحراء الهرم، واصطحب معك حميد الدين الكرمانى، فإن لي به حاجة في تدقيق بعض المعاني.

ما أن أتم الحاكم كلامه حتى كاد المسبحي قد أدى تحياته منحنيًا، واختفى مهرولاً. أما الخليفة فقد امتد في ركن وغفا قليلاً، والعسس في الخارج يقيمون عليه حراسة متراخية.

*

في الليلة التالية، كان المسيحي والكرماني في الموعد بصحراء الهرم جالسين في خيمة أمام الحاكم، الذي كانت تبدو عليه علامات الطمأنينة والهدوء والميل إلى التأمل. ولم تكن هذه العلامات وليدة لطافة المناخ ورقة الأنسام فحسب، وإنما أيضاً بفعل الهيئة التي كانت للكرماني في علو جسمه وتوهج وجهه وعمق كلامه.

قال الحاكم بعد أن ملأ صدره بالهواء وترنح في جلسته:

- أهلاً بحجة العراقيين وفيلسوف الدعوة الفحل. ماذا دهاك طوال غيبتك عني، وأنا أحوج ما يكون إلى عارف بالحدود العلوية والسفلى وأعطش من رمل إلى ماء الحقائق؟
وضع الكرماني يده على قلبه، وألقى على سائله نظرة ود حزينة، وقال:

- مولاي إنني لا أنصرف عنك إلا إليك، ولا هم لي ولا شغل إلا الدعوة المباركة وإصلاح ما تداعي منها. فإني، والحق يقال، لا زلت أرى الديار والجزائر كما وصفتها للحضرة المقدسة منذ ما يزيد عن حولين:

«السماء قد أظلت بسحاب عميم، والناس تحت ابتلاء عظيم، والعهد في الرسوم السالفة قد نقض، وعن أولياء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض، والرسم في عقد مجلس الحكمة جرياً منهم بالاحسان قد رفض، والعالي قد اتضع، والسالف منهم قد ارتفع. وشاهدت أولياء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها. والناشئين في عصمة الإمامة وأولي ولانها قد حيرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التي تشيب لها النواصي، وبهرهم ما تجدد لهم من الأسباب التي لا يهلك بها إلا أولو النفاق والمعاصي، وهم يومئذ يموت بعضهم في بعض، ويرمي كل منهم صاحبه بفسق ونقض، تتلاعب بهم الأفكار الرديئة، والوساوس المردية، ثم لا يعلمون ما أظلمهم في الدخان المبين، ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين، فصار البعض منهم في الغلو

مرتقين إلى ذراه، والبعض في النكص على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه، والقليل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم، وما قبلوه من الدين باختيارهم وارتياحهم وهم على شفا انحلال وحوول واختلال، وأعناق أولي الطرفين من الأبالسة إلى اختلاسهم ممتدة، وهمها إلى اصطيادهم عن اعتقادهم محتدة، والآحاد منهم قد رضوا من أنفسهم لأنفسهم، إذ تخلصت نفوسهم مكثفين بقول الله تعالى «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم»^(٣٢).

قال الحاكم بامتنعاض غير مكتوم:

– لا تذردر الملح في الجرح يا حميد الدين، فهذا كلام اتاني منك بعد فوات الأوان، وتكرره الآن على مسمعي والأوقات صارت تعد عليّ والأنفاس. فكيف لي اليوم أن أفتح الصراع مع دعاتي وأنا مجد في إخماد قلاقلي وصراعاتي! ألم تر أني تركت الأعيان والكبراء يتغطرسون بأوسمتي وألقابي ويتمخثرون، فلم أعد أجردهم منها حتى يشتروها باستمرار مني؟ ألم تقرا سجل أمانى لأهل الذمة بالعودة إلى بناء ما هدمت من كنائسهم وإقامة أعيادهم وشعائرهم؟ تعبُّ أنا يا حجة، ومتشنج ومريض بأقوال ناس الفسطاط.

خرج المسبحي عن صمته ولفق جملة متلعثماً:

– حالة الإرهاق والإنهاك، يا مولاي، حالة يجربها كل عظماء الزمان ومدبري شؤون الأمم.

واستأنف الحاكم كلامه، غير أنه لكلام المؤرخ:

– أه كم هي عارمة رغبتني في عمر آخر، لا لكي أحكم، بل لكي أكتب وهل تدري، يا حميد الدين، ما أريد أن أسود به الأوراق؟ كل ما لم يدركه هذا المؤرخ ولم يره، وكل ما غاب عن أسفاره الثقيلة من صيحات كامنة وصدوع وحقائق... فعد

مثلاً إلى صباي لترى معي ما أراه: في بساتين اللؤلؤة سنديانة خالدة شامخة يقال إنها فرعونية المنبت والمرجع، كنت، وأنا دون العاشرة، أعتليها كل صباح وأقضي ساعات أطلي غصونها الفارعة بالدبق المبتوث بحبات الزرع، ثم أختفي وراء غصن ملفوف بالأوراق. فلا ينتصف النهار حتى تكون الغصون الدبقة قد اكتظت بضحاياي من الطيور والحشرات، فأخذ القرية منها فأخنقها أو أذبها، وأنال الأخرى بهراوة ساحقة. وكانت قطط القصر لا تتأخر عن اجتماعها من تحتي لولائم تأتيها من عندي، وكثيراً ما كنت أقتل القط المغالي في الأكل والسطو. وبقيت على عادتي هاته زمناً إلى أن أتاني ذات يوم بورجوان، فأنزلني من السنديانة وأخبرني بموت أبي، ثم وضع التاج على رأسي وقبل لي الأرض وبايعني هو والناس على الخلافة. وكنت، وأنا أخضع لمراسيم التنصيب، أودع الطيور والحشرات، وأتنازل حزيناً مكرهاً عن عرشي في مملكتها، طالباً عزائي وسلواني في أن يمنحني عرشي الجديد على الناس نفس المشاغل واللذات. هذه الذكرى التي لم يأت مؤرخي إلا بقشورها، أرغب في الانكباب عليها كتابةً لأنها فاتحة ما تعاقب عليّ من أحلام مزعجة وهواجس مرعبة، سعيت بها بين العباد، أرفعها عنهم عند الفرج والغبطة، وأحققها فيهم عند الشدة والظلمة.

أظهر الكرمانى بعض التضايق، ثم اعتصم بتؤدته ووقاره، وقال:

– مولاي، إني لا أرى، من جهتي، في هذه الذكرى إلا دليلاً آخر على أنك الإمام قائم الزمان، المخاطب في آية الله الكريمة: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم»، فما بُعثت إلا كما بعث الأنبياء والأئمة من

قبلك، تُحَيِّرُ بأفعالك الأفهام، وتمتحنُ بها بواطن الأنام.

– كلامك يا حميد الدين، ككلام كل الحكماء، يأتي وقت الأفعال وبعد الأوان. أين نحن الآن من حدودنا العليا والسفلى؟ أين نحن من موجوداتنا وعقولنا وأفلاكنا؟ أين نحن من مرموزات أحاديثنا وأعدادنا، ومن حسابات جملنا؟ تصدع الصرح يا حجة، وهوى عالمنا الجرمانى فوق رؤوسنا فقاعاتٍ وطيوفاً فانية.

– وحقّ من لا ضد له ولا مثل، المستحيل على الحواس والإدراك، ما أضعف الدعوة إلا دعاة الغلو والطمع والشره، أولئك الذين يستظلون بنور الحضرة ويقضون الأمور عوجاً، يجوبون الجزائر والديار وألسنتهم تلوّث قول إمامنا جعفر الصادق: «ومن مضت له سنة فلم يصلنا من ماله بما قل أو كثر، لم ينظر الله عز وجل إليه يوم القيامة، إلا أن يعفو»، ويضربون عن ذكر قوله: «من أذاع سرنا، ثم وصلنا بجبال من ذهب، لم يزد منا إلا بعداً»؛ ومن أذاع سرنا ونشره على الأرصفة والشوارع غير دعاة الخروقات والمستحيلات! من غيرهم عرضوا دعوتنا للقدح ولدوس أقدام الناس والدواب! من كبيرهم إلى دنبيهم تراهم يغطون بأن شعر مولانا دليل على ظواهر التنزيل، وصوفه دليل على ظواهر التأويل، وحماره دليل على أنه الناطق، وغير هذا من الترهات التي يتلقاها المصريون بالهزل والتنكيت.

كان الحاكم شارد الذهن وبرما بما يسمعه، وقال مقاطعاً:

– لا تحدثني يا حجة في المستحيل على الإصلاح... ثم إن الأخرم مات مقتولاً، وحمزة والدرزي فرّا بالعقيدة إلى جبال الشام، فلا أمر لي اليوم ولا أزمة إلا مع نفسي الكلية. وهذه

النفس باتت تعذبني وتسألني: «أيها المودع للحكم الزاهب نحو الختم، هل في عهدك لما سستَ وافقتك النجوم وأجرام الفضاء، أو فاضت عيناك - يوماً - دموعاً وفرحة، وتمَّ لك الابتسام؟ هي أنتك لحظة خفتَ فيها ورفرفتَ جالباً إليك الحمام، أو كنتَ كمن ضاجع وانتشى فراح ينشرُ السلام؟»، وهل لي، يا حجة، أن أجيب بغير الحق؟ والحق المحصل الذي لا غبار عليه ولا تزويق، أني عشت، طوال حياتي الهوجاء، أحمل في رأسي عبء نعش السماء، وأؤدي دوار الفصول نزيهاً وعيائاً... ليس لمن يغوص ويتعمق أن يحكم ويسوس، ليس لمن يوغل ويفور أن يبقى في أوساط الأمور، أو عند حدود العموم. الحق، يا حجة، أني دخلت في التضاد ونزلت حتى صرت طرفاً فيه وليس سيداً: ضربتُ الرعية بأيات، فرمتني بأضعافها؛ أقمت أعيادي ومواسمي فأقامت نقائضها؛ دفنت الأخرم بالتكريم، دفنت قاتله بتكريم لا يضاهي. أنا لها وهي لي بالمرصاد، تبادلني الجد بالهزل والردع بالبطاقات.

بدا الكرمانى قلقاً لما آلت إليه نفس الحاكم الكلية، وخائفاً مما قد يأتيه من جديد الأفعال المظلمة، فاستجمع قواه، وقال محاولاً ما استطاع تهدئة الخليفة وتلطيف خاطره:

- لم يضع بعد كل شيء يا مولاي. لك أن تطوي الماضي بما عليه، وأن تبعث إلى رعيتك بدعاة جدد توصيهم ما أوصانا به إمامنا الصادق: «حبيبونا إلى الناس، ولا تبغضونا إليهم». ولا تنس أن تتمثل دوماً حديث نبينا المصطفى عليه السلام: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم، فيخرج من ذريتي من يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً». وهذا حديث عزيز جليل، كافٍ وحده لإمداد مولاي بالفرج بعد الشدة والامل بعد اليأس.

نهض الحاكم واقفاً، وخرج إلى عتبة الخيمة حيث شرع يملأها بخطوات عصبية، وقال:

– الرعية، يا حجة، لم تعد من الصنف الذي يطبق انتظار العدل إلى أخريوم في الدنيا، ولم تعد تريد امتحاناً ولا اختباراً، الرعية اليوم صارت تستعجل العزة والانصاف، وتطلب التمتع بالانعام حالاً. وأنا ليس لي حيلة معها ولا قوة. فهل أخرج فأخاطبها كعيسى: «أنا ابن من في السماء»؟ أو أهددها صائحاً: أنا الطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور. أنا صاحب البعث والنشور. أنا إمام المتقين، والعلم المبين، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين...؟ والله، لو فعلت هذا وما شابه لتلقاني السكان بالتطيل و«التغييط»، مرددين كلامي بلحن الاستهتار والتنكيت، راقصين بالبطن وعلى «واحدة ونص». إذن كفانا لغواً ومناظرة! ولا مفر لي ولا مخرج من أن أكون النار المتقدة، التي تطلع على الأفئدة... غداً يا مختار، إلحق بي ليلاً في الجبل المطل على الفسطاط العاقبة الملعونة، فتكتب ثمة أروع صفحة من تاريخك... أما أنت يا حميد الدين، فيؤسفني عجزك عن إراحة عقلي وشفاء كربى وغليلي. فتعلم، رعاك الله، أن تأتي بأفكارك في الوقت ومع الأوان، لا خارج الفعل وأحكام الزمان.

كان الحاكم، وهو ينطق بأخر كلماته، قد امتطى جواده واتجه نحو قصره، متبوعاً بعسسه وركابيته، تاركاً جليسيه يؤديان التحية في حيرة وذهول.

*

في عشية اليوم الموعود كان الحاكم في جبله كالمجنون، يشبع الأرض خطوات وركلاً، ويوجه نحو الفسطاط إشارات

التوعد والتهديد. وحين يكلّ ويتعب يتهاوى قاعداً، ويهمهم
قائلاً:

في هذه الليلة بين أحضان هذا الجبل:
سأسكر سكرةً عاليةً غريبة،
أحبُّ بها وأهوى نيرانِي الحبيبة.
سأسكرُ بالفقاعِ وشَتَى الأعشابِ العجيبة،
ودوحي في برجها يبلورها أريجُ النَّبْتِ وضوءُ القمرِ،
وتؤنسها الحشراتُ والطيروُ وصمتُ الحجرِ،
سأسكرُ حتى أستوي ويثورَ وجدي،
فأعطي للعبيدِ بعضَ ما عندي،
ثم امتحن الناسَ في الباطنِ والبيوتاتِ
بلهبِ ناري وأجيجِ عَجَاجِي،
تقودُ خطوي بينهم روائحُ القدحِ والبطاقاتِ.

ولما نزل الظلام وخيم، كان الحاكم سكران حتى الثمالة،
وأكابر العبيد على مقربة منه، ينتظرون أوامره إليهم وكلامه.
وردد الحاكم مع نفسه مراراً: «فرق تسد، واضرب فريقاً
بفريق يدعوك كل الفرقاء إلى حضرة التحكيم فالحكم بأمر الله
وأمرك... هكذا الرأي الآن والسلوك!»، ثم صاح بأعلى صوته:
«يا أيها العبيد، مهدوا لي مصر، وسووا أعوجاجها. فهي اليوم
لكم لكي تحرقوها وتنهبوها، انتقاماً لما اقترفته في حقي من
فادح الهزل والسخرية، ولا خلاص لها مني ومنكم وقد تفرعن
أهلها عليّ وتناولوا. ولو قدرت لأرسلت عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم، أو لتركت جلودهم كلما نضجت
بدلتهم جلوداً غيرها».

«واستدعى القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار

ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها، فتوجه إليها العبيد والترك والمغاربة وجميع العساكر، وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم. وأوقعوا النار في أطراف البلد، فاستمرت الحرب بين العبيد والعامّة والرعية ثلاثة أيام. والحاكم يركب كل يوم إلى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع، ويقول: لعنهم الله! من أمرهم بهذا؟ فلما كان اليوم الرابع اجتمع الأشراف [والشيوخ] إلى الجوامع ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء، فرحمهم الأتراك ورفقوا لهم وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم، وكان أكثرهم مخالطاً لهم ومداخلاً ومصاهراً، وانفرد العبيد وصار القتال معهم؛ وعظمت القصة وزادت الفتنة، واستظهرت كتامة والأتراك عليهم، وراسلوا الحاكم، وقالوا: نحن عبيد ومماليك، وهذا البلد بلدك وفيه حُرْمُنَا وأموالنا وأولادنا وعقارنا، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة. فإن كان هناك باطن لا نعرفه فاخبرنا به، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون والمخالفون. فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، ولعن الفاعل له والأمر به، وقال: أنتم على الصواب في الذب عن المصريين، وقد أذنت لكم في نصرتهم، والايقاع بمن تعرض لهم. وأرسل إلى العبيد سراً يقول: كونوا على أمركم؛ وحمل إليهم سلاحاً قواهم به. وكان غرضه في هذا أن يطرح بعضهم على بعض، وينتقم من فريق بفريق. وعلم القوم بما يفعل، فراسلته كتامة والأتراك: قد عرفنا غرضك، وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم؛ وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المهج، ولئن لن تكفهم لنحرقن القاهرة، ونستنفرن العرب وغيرهم؟ فلما سمع الرسالة، وكانوا قد استظهروا على العبيد، ركب حماره ووقف بين الصفيين وأوماً للعبيد بالانصراف فانصرفوا، واستدعى كتامة والأتراك ووجوه المصريين واعتذر إليهم، وحلف أنه بريء مما فعله العبيد، وكذب في يمينه، فقبلوا الأرض بين يديه وشكروه، وسألوه الأمان لأهل مصر، فكتب لهم، وقرىء الأمان على المنابر، وسكنت الفتنة وفتح الناس أسواقهم وراجعوا معاشهم، واحترق من مصر مقدار ثلثها، ونهب نصفها. وتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم، وابتاعوهن من العبيد

بعد أن فضحوهنَّ، وقتل بعضهنَّ نفوسهنَّ خوفاً من العار. واستغاث قومٌ من العلويين الأشراف إلى الحاكم، وذكروا أن بعض بناتهم في أيدي العبيد على أسوأ حال، وسألوه أن يستخلصهنَّ، فقال الحاكم: [انظروا] ما يطالبونكم به عنهنَّ لأطلقه لكم؛ فقال له بعضهم: أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا، فقد اطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة. فحلّم عنه الحاكم وقال له: أنت أيها الشريف مُخرج ونحن حقيقون باحتمالك وإلا غضبنا عليك وزاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالاً بعد حال من كل ما تنخرق به العادات وتفسد الطاعات،^(٢٣).



قضى الحاكم أياماً في قصره قرير العين ظاهرياً، وحال نفسه أميل إلى انشراح مهزوز وهدوء مشوب بالحذر. فكان يكثر من الجلوس في دهن البنفسج، مردداً منشداً:

هكذا يتأتى تضيقُ الجرحِ وذاكرةُ الهوان،
بذاك المنظر المكتظ بالنيرانِ الطليقة المتقدة،
بهذا الهبوطِ إلى الذعرِ المستبدِّ بالوجوهِ والأفئدة،
وهذا العقابُ بالدخانِ والهشيمِ واندلاعِ الأرمده.

II

السلطانة ست الكل

«ونظرت ست الملك في أمور الدولة بعد قتل الحاكم أربع سنين، أعادت الملك فيها إلى غُضَارته، وعمّرت الخزائن بالأموال، واصطنعت الرجال. ثم اعتلت علةً لِحِقِّهَا فيها ذَرْبٌ فماتت منه. وكانت عارفةً مدبِّرةً غزيرةً العقل».

ابن الصابىء، كتاب التاريخ، المذيل به على تاريخ ثابت بن سنان.

«ورببت ست الملك له (الحاكم) من اغتاله في بعض مقاصده وأخفى مظانه، فأتى عليه وأخفى أمره إلى أن ظهر في عيد النحر سنة ٤١١. وقال المغالون في المذهب إنه غائب في سره ولا بد أن يؤوب ومستتر في غيبه ولا بد أن يرجع إلى منصبه ويثوب».

ابن القلابسي، ذيل تاريخ دمشق.

كانت ست الملك بنت الخليفة الفاطمي العزيز بالله تحتل في قلب أبيها مكان الصفو والصدارة، إذ كانت في حياته قرّة عينيه ومعبودته بعد الله، وكانت ملاذه ودرعه الواقى كلما غزته الهموم وأشكلت عليه القضايا. ولما توفى العزيز وتولى العرش بعده ابنه أبو علي منصور الحاكم بأمر الله، كانت ست الملك في العهد المظلم لأخيها هذا (من أبيها) ما زالت تسطع بآيات جمالها وذكائها وكياستها، وكان نجمها يشع بالآمال العريضة ليس على المصريين المقهورات المحبوسات فحسب، وإنما أيضاً على كل طبقات الشعب التي أحببتها وسمتها: ست الملك والسلطانة وسيدة الكل.

جمالها!

لقد قال فيه الشعراء شعراً سار به الركبان، وردده السمار والمتماجنون في حلقاتهم ومنتدياتهم، ولم يكن أي أحد من كل هؤلاء ولا من العشاق المتناوبين على ست الملك يجروء على ذكرها بالاسم، مخافة أن يصيبه بالشر ذريع الفتك، سريع الانتقام، أخوها صاحب الصولة والحضرة، فكانوا يرمزون إليها بأسماء شتى منها: كنز البهاء وفتاة الشروق والوجه المفدى... وقد تنافسوا في وصفها بالمجدولة وفي ذكر جودة

قدما وحسن خرطها واعتدال منكبيها واستواء ظهرها. وشبهوا عينيها بعين الغزال أو عين الظبية، وعنقها بإبريق فضة، وساقها بالجمارة، وشعرها تارة بالحرير الوافر التيهان، وطوراً بالعناقيد في الفصل المعطاء. وانضاف إلى الشعراء المتبارين، الناثرون والسجاعون، فقالوا فيها: «خمصمانة وسيفانة وكأنها جان، وكأنها جدل عنان، وكأنها قضيب خيزران». وصوروها تصويراً نبوياً وقالوا: «يرى ساقها من وراء اللحم من الحسن». ويروي بعض الغلاة: قد نظر بعض الكفرة إلى وجه ست الملك فرأوا في صنعتها دليلاً على وجود الصانع، فأمنوا بالله واعتنقوا ملة التوحيد والأنوار الفاطمية... وأما من لم يؤت من بلاغة الوصف شيئاً ولا من باع فحول الشعراء قسطاً، فكان لا يملك إلا أن يقف عند كل طرف وعضو من جسدها المبارك ويقول: الله! سبحان الله!

كانت ست الملك - بشهادة كل من تشرف بمجالستها أو مقاربتها - كلما ظهرت، فمرت أو تكلمت، تضوعت منها نفحات الطيب والمسك، أجمع الكل على أنها من نفحات الجنة والدوحة الزكية. كما أنهم أجمعوا على أن مبعث كل هذا الشذا ليس عطوراً صناعية، بل هو جسمها الفذ الوضاء، وما تحفه من روائح الجنان المحيطة بقصرها الصغير. فكان كل من أقبل عليها خاطب نفسه مبهتجاً: «أكلُّ هذا الأريج لي؟!»، وتهافت على التوقيع لها في سفر الطاعة والاعجاب. ومن أبرز الموقعين وأفخمهم نجد الحسين بن دواس، زعيم كتامة، وأبا الحسن عمار خطير الملك، وهو كبير الوزراء، ومظفر صاحب المظلة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وغيرهم... وبالرغم من أن ست الملك كانت تحجم عن صرف اهتمامها إلى ما يقال فيها من أشعار، فقد كانت بعض القصائد المتألقة

تتناهى إلى سمعها نتماً وتفاريق مضيئة. فكانت تتلطف
ببعضها وتسمح لذاكرتها أن تلوي على أقربها إلى الصدق
والحياء. ومن قصيدة ضاع معظمها وغاب صاحبها وراويها،
كانت ست الملك في لحظات خلوتها أو حزنها تذكر منها بالهمس
جمرات وشظايا:

عن الفارسِ ذي الخالِ الذي راودَ الورد،
قال جننكم بعد موسمِ السقوطِ والظلمة:
أخبرُ أن الزمهريرَ لن يظلَّ جاريَ المفعولِ
ولا القحطُ قويُّ القبضه،
أناشدكم يا أحبه
أن تنسفوا العبثَ الذي يحكمُ خطوكم خطوةً خطوه،
أناشدكم بالبحرِ وربُّ الكعبه...

عن ذي النونِ الهمزة صاحبِ الحالِ والخرقه،
عن أكلِ الشعيرِ في صحونِ الغربه،
عن العاشقِ الذي فقدَ المنديلَ والفرجه،
عن القزمِ الطروب،
عن دفترِ فحلِ معطوب،
قيدَ فيه قبلَ أن يموت:
عن الفارسِ ذي الخالِ المتوقِّ بجوارِ الورد،
قالَ والركبُ يحطُّ الرحالَ في ربيعِ المشقه،
قالَ والشمسُ تفوت:
أينَ مني الآنَ الكتابُ المحروق؟
أينَ أبعدَ الليلُ الحجريُّ عني فتاةَ الشروق؟
عقلها ورزانتها!

لم تكن ست الملك متطرفة الوعي بجمالها ولا مستغلة إياه

في علاقاتها ونفوذها. ذلك أنها كانت تنظر بما أوتيت من العقل والرزانة إلى ما هو أعظم من حسنها، وتروم ما هو أنفع وأبقى، أي هذه المبادئ والأصول التي قامت عليها الدولة الفاطمية، وكان يطيب لها أن تسندها إلى فاطمة الزهراء على ذكرها السلام، وتميل بها جهة العدل والنور والتوحيد... كما أن من آيات تعقلها ورزانتها أنها كانت السباقة إلى مبايعة أخيها الحاكم بأمر الله - رغم صغر سنه -، وصارت أول عهده تُكِنُّ له المحبة وتتفقدته بالملاطفات وسديد الرأي وتبادره بأروع الهدايا وأنفسها، وذلك سعياً منها إلى الاحتفاء بصعوده إلى الكرسي والتعبير عن غيرتها على دولة فاطمة الزهراء. ومما يذكره المؤرخون أنها أهدت لأخيها - وقد بويع له بالخلافة - «ثلاثين فرساً مسرجة، أحدها مرصع وآخر بلور وبقيتها ذهب، وعشرين بغلة مسرجة ملجمة، وخمسين خادماً، منها عشرة صقالبة، وتاجاً مرصعاً، وشاشية مرصعة، وأسفاطاً كثيرة من الطيب، وبستاناً من الفضة مزروعاً من أنواع الشجير»^(٢٤). ولم تأخذ ست الملك في النفور من أخيها وكرهه - من غير أن يفقدها هذا الشعور المرير عقلها ورزانتها - إلا بعد أن أيقنت من نزوعاته الطفيانية المتأصلة، وغرائزه الدموية الفياضة. فأمست تتلوع كمدأ وحسرة وهي تراه يغالي في الفتك من غير حق بالأنفس التي حرم الله، ويعبث بالإرث الفاطمي الروحي، وينسفه بهواجسه وأفعاله المظلمة، معرضاً حياة الدولة كلها للتلف والاندحار.

*

جمال ست الملك: سبحان الله! لم يكن توالي الهموم عليه يزيدُه إلا هيبه ووقاراً. فلا اشتعال بعض الشعرات في رأسها

شيباً قلل من أعداد المولهن بحبها، ولا التجاعيد الزاحفة على
وجهها أطفأت نور البشر في ابتسامتها وعينيها. أما عقلها،
سبحان الله! فقد كان يتحنك بالتجارب ويتعاضم أمام تكاثف
ظلمات الحاكم أخيها واشتداد المحن والأزمة. وفي انتظار أن
تتهياً أسباب الفرج بعد الغمة، كانت ست الملك تغالب ليالي
الأرق بالصلوات والدعوات وبالانقطاع إلى التفكير والتهيب.
ويتخلل كل هذا بين الفينة والأخرى فورات مناجاة تهمس بها
في السر على ضوء الطمع في النصر والانعقاد، فكانت تقول:

يا شيعة الشهداءِ عبرَ تواريخِ المحنِ:
وجهُ سيدِ الأحرانِ في بؤرةِ الوحلِ،
ونساءُ أمتهِ محبوسات، يشتكين من القهر في البيوتات،
ويأتي الحيفُ عليهنَّ بالكربِ والذبولِ، ويأتيهنَّ بالمللِ.
يا سيدَ الشهادةِ والأحرانِ:

لو عرفتَ احتراقَ البساتينِ من الأسي.
وانهدامَ الوجوهِ بينَ الجدرانِ!

وكانت تقول:

يوم صحوتُ على أصقاعِ الذعرِ ومجزرةِ الإنسانِ،
لم يبقَ يا عليّ في امبراطوريةِ العدوانِ،
لم يبقَ إلا وجهُك شعلهً جنةً وخريطةً عدلٍ،
لم يبقَ إلا الجهادُ وأنتَ،
وأقوالُ عن الخلاصِ من الدخانِ أرويها عنك، بدونِ
إسنادٍ،

يا متني ويا سندي.

وكانت تقول:

خلاصةُ عهدِك يا بنِ أبي مقبرةٍ شاسعةُ الرحابِ:

الخصاصة وضيقُ الحال،
والقتلُ يا مولاي والارهاب.
هل أتاك حديثُ الرعبِ والمصادرات؟
هل أتاك حديثُ الحصارَات؟
مولاي الحاكمِ بالبغي: أه ثم أه ثم أه!
شعبُ مصرَ والمغربِ والشامات
لا بدُّ يوماً أن يحتلَّ الشوارعَ والسطوحَ في أرضِ الله،
ويشرِّعَ باسمِ العدلِ والتوحيدِ،
ويحطم - باسمِ الله - أوثانك، يا مولاي.

*

هكذا تولد لدى ست الملك عزم عارم على طلب الانقاذ
والخلاص، مدفوعة في ذلك بروى منامية: كانت تظهر لها فيها
فاطمة الزهراء، وهي توصيها بدولتها خيراً، وتقول بالتوصية
إلى أن يطل الفجر بسدوله الذهبية، فتغيب في الأفق المشتعل
بالتباشير، مخلفةً في ثناياها حزامها المقدس.

لقد تداولت على ست الملك ليالي الأرق والتخمين، وكان لا
يأتيها شيء من النوم إلا ومعه طيف فاطمة الزهراء ووصاياها.
بل إن فاطمة أصبحت تتجلى لها حتى في أحلام يقظتها،
محفوفةً دائماً بنفس هالات القدس والبهاء، ويصحبها تارة
قوس السحاب وطوراً شتى كواكب اليمن والسعادة.

في المرة الأخيرة من تجلياتها، أضافت فاطمة إلى وصاياها
وصية جديدة، بحث فيها ست الملك بالذهاب إلى أخيها
الطاغية قصد ترغيبه في الإقلاع عن شذوذه وأفعاله الظلامية.

بعد الإمعان ثم التحقق من حصافة الوصية وسداد
مرماها، أقبلت الست على تلبيتها في صبيحة يوم مشهود، حيث

كان لها مع الحاكم بأمر الله، بعد أن اقتحمت عليه غرفته في قصره، حوار خطير ينبىء بالسوء ولا تحمد عقباه.

قال الحاكم وقلبه يغلي من الغضب:

– واحرق قلباه من عقوق أخت عصية! فلا أنت يا قصية سبرت غوري، ولا أنا فقأتُ سرك. تحضرين بين يدي من غير أن أدعوك إلي، أنت المصفوطة التي تريد الانفجار، والسم الذي يتحين الفرصة. أنت العار في دولتي وجبيني. هيا يا بنت النصرانية: سرحي أسراك السوداء، وانفجري قبل أن يهيج عليك غيظي!

وردت ست الملك، وكلها ميل إلى تمالك أعصابها وتحكيم عقلها:

– «الصمت في دولة الطواغيت عبادة»، هكذا قال مولانا الإمام جعفر الصادق، لكن كيف أصمت، وأنا من ضلوع هذه الدولة، يا بن أبي؟ وكيف لي أن أريح نفسي بحسن الظن وقلّة التوهم، وأنا أعمّر الأوقات كلها بالصبر عليك، وبانتظار ما لا يتأتى ولا يأتي. خوفي، يا أخي، ليس من موتي ولا من كونك، لا محالة، ستعصف بي. خوفي أن يكون خراب هذا البيت على يدك، وأن تعين الأعداء على حتفنا وحتف إسلامنا من حيث لا تدري.

وصرخ الحاكم مقاطعاً وشظايا السخط والحنق تتطاير من فمه:

– وأنى لك أن تغاري على البيت، وقد رفعناه على أسس وأعمدة من صلب وحديد! أتركي ما ليس لك به علم، وحدثيني عن بيتك أنت وقد حولته إلى بيت دعارة، تدخلين إليه الرجال

والعشاق المتناوبين عليك، وتمكنينهم من فرجك المهتوك
وجسمك الملعون. وقد بلغني أن شاعراً فاسقاً كنت تواصلينه
بالملاطفات والتفقدات قال فيك كلاماً مطلعته: «كم تنهدت لنهدٍ
أتى تائهاً بأكله المتألق»، وغير ذلك من الفضائح. لقد كان عليّ
أن أخدم أنفاسك منذ أعصرتِ وقنّب صدرك الفاجر وماتت
فيك الفتاة الخريذة الخروعة الطيبة!

قالت الست والدمع يملأ عينيها، رغماً عنها، والله رغماً
عنها:

– ويحك يا بن أبي! إن كنت تريد قتلي فلك الذرائع كلها،
أما أن تدنس شرفي فلا وألف لا.

وردّ الحاكم وملامحه ونبرات صوته لا زالت تستشيط
غيظاً:

– عبثاً تسكبين كل هذا الدمع عليّ! لم يعد لي معك كبد
لتقطعيه، أو قلب لتستميلييه. وحق فاطمة الطاهرة الشريفة،
لأبعثن إليك غداً بالقوابل لاختبار بكارتك والتنقيب في بطنك
المحروث عن أجنة الزنى والحرام، فإن أكدن ما يأتيني به
الجواسيس والعجائز، كان هلاكك من صنعي بلا تردد ولا
رحمة. والآن اغربي عن ناظري، قبل أن يسبقني غضبي إلى
سيفي، وسيفي إلى عنقك.

غادرت ست الملك القصر الحاكمي قاصدة قصرها الصغير،
وقد تيقنت بما لا يقبل الريب أو الحجاج أن أخاها ميؤوس
منه، وأن لا مطمع في فطمه عن الشر ولا إصلاح لما جبل عليه
من طغيان وجبروت. وقد أتاها ليلاً صوت فاطمة الزهراء
ليوافقها على ذلك اليقين ويحثها على الإسراع في تدبير أنجع

سبيل لاستئصال الداء من جذره، قبل فوات الأوان وحلول
الهلاك.

*

لما طلع فجر الغد ولاح، كانت ست الملك قد أعدت للتخلص
من أخيها خطة محكمة العرى والوسائل، فاختارت رأس
رمحها في شخص سيف الدولة الحسين بن دواس، زعيم قبيلة
كتامة التي عانت الويلات وأصابتها الخسارات في عهد الحاكم
بأمر الله. فما كان منها إلا أن قصدت بيته ليلاً، متنكرة ولا
يصحبها أحد؛ وعندما ظهرت أمام ابن دواس وخلعت لثامها،
سجد لها وقبل الأرض بين رجليها مرات حتى أمسكت كتفه
وأمرته بالنهوض، ففعل. قال وقلبه يكاد يطير من الفرح
والدهشة:

— أكلُّ هذا الأريج لي! إني والله سأقضي مدة أنام على
ذكرى هذه الزيارة الميمونة، مرتاحاً، مطمئن الخاطر، لا
تلاحقني فيها سيوف الحاكم أو سمومه. لقد انزاح عني
الكابوس، فأنا الآن أتنفس ملء رئتي هواءً ما أبعد عهدي به!
هواءً كلّه طيب وسلام، أنت مبعثه ومفخرته.

قالت ست الملك:

— لك الخيرات يا سيف دولتنا، يا سيد القبيلة التي لولاها
ولولا شوكتها وشهامتها لما قامت لدولة الفواطم قائمة في
المغرب ولا في مصر والشامات. يا أنت الذي تُلخص فيك إباء
قومك وعزتهم، وأرى في سلهامك الذي ارتاد البحار ولثم
الأمواج شراعاً خفاقاً لسفينتنا المبحرة ضد العدى والفجار. يا
حسين، يا أنت اليوم! يا أنت الذي ضيعت مجاذيفك
مستنقعات الحاكم السفاك، فصرت لا تروم إلا التملص

والفكاك! كذا الحق زهاق! فإلى متى وأنت تشهد مذعوراً سيل
الدماء المهدورة والرؤوس المضروبة من غير علة ولا استحقاق؟
وإلى متى وسلاحك يا سيف الدولة يرقد في غمده ويبلى
ويتقعر؟

قال ابن دواس:

- كلماتك، يا مولاتي، من ماء الزهر وشذا العنبر، تنسج لي
رداء الهمة والدفء وللدولة رداء. فكأنني بغيث الخلاص قريب
النزول، وكأنني بغمي يعب منه قطرات الرحمة والشفاء!

قالت ست الملك:

- صدقت يا حسين وصدقت رؤياك، إن للغيث موعداً
وشيكاً يروي عنده فروج أرضنا العطشاء، ويزيل عن نفوسنا
الهم العضال، ويصير الماء في نيلنا رقراقاً معطاء. ولا سبيل
للتعجيل بالموعد والانهتاك.

سقط ابن دواس على الأرض مقبلاً رجل ست الملك، متعلقاً
بأذيالها وطالباً منها إعفاه من هذا الأمر الوعر، وقال مرتعداً:

- الخطب يا مولاتي عظيم، وخوفي من العجز والرسوب
أعظم! والحاكم، من كثرة ما طفى وأزهق الأرواح، قد لا يجد
اليوم من يقدر على مبادرته بضربة قاتلة، ولو من بعيد بالنبال
أو بحجر المنجنيقات وكور المدافع.

ردت ست الملك وقد انكبت على محاورها وسيجت رأسه
بأذيالها:

- ويحك يا سيف الدولة! هل تظن أنني لم أضرب حساباً
لمخاوفك؟ إنني لا أريد ليديك أن تتلطخا بدم الحاكم، ولا حتى
أن تحضر بمكان سفكه. كل ما أنت مأمور به: أن تنتقي من

بين عبيدك عبيدين لا يعرفان وجه الحاكم، وتثق بطاعتها
وبإقدامها وشراستهما. وعليك أن تنجح في إيهامهما أن ثائراً
على سيدهما الخليفة يريد به سوءاً سينتظره ليلة غد في شعب
جبل المقطم، راكباً مثله حماراً أشهبَ ومتنكراً بزيه وعاداته.
وعدهما بالأموال والاقطاعات الكثيرة والمناصب الرفيعة إز
هما أتيا برأس الثائر وأمعائه في كيس ودفنا في جوف الأرض
جثته وجثة حماره وجثث من في صحبته. وما إن يتوقفا في
المهمة حتى تقدم على إحراقهما، فلا يبقى السرقائماً إلا بيني
وبينك. ولك ما دمت حافظاً إياه في صدرك أن ترى نفسك تنعم
بالخيرات جميعها، وأنت تدير دفة الحكم ومقاليد في ظل
خليفة الحاكم الذي ساعينه، وأما أنا، فإني لن أكون غير ما
كنت: امرأة من وراء حجاب.

لم تترك ست الملك لمحاورها في مجال التخوف والاعتراض
مخرجاً، بل لقد أخذ يثني على ذكائها النوراني وتنزه خطتها
عن كل عيب وكل زلل. ولما أيقنت من كونه فهم الأمر وأدرك
وجوهه برمتها، وضعت على أذنه قبلة، وأخرجت من كمها
سكينين ماضيين وسلمتهما إياه قائلة:

– إنهما من صنع مغربي، وإن ثقتي بقوتها في الفعل
والحسم لكبيرة...

– وأخيراً استوت على قدميها، وانصرفت وابن دواس
يشيعها إلى الباب مردداً آيات السمع والطاعة، وواعداً إياها
بالكيس في ليل غد عند زواله وظهور أول الأشعة.

*

في هذه الليلة التي دبرت فيها ست الملك خطة مؤامرتها
وأوكلت إلى سيف الدولة مهمة تنفيذها، كان الحاكم قد ركب

إلى بركة الجب في شمال شرق القاهرة، وسأل هناك عن آخر قافلة الحجيج التي ودعها منذ شهر ولم يعد أصحابها، فقبل له: إنهم طلبوا اللجوء إلى الكعبة وظلوا معتصمين بها: وسأل عن الهدايا وحقوق الزيارة التي أرسلها معهم، فقبل له: إن لصوص القرامطة قد اعترضوا طريقهم وسرقوا كسوة الكعبة والقمح والدقيق والزيت، وحتى الشمع والطيب. وضرب الحاكم على فخذه، وقال:

— كنت فيما مضى قد قررت منع الحج على المصريين، ثم ألغيت قرارى، وأنا أعود إليه اليوم في سجل لا يقبل النسخ... ولا التخفيف.

وشعر الحاكم بضيق في روحه، فنهر العبيد والعسس ووجه ركوبه إلى بستان قصر اللؤلؤة للتريض. وما أن بلغه حتى اشتد به الضيق، وتراءت له الأشجار جنوداً تحاصره، وكأن غصونها سيوف ممدودة نحوه تبغي إيثخانه طعناً وتمزيقاً، فقفل راجعاً إلى القصر، مكباً على وجهه وقاصداً اصطبل الطارمة، حيث أبى إلا أن يقضي الليلة بمعية حماره القمر، بعد أن أمر بإخلائها من الخيل والدواب. وهنا، وقد جلس في حلقة الليل بين شخير الحمار المنطرح على الأرض وروائح التبن والأبعار، صار يتكلم كأنما يهذي. وكان المسموع من كلامه كلمات ملغزة بهيمة، يكتنفها الكثير من الغموض والإشكال.

مع طلوع الصباح، والحاكم لما يزل معتصماً بالطارمة، دخل عليه حرسه وطلبوا منه أن يأمرهم بحمله إلى فراشه، فقبل إعطاء الأمر. وعلى فراشه استمر في المناجاة والهديان المصحوبين بالرعدة إلى أن أخذه نوم ساحق مرتج. ولما

استفاق كان ليله الأخير قد شرع في الحلول، وفيه نهض وناذى على المنجمين، فقيل له إنه قد نفى معظمهم وقتل أمهرهم، ولم يبق في البلاد إلا منجم أعمى تائه في ببداء جنونه ولا يعرف له مكان، فرفع الحاكم رأسه ونظر من ترعة إلى النجوم وقال: «ظهرت يا أيها النجم المشؤوم!».

بعد مدة من التفكير والنظر في السماء، قصد الحاكم أمه السيدة العزيزية، فقبل رأسها ويديها، وحدثها عن نجمه المنحوس، فبكت الأم بكاءً حاراً، وهي تطلب من ابنها ألا يركب الليلة أو يقصد جب الصحراء في جبل المقطم، كما هي عادته في كل ليلة. ورد عليها في خشوع وارتعاش:

- «عليّ في هذه الليلة وفي مطلع غد قطع عظيم، وكأني بك يا أماه قد انتهكت وهلكت على يد أختي، فإني ما أخاف عليك أضر منها، فتسلمي هذا المفتاح، فهو لهذه الخزانة، وفيها صناديق تشتمل على ثلاثمائة ألف «دينار» خذوها وحولوها إلى قصرك تكن لك ذخيرة»^(٢٥). إني أراك تقبلين الأرض وتتضرعين إليّ أن أحجم عن ركوبي الليلة، لكن نفسي ضائقة تنازعني: فإما أن أركب الليلة وأتفرج، وإلا فاضت روحي وبادت. فوداعاً، وإنا لله على كل حال وإنا إليه راجعون.

لما لم يبق من الليل إلا ثلثه، خرج الحاكم من قصره، وكان قوة غيبية تجذبه، فامتطى حماره، وقصد المقطم بعد أن أمر حرسه بالعدول عن اصطحابه، إلا من صبي كان يحمل له معه دواة وريشة وأوراقاً. وكانت ست الملك تراقب من نافذة قصرها كل أفعاله وحركاته. وما أن وصل إلى قمة الهضاب وتوغل في شعبها حتى صاح مكرراً: «لا بد لكم من موتي، لا بد لكم من

موتي»، ثم أفاق وصوته يميل تارة إلى العلو وطوراً إلى التراخي:

– هذه الليلة ليست كمثيلاتها. إنها العمق اللامتناهي الذي يجذبني إليه عبر جماله الطافح! ومتملياً نجوم سماء هذا الليل وكواكبه، أراني مشتاقاً متحنناً إلى علتي وإلى الكل الذي لا يتبعض. هي العين التي لا تنام قد أخذت تستهويني وتدعوني إلى ذخائر الخلد وخيرات ما بعد الموت.

كم أسترخض انقراض جسمي وفناء خلاياي، في هذا الليل الذي لم يلوثة انتباهكم ومسايعكم!

كم أستصغر أرضي بما رحبت، قبالة هذا الفضاء المعتم المرصع باللالء المضيئة!

لو أن روعي الآن طارت وفارقت محطات الفساد، لتمتزج بالعناصر، إذن لهان موتي وطاب.

لكن ما يؤرقني ويدمي كبريائي هو أن أقضي نحبي مغدوراً بأسلحة الرعاع، مشقوق الجوف مفصول الذراع.

وهذا نجمي المشؤوم يريني أن نهايتي ستكون بتدبير امرأة هي من أقرب النساء إليّ، وبسكين مغربي... ولهذه المرأة أن تأمر بقتلي، وأن تقتل قاتلي وكل من أدركه سرّ قتلي.

فيا ويل قائد كتامة منها! يا ويل كل متامر ضدي!

*

كان مقتل الحاكم بأمر الله في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وولايته خمساً وعشرين سنة وشهراً واحداً، ولو لم ينس القاتلون دفن جثة الحمار المعرقب لكانت

خطة ست الملك قد نجحت بالتعام. ولما كثرت بين القواد وفي البلاد الأسئلة والروايات. وبالرغم من ذلك الخطأ المادي، فقد عرفت الست كيف تردّ صعود العاصفة وكل السائلين بقول هاديء يسير:

- لقد أخبرني الحاكم أنه سيفيب مدة، وما تعلمون إلا الخير. أما القمر - وتقصد به اسم حمار الحاكم - فإما أنه مات من شدة التحمل والارهاق، وإما أن الحاكم قد قتله بنفسه، كما هدد بذلك مراراً.

طيلة الأسبوع الأول من اختفاء الحاكم، كانت ست الملك قد دخلت في سباق حاد ضد الوقت، إذ تبدى لها زمن الانتظار وفراغ كرسي الحكم كالسيف، إن لم تقطعه قطعها؛ فما كان منها، لربح رهانها، إلا أن بادرت إلى استحلاف الجنود من مغاربة وأتراك وتوزيع الأموال والهبات عليهم وإقطاع قوادهم وأكابرهم. ولتوسيع دائرة تحركها لم تجد بداً من اطلاع كبير الوزراء خطير الملك على سر مقتل الحاكم، أخذة منه على الولاء والكتمان ميثاقاً غليظاً، وأمرته بإحضار ولي العهد عبدالرحيم ابن إلياس من الشام والتكفل بارغامه على الانتحار، لأنها تأبى أن تنتقل الخلافة إلى أبناء عم الحاكم. فكان ذلك ما فعله خطير الملك بعد مدة، وتقول رواية زبانيته: حملنا إلى ولي العهد في زنزانته فواكه مسمومة، من تين ولوز ورمان، وقلنا له: هذا نصيبك من غلة هذا الفصل تهديك إياه مولاتنا، فكله هنيئاً مريئاً. وأخذ منا سكيناً وأدخله في بطنه حتى غاب، ثم التهم الفواكه التهاماً وهو يحتضر ويقول: تباً للحاكم ولعرشه! إني ذاهب إلى ربي بأسئلة مؤرقة لا تنتهي.

أما حين انطلقت الألسنة بين عامة الناس، وحتى في

صفوف القضاة والعدول، بغريب الأقاويل والإشاعات المفرضة في حق ست الملك، فإنها سارعت إلى استدعاء وفد عن هؤلاء، وقالت فيهم بلهجة حادة:

- ويحكم... أنتم ثقات هذه الدولة أو سفلتها؟ هل أنتم في ردة عن الإيمان بالغيبية والستر والباطن، وبدعائم دعوة الفواطم؟ هل أعدكم منذ الآن من الحشوية والمقصرة وأهل الظاهر، الذين أفتى فقهاؤنا وأئمتنا: أن لا معاد لهم، وأن عند موتهم لا تفارق أنفسهم أجسادهم، بل تبقى معاقبة فيها بفيض متصل من العذاب؟ أرجعوا عن غيركم، وارفعوا عني شبهاتكم، وتطهروا بماء الفضيلة وحفظ الأعراض، وإلا فانتظروا لعنة الله وعقاب امرأة من وراء حجاب.

عند تظاهر ست الملك بكل هذا الغضب والطهر، تهامس العدول والقضاة ببراءتها، وولوا خانعين، طالبين منها العفو والأمان، ففقت عنهم وأمنتهم من خوف.

بمجرد ما انتهت هذه الزوبعة الأولى والأخيرة، شعرت ست الملك أن وجه السلطة بدأ يخلو لها. فاغتتمتها فرصة يوم عيد النحر لتنصيب مرشحها على العرش ووضع التاج على رأسه، وهو الصبي أبو الحسن علي بن الحاكم الملقب من طرفها: الظاهر لإعزاز دين الله واستدعت إليها ابن دواس وخاطبته رأساً لرأس:

- أنا كما عهدتني وعاهدتك، فكن كما عهدتك وعاهدتني. صدور الأحرار قبور الأسرار، فاذا ذكر هذا ولا تنس. أما هذا الطفل فإنه أمانة أضعها في عنقك، فعليك أن تأخذ بيده وتعلمه إدارة دفة الحكم وزمام الأمور. والعز لدولتنا والبقاء!

كان ابن دواس، وهو يسمع هذا الكلام، ينحني ويقبل

الأرض ويعلن إخلاصه. وما أن أذنت له بالذهاب حتى نادى
على خدائير الملك وخاطبته بما خاطبت به ابن دواس، ثم أضافت
أمره:

– عليك أن تعد للخليفة الجديد مركباً فخماً بهياً، فتخرج
به على العبيد، وتخبر الرعية بأن مولاتك وسيدة الكل تقول
لهم: هذا مولاكم وراعيكم فبايعوه على الوفاء والطاعة.

كان لست الكل ما أرادت، وذهب خطير الملك في تنفيذ أمرها
مذهب الداهية البارع. وباستثناء غلام واحد أزهدت روحه
لأنه رفض البيعة الجديدة وقال برجعة الحاكم القريبة، فقد
قضى عبيد القصر يومهم وهم يقبلون الأرض ويمرغون خدودهم
على العتبات، ويتنافسون في إظهار علامات التطوع والامتثال.
وأتى الناس أفواجاً من كل فج وكل حرفة لإعلان بيعتهم
والتعبير عن فرحتهم.

بعيد مراسيم تنصيب الظاهر لاعزاز دين الله بقليل، وما
صاحبها من أفراح وحفلات، أعلنت ست الملك حداداً على
اختفاء الحاكم لمدة ثلاثة أيام. ومع انصرام هذه المدة، ظهر
وكأن كل شيء سار على ما يرام، وأن الأمور عادت إلى نصابها
والمياه إلى مجاريها والسيوف إلى أغمادها والألسنة إلى
سكونها... إلا أن انهواء داخل القصر الكبير العامر ما لبث أن
أتى بأخبار قبيحة وهمسات سليطة، باطنها تحريض ومفادها
شكوك حول براءة ست الملك من دم الحاكم المراق. وقد قوى
هذه الشكوك ما عرف عن فريق من الاخصائيين والخبراء في
الشم والتنقيب أنهم، بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أيام فقط،
أقدموا على تفتيش جبل المقطم من أسفله إلى أعلاه، فعثروا
قرب البركة التي بشرق حلوان أو بدير البغل على ثياب الحاكم،

وهي سبع جبات مزررة، ملطخة كلها بالدم. إلا أن ذلك الفريق لم يطلع الناس على اكتشافه، خوفاً من ست الملك وتقرباً إلى خليفة الوقت، وذلك إلى أن افتضح أمرهم وشاع خبرهم.

خندقت ست الملك على نفسها في غرفة نومها مدة يوم، تُعمل فكرها في تدبر الأمر وإعداد حله. وعند اقتراب الشمس من المغيب، طلعت في صدرها وعقلها أنوار قناعة لم تجد حيلة لدفعها وردعها. وفحوى هذه القناعة ومؤداها: أن من الأسرار الخطيرة ما لا يتسع له أكثر من صدر، وأن إرجاعها إلى سريرة واحدة ودفنها فيها يقتضي بالضرورة إتلاف السرائر التي تشترك في حملها. وبصريح اللفظ، رأت ست الملك أن سر قتل الحاكم، لكي يعود إلى قبر صدرها وتنعدم أسباب سريانه وشيوعه، لا بد من قتله بقتل حملته والمطلعين عليه. وتبدى لها أن هذا الفعل لن يخلي ساحتها ويطهر يدها من دم الحاكم فحسب، وإنما سيحقق أيضاً أهدافاً لا بد لاستتباب قواعد الدولة منها: أولها أن ذلك الفعل سيحررها من تنافسات ابن دواس وخطير الملك في النزوع إلى التعاضم والتجبر، مقابل الاحتفاظ بالسري؛ وثانيها أنه سيضع حداً لخرافة الغيبة والخفاء، التي قال بها آخر الدعاة في حق الحاكم، وسار بها في الأصقاع لدى سدج القوم وبين المتربصين بالدولة؛ وثالثها أن نفس الفعل سينهي قصة كل مجنون يدعي - قبل أن يقتل نفسه - أنه قاتل الحاكم، أو قصة كل متنكر يتشبه بالحاكم، ويظهر على الناس بصورته وبطلب الالتفاف حوله من أجل استعادة كرسيه وسلطته.

هكذا بادرت ست الملك إلى استدعاء نسيم الصقلي صاحب الستر، وقالت له بعد أن نهته عن الإفراط في تقبيل الأرض بين يديها:

- انهض يا نسيم وحدثني عن السر.

أجاب صاحب الستر وكله خشوع:

- السرّ يا سيدتي، في عرني وحرفتي، حلقة مدفونة أو عقدة محجوبة، وقد تتسع لها عينايا ولا ينطق بها لساني. والسر ما لا أقوى على فهمه أو أطلب فهمه. والسر، يا سيدتي، أسُّ ثمين ولبّ مخصوص، فإذا ذاع ضاع، وإذا ضاق صدر حامله، فصدر غير الحامل أضيّق. والسر في السياسة مفتاح السيادة، وفي الحرب من أسباب المباغثة والسحق. والسر، يا سيدتي، أعلاه وأقواه ما يحمله الانسان من الصدر إلى القبر. هذا بعضٌ يسيرٌ مما قاله شيوخنا وأكابرننا في علم السر وسر الأسرار.

قالت ست الملك وقد استحسنت هذه الإجابات:

- والآن يا نسيم، أنت تعلم مكانتك عندي، وهي نفسها التي كانت لك عند المرحوم أخي، بل هي أرفع وأعلى... إنك ولا شك قد أتاك كلام كثير في موضوع موت الحاكم، وأريد اليوم أن أضع له حداً، بإظهار ما انتهت إليه أبحاثي وتحرياتي في شأن اكابر الدولة الذين كانوا دوماً يظلمون بحتف أخي. فاخرج وقف في حضرة ابن دواس وقل للعبيد: مولاتنا اكتشفت وتيقنت أن سيف الدولة هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، ثم قل نفس الكلام في حق الوزير خطير الملك واطلب رقبته ورقبة كل من له صلة وثيقة بهذا وذاك. وبعد انتهاء مأموريتك عد إليّ لتخبرني بما فعلت.

فتش نسيم ورهطه عن ابن دواس في منزله فلم يجده، فقصدوا حارة الكتامين فألفوه يتفقد أحوال بني عصبته ويومي بعضهم ببعض خيراً. قال له صاحب الستر بأن مولاته

تطلب حضوره فوراً لأمر مستعجل، ولما اقتيد بعيداً عن الحارة، قال نسيم بما أوصته به ست الملك، فشهر الزبانية سيوفهم في وجه ابن دواس، الذي أخذ يدافع عن نفسه بسلاحه ويستنجد عبثاً بقبيلته وما هي إلا دقائق حتى انهار مثنخناً بالطعنات بعد أن قتل عشرين، وهمس وهو يحتضر:

- هربت من جحيم الحاكم فسقطت في فخ أخته فالية الأفاعي. سحقاً لدولة الأسرار والفجائع!

أما خطير الملك فقد كان وقتذاك في بيته يقص على زوجته رؤيا كابوسية، تلازمه كلما استبد به النوم، ومفادها أن الحاكم يظهر له تارة شبحاً مريعاً يخيره بين إفشاء سر مصرعه أو التعرض للشؤم والانتقام، وتارة أخرى في صورة امرأة شامخة تقبض على عنقه بأيديها المتعددة وتتلهى بخنق أنفاسه... ولا تجد زوجته حيلة لدفع أحزانه وهواجسه إلا في الخمرة التي غدت تسقيه بها أكواباً تباعاً، وتعبّ هي منها من حين لآخر. وحين بلغ بهما السكر منتهاه، قامت وجردته من كل ثيابه، وأخذت تتعري أمامه متباطئة متمايحة، وفي عينيها وحركاتها كل آيات الميوعة والاغراء، ثم انقضت عليه فاستقبلها فوق جسده الضخم بمبادلتها القبلة قبلتين والضممة ضميتين والاحتواء احتواءين، حتى صارا كأنهما جسم واحد وكيان لا انشقاق فيه ولا اختلاف. وبينما هما يتنانان من فرط الشهوة والفرحة وعلى قاب قوسين من اللذة العظمى، إذ اقتحم عليهما الغرفة نسيم وزبانيته، فانهالوا عليهما بالطعن كالصاعقة المبيدة، ومزقوهما تمزيقاً.

*

في الهزيع الأول من هذا اليوم الدامي، رجع نسيم لاهثاً

إلى حضرة ست الملك، وبمعيته العبيد الأشداء يحملون أكياساً
عامرة مختومة ملطخة بالدماء. قال بعد الانحناء:

– لك يا مولاتي ما أمرت به. هذه الأكياس السبعة تضم
أشلاء الملعونين خطير الملك وابن دواس وخمسة من أتباعها في
الغدر، والبقية ستأتي، فهل نعزل الرؤوس في كيس واحد
ونرمي بالأشلاء إلى السباع؟

صرخت ست الملك والدمع يغزو عينيها:

– لا، لن تكون هناك بقية، ادفنوا هذه الأكياس كلها في
حفرة واحدة بظاهر المدينة، وارفعوا أيديكم عن الرقاب، ودعوا
الدماء تجري في عروقها لا على حدود السلاح.

قال نسيم بلهجة لا يخفي تودُّها حزمها وصرامتها:

– وولي حلب الغلام أبو شجاع فاتك الوحيددي، هل نرفع
عنه سيوفنا يا مولاتي، وأمره منذ عهد الحاكم المرحوم لا يزيد
إلا شدة واستفحالة؟ فلقد تلقب بعزيز الدولة وأمير الأمراء
وتاج الملة، وضرب باسمه السكة، ودعا لنفسه على المنابر، ولا
أدري ما هو فاعل غداً إن ظلت مولاتي تهادنه وتروم رده
بالملاطفات والعطيات.

ردت ست الملك وقد سيطرت على انفعالها وتنبهت إلى عتاب
نسيم لموقفها:

– وهل تريد مني أن أبعث إلى حلب بجيش جرار يقطع
دابرها ويمحوها من وجه الأرض؟ ألا ترى أن ضرب رأس
ثعبان في حديقة خير من خنقه بتحريق الحديقة كلها؟ فاعلم
أني عاهدت نفسي ألا أعاقب بالقتل إلا بعد نفاذ ذخائري من
الحيل والاستمالات. وإني مع الغلام ولي حلب لا زلت أبحث

عن أخص حلقاته الضعيفة، لأمر منها إلى تنحيته أو إعدامه.

طأطأ نسيم رأسه وتصاغر كمن به حاجة إلى نيل الرضى
والغفران، ثم تحمس قائلاً:

- خير الرأي رأي مولاتي، وتوفيقه يأتي من الله ومن
تعويله على صحيح الأخبار. وأنت إن كنت تطلبين مكن
الضعف عند الشقي الذي شق عليك عصا الطاعة، فاسأليني
عنه أنا خديمك صاحب الستر، اسأليني أخبرك الخبر اليقين،
وأدلك على ما يفضحه وييسر حتفه. فأقول يا سيدتي، ولا حياء
في شؤون الدين والدولة، إن الغلام ولي حلب من أولاد
القحاب. معروف في أوساط الخبراء والبصاصين بنفوره
المتأصل من النساء، وشذوذ ميوله الجماعية، فلا زوجة له ولا
محبوبة، ولا وله ولا عشق إلا في صبي هندي يسميه الولد
المخلد، لا ينام إلا معه ولا يرقد له جفن إلا بغمزة منه، ولا
يطلب من الباري عز وعلا سوى أن يحشره معه يوم تحشر
الأجسام وتلتف الساق بالساق. هذا الصبي، يا مولاتي، هبة
لنا من الله وفرصتنا الثمينة، فلنحوله إلى أداة طيعة بين
أيدينا، نفتك بها عدو دولتك التليدة. وما أن نؤلب قلبه على
سيده بالكيفيات المخصوصة، ونقوي ساعده على عمل حمل
سيف الثأر حتى ندفعه إلى فلق رأس الخارج عليك، ونأمر
بقتل الصبي، والبقية من تدبير مولاتي وملهمة فكري
وأنشطتي.

لم تنبس ست الملك بكلمة، وإنما أومأت بإشارات الموافقة
والقبول، ثم هرولت نحو غرفتها، تتبعها كلمات وفاء نسيم
وطاعته. وعلى فراشها انطرحت، وبكت بكاءً حاراً، وتألمت لما

هي مضطرة إلى فعله في باب التصفيات الجسدية، رغماً عنها،
والله رغماً عنها!

قضت ست الملك أياماً قليلة تتنفس الصعداء، ويتلقى
جسمها من جاريات القصر الممرضات خدمات الغسل والدلك
والتجميل. وكانت طوال هذه الايام تلتذ بهذه الخدمات وتطلب
منها المزيد، والجاريات يتسابقن إليها ويتبارين في إنعاش
وتمتيع كل عضو وكل شبر من جسدها المبارك.

الحق أن ست الملك كانت خلال هذه الأيام كأنما هي تولد
من جديد، متحللة من مواسم الدم والفجيرة، ومستبشرة خيراً
بعلامات الوصول إلى شاطئ السلامة. فصارت تشرف على
تدبير شؤون الدولة بنفسها، والخليفة الظاهر يتعلم في ظلها
كيف يرقى إلى مستوى المسؤولية والقرار، وكيف يناقض
سياسة أبيه المظلمة المتناقضة. وما هي إلا مدة حتى أعادت
السلطنة ترتيب البيت الفاطمي ودواوينه وأمدته بأسباب
الأمان والبقاء، بدءاً بتطهير واسع النطاق لديوان المال، الذي
كان أيام الحاكم يرزح تحت نير إسرافه في المنح والاقطاع، وفي
شتى أنواع الرواتب المزيفة اللامشروعة. وصاحب هذا إرجاع
الجبايات والمكوس إلى النصاب المستحق وإلى وسط بين
الافراط والتفريط، فعادت بوادر الصحة إلى بيت المال وطلائع
الهدنة والوفاق بين الموارد والنفقات. وبموازاة مع هذه
الاصلاحات المالية المستعجلة، أقدمت ست الملك على دفع
الخليفة الظاهر إلى إبطال ونسخ كل السجلات الحاكمة في
المنع والتحريم، وفي التنكيل بالذميين وأهل الكتاب. وما أن
تليت متون هذه السجلات الجديدة على مسامع شعب مصر
حتى عادت الطمأنينة إلى كل القلوب وروح التسامح والتساكن
إلى جميع الملل والشيع والمذاهب.

لم يصدق الأهالي عودة الحياة إلى ربوعهم حتى شرعوا بالفعل في ممارسة حقوقها وامتطاء أجنحتها، فخرجوا إلى الحارات والشوارع والأزقة، نساءً ورجالاً، من كل الأصناف والأعمار، يهللون ويكبرون، ويدعون للخليفة ولعمته بالفوز والنصر والتمكين، وعلى أعدائهما بالخيبة والنكوص والسحق المبين. وكانوا يشكلون المواكب ويتنافسون في التراشق بالورود وشتى النباتات الزكية، ويتجاهرون بالكلمات الطيبات في حق بعضهم بعضاً، وذلك تعبيراً عن فرحة عارمة ونعيم ما بعده إلا نعيم الجنة.

لقد ازداد شعب مصر إيماناً بزوال الدخان الحاكمي وانجلاء ظلام ليله المديد، حيث صارت النساء يخرجن في العشيات للتجول على ضفاف النيل، وعادت الملاهي إلى فتح أبوابها، وصار اقتناء النبيذ وشربه في حكم المباح. وأما الأعياد فقد شرعت جميعها لكل المصريين، وعادت إليهم ببهاء أكبر ورونق لا يُضاهى. عادت إليهم بأسمطة الطعام والشراب، كل سماط طوله ميل أو أكثر، يعج بالخرقان المشوية، وصحون الدجاج والفراريج والطيور وفراخ الحمام، وأطباق الأجبان والحلويات، وغيرها. وكان الوافدون، لهم من طبقات كل الشعب، يأكلون ما يقدرون عليه، ويحملون معهم ما يتبقى. ولم تعد هذه الأسمطة مقصورة على عيدي الفطر والنحر، بل شملت أيضاً مواسم الفاطميين التقليدية، كموسم ليلة فتح الخليج أو وفاء النيل وموسم ليالي الوقود الأربع، وكذلك أعيادهم المذهبية المعروفة. وحتى أعياد الأقباط كالنوروز والشهيد أو بعض أعياد النصارى، فقد حولها المصريون إلى فرص للاحتفال بالحياة ونسيان العهد الحاكمي.

في ظلمات عهد الحاكم كانت المشاعل لا توقد ليلاً في المدينة إلا برغبة وأمر من الطاغية، أما اليوم فإنها تعم الأرجاء البرية والمائية بوحى من فوران الأفراح والمسرات في صفوف الأهالي، وبالأخص منهم أشقياء العهد البائد. ولا أدل على عودة الروح إليهم من رفع قوانين الاعتقال المنزلي والاقامة الاجبارية عن النساء، ومن انتعاش حماماتهم وتكاثر الأساكفة والخياطين والمجملين في خدمتهن. فما أسعد العين بما صارت تشاهد معهن! فلول من الفتيات الفاتنات تحفل بهن زوارق النيل وشطوطه، ويزركشن ويعطرن كل فضاء تشرف بجولاتهن أو تبرجهن. وما أسعد الفتى الأعزب المحروم بما أمسى يراه وينعم به كل عشية وفي ليالي المواسم والأعياد! هذه ثلثة من الحسنات يمررن به نشاطات خفيفات، يمضغن العلك ويتجاذبن أطراف الحديث؛ وهذه ثلثة أخرى منهن يتجمعن حول مشعل أو بركة مضاءة، يغنين وينشدن الأشعار؛ وهذه ثلثة أخرى منهن يجدفن في قارب على وقع عازفة بالناي، وشعورهن أشرعة خفاقة، وصدورهن مفتوحة للثم الأمواج...

أمام كل هذا الجمال الطافح، كان الفتى، وكل مشاهد مهما كان عمره، وكل ذواق خبير لا يملكون إلا أن يتنهدوا ويطلقوا أهات الإعجاب والانبهار، التي لا توازيها إلا أهات الحسرة والمرارة على إقبار كل هذا الجنس اللطيف والكنز المكنون بين الجدران أيام عهد الحاكم الغاشم.

*

خارج قيود القمع والمنع وسنن القتل والاضطهاد، وبعيداً بعيداً عنها، للعيش لوز يروق وطعم يطيب ورائحة تنعش وترريح. لهذا العيش أن يلبي دعوة المحب إذا أحب والقائل

بالخير إذا قال والساعي بالجمال إذا سعى. وقد كان لست
الملك أن تعرف نصيبها من هذا العيش وتتلقى شحناته نعيماً
وسلاماً، لولا انبعاث بقية من دخان الحاكم، تمثلت في آخر
كبار دعائه الدرزي، الذي - بخلاف حمزة والأخرم - لم يمت
بعد ولم يقتل، بل ظل في جبل الشام يدعو إلى ألوهية الحاكم،
ويقول بحلول الروح المقدس فيه من آدم وعبر علي بن
أبي طالب، ويُعمل كل بلاغته وفصاحته لإقناع كافة القوم
باقتراب رجوع الحاكم بعد اختفائه، ليملا الأرض عدلاً كما
ملئت ظلماً. ولقد كانت ست الملك تعوذ بالله مرتجفة مستنكرة
كلما سمعت ما ينقل لها عن الدرزي من أنه يصدر الفتاوى في
اتباعه بفاتحة هي: «باسم الحاكم الرحمن الرحيم»، وأنه يحل
المحارم ويسقط العبادات وأحكام الشريعة.

أمام هول هذا الخطر، بادرت ست الملك إلى تكوين خلية
تفكير برئاسة الخليفة لاعزاز دين الله. وكان كل أعضاء هذه
الخلية يميلون إلى مواجهة الدرزي بجيش توكل إليه مهمة
سحقه وسحق كل أتباعه ومريديه. إلا أن ست الملك رأت من
الأحسن والأنجع قطع دابر الداء بضرب رأس الثعبان وكسر
شوكة الفتنة.

قالوا لها: وكيف لذاك أن يتأتى، يا سيدة التأمل والرأي
السديد؟

قالت: «حقناً لدماء الأبرياء والأتباع الأغرار المخدوعين،
سنكتفي بدس رجل بين صفوف الداعية المفتري، يكون عالماً
بفنون التنكر والخداع، فيظهر له الولاء، والتعصب لدعواه،
حتى إذا ما نال ثقته ورضاه تحين الفرصة المثلى للفتك به
والإتيان إلينا برأسه».

بعد مضي أقل من شهر على تنويه أعضاء الخلية برأي ست الملك ورفعته إلى سدة القرار الجماعي، رجع الفارس الكتامي الذي عين لتلك المهمة برأس الدرزي وبثلاثة رؤوس أكبر المتعصبين له والمقربين إليه، فعمت الفرحة قلوب المطلعين على هذا الفوز الوافر، وكان الدعاء لست الملك بالمزيد من النص والتمكين.

لما عرضت الرؤوس المقطوعة للمشاهدة، أخذ الخليفة الظاهر ينكتها بخيرزانه، وأعضاء الخلية يبصقون عليها، إلا ست الملك فقد أبت استقبالها أو النظر إليها، وبادرت إلى الأمر بإحاقها بمخزن الرؤوس المغضوب عليها، قبل أن تعتصم بغرفتها ساعات تبكي لما كانت منقادة إلى فعله في حق الدرزي، رغباً عنها، والله رغباً عنها! وبكت أكثر لعجزها عن حل مفارقة معضلة عتية، تكشفت لها في صورة مخيفة: فلوقف نزيف الدم لا بد من إراقة الدم. ولم يكن يبعد عنها هذه الصورة ويطمسها إلا يقينها الفرح من أن أسباب أي فصل دموي جديد قد زالت مع استحالة انبعاث الحاكم من رماده، وأنها ستمحي أكثر يوم يتأتى عقد صلح مشرف مع امبراطور بيزنطة باسيل الثاني، يتعهد هذا الأخير بموجبه بالكف عن مساعدة أعداء الدولة الفاطمية والخارجين عليها، في مقابل عودة نصارى مصر إلى التمتع بالحقوق والحريات التي يحددها الإسلام.

*

في ذلك اليوم الأغر الذي تبخر خلاله الدخان الحاكمي عن آخره ولم تبق منه بقية، كان الربيع قد حل في أرجاء الديار الفاطمية فصلاً لم ير المصريون من قبل أروع منه ولا أبهى،

فالليل وافر المياه، يحفل بالحياة ويعب من زرقاة السماء
ونصاعتها، والشمس في أوجها تسربل الأرض والخلق بدفء
رحيم، والقمر يضيء كل الرحاب والسطوح ويعطي المزيد لكل
المحبين، والصحراء تسهم في عرس الطبيعة هذا بريح لطيفة
تتلقاها كل الأبدان ملء الصدور عبيراً دافقاً ونِساماً.

في هذا الفصل الربيعي، كانت ست الملك تشعر بنعيم عارم
لا عهد لها به من قبل. فكانت تكثر من خلواتها بين أحضان
حدائق قصرها، حيث الخمائيل والورود والأشجار تكتسي كلها
حلل الطيب والبهاء، وحيث الطيور والفراشات المتوافدة تملأ
المجال بأجمل الأنغام والألوان. ومجمل هذا الدلال، كانت ست
الملك، ككل الذين تعودت عيونهم على الهول والويلات، تكاد لا
تصدقه أو تطيقه. فكان لا بد لها فيه من جلسات ومؤانسات
متوالية، لا يعكر صفوها سياسة أو دم مسال.

وذات مساء ربيعي، والشمس لا تفصلها عن مرقدتها إلا
مرحلة، وبينما ست الملك في أروع موضع من حدائقها تجالس
حسن الطبيعة وتناغيه، وتشتعل عيناها ويحمر محياها تأثراً
وانفعالاً، وبينما هي كذلك تتلقى بشعرها وكل أطراف جسمها
هبات عبر ناعم أخاذ، إذ أطبقت جفניה واستسلمت لنوم
سبحانه وسبحان صانعه! وما إن غرقت في نومها واستبدت
بعمقه حتى رأت فيه نفرأً من الشعراء الحفاة العراة اللاغطين
بأشعارهم، كل يقرأ ما عنده وينتزع من جسمها مقابله لمسة
أو قبلة... وهدأ الشعراء كلهم وتصاغروا لما ظهر فحلهم
فأقحمهم ببيت واحد في هواه لست الملك، قال ويداه تسبقان
كلماته إليها.

يا حبيب العمر عطفاً فإني بهواكم على لظى أتقلي

ثم اقتحم المكان فحل الفحول، فأنشد في باب الهوي:
لهواك بين جوانحي كتبُ قد عُنوت بالدمع والسهرِ
وأخيراً أتى شاعر عجيف طروب، يغني صدور مقطع،
وتصحبه جوقة من المخنثين يرددون أعجازه، ويقرصون كل
معارض أو متضايق:

ليس عذري في هواكم قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي لا أبالي لا أبالي

ظل الشعراء يتنازلون ويتقارعون بالقصائد والكؤوس، إلى
أن استووا كلهم وتعادلوا في أبراج السكر والعريضة، فتعانقوا
وتبادلوا القبلات وأوسمة الفوز، ورددوا مراراً مترنحين
راقصين: قد حلا لي قد حلا لي...

لم ينقطع ضوضاء الشعراء من حول ست الملك وتنافسهم
على نيلها إلا بعد أن أتى على جناح السرعة أكابر الدولة
وقوادها: ابن دواس وخطير الملك والدرزي، فطردوا الشعراء
شر تطريد، ثم شرعوا في تجريد ست الملك من ثيابها، عابثين
بجسدها لمساً وضماً وتقبيلاً. وحين طلبوا جماعها، أراد كل
منهم أن يكون له في هذا قصب السبق، فقوي اللجاج بينهم
والسب والتلاعن، فاحتكموا إلى القرعة ولم يفلحوا، وإلى
السيف فتنازلوا وتعاركوا، وكانت الغلبة للزعيم الكتامي
الحسين بن دواس، الذي ما أن استرجع أنفاسه وهدأ لهثه
وعلا تليذه بانتصاره، حتى أخذ يتعري ويعد العدة للهجوم
على جسم ست الملك العاري واغتصابه قصاصاً منها وانتقاماً.

وإذ انقض عليها وشرع يحركها ويوطدها من تحته، وهي تستعصم وتستغيث، هرع إلى عين المكان نسيم صاحب الستر وابن مسكين صاحب الرمح وزبانية من العبيد، فأزاحوا عن سيدتهم ابن دواس وعاجلوه بطعنات قاتلة؛ ثم ما لبث العبيد أن سجدوا لها وقصدوها زاحفين، فاستلقوا عليها كتلة ماحقة، هذا يبوس أطرافها ويجتهد، وذاك يعصر نهدتها ويبارك، وآخر يحتك بها احتكاكاً؛ فما كان من ابن مسكين إلا أن أعمل فيهم الرمح وأرداهم قتلى وجرحى. ولما رأى نسيم أمارات الشبق والزيغ في عيني ابن مسكين، أخذ منه الرمح وصرعه به.

لم يبق بعين هذا المكان المكتظ بالقتلى والمحتضرين إلا نسيم وست الملك، وليلٌ يودع آخر ظلماته، وصمتٌ كوني لا يعكر صفوه إلا جرحى كانوا يئنون وينزفون ويقذفون بأخر منيهم. وفي هذه الحلقة الأخيرة من رؤيا ست الملك، وقف نسيم أمامها وتعرى قائلاً:

– حافظ كل الأسرار يا سيدتي، والفائز في كل هذه المعارك يا مولاتي، خصي، كما ترين، وعاجز عنك، كما ترين. والآن وأنا على عتبة الموت، لم أعد أقوى على إخفائك سر فنائي فيك بالعشق والحب. فأنت معبودتي وأنت حجتى ودليلي في هذه الحياة ويوم البعث. وهذا السر المتأجج بين أضلعي هو الذي كان يدفعني إلى اغتيال عشاقك تباعاً، وجعلني أخلصك من كل الذين شاركوك سر مصرع الحاكم بتدبير منك. وعليك الآن أن تقتلي سري بقتلي، وإلا أفضيتُ سرك وقتلتُ نفسي.

لم تنبس ست الملك بكلمة، لأن بطنها كان يتقرح، وقلبها يخفق بقوة، وتنفسها يتعثر، كأنما هي تعاني من سكرات الموت. وأمام إصرارها على الصمت اقترب نسيم منها، فأفرغ

في فمها قارورة سم، وتجرع هو ما في أخرى، ثم تمدد جنبها
يرضع من ثديها، وينتظر أن يأتيهما ملك الفناء المحقق.

*

وفي صباح اليوم السابع من الفصل الربيعي للسنة الرابعة
عشرة بعد المائة الرابعة، عثر على جثمان ست الملك وهي تخلد
إلى نومها الأبدي، وتظهر كحورية من حور الجنة. عثر على
الست وقد اشتعل شعرها بياضاً واستقرت على وجهها تجاعيد
زادت محياها جلالاً وإشراقاً.

كانت مراسم دفن الست في المقبرة الخليفة بسيطة
متواضعة كما أوصت، وسارت وراء نعشها جماهير غفيرة
تنظم كلها في شعور حداد يفوق اتساعاً واكتساحاً شعور
الشيعة في سماط الحزن يوم عاشوراء. وبعد وضع السلطانة
في مثاها الأخير، ظل المصريون لمدة أسبوع يمشون حفاة،
ويلبسون الثياب القاتمة، ولا يأكلون إلا خبز الشعير والعدس
الأسود والأجبان والمملحات، وعطلوا تجاراتهم وعمروا جامع
الأزهر وكل بيوتات الله بالتراتيل والأناشيد في الترحم
والابتهاال.

في ساعات ذلك الاسبوع المأتمى كانت مقابر القاهرة
وحاراتها تعرف مرور فتى موله، في خده خال، أسمر اللون،
براق الثنايا. وكان يهيم على وجهه ولسان حاله يردد:

أين مني الآن الكتابُ المحروق؟
أين أبعدَ الليلُ الحجريُّ عني فتاةَ الشروق؟

*

لم تمض على وفاة ست الكل سنة حتى كان المصريون، على

عهد الظاهر لإعزاز دين الله، منهمكين في إخراج كل مكبوتاتهم ومطاردة مخاوفهم ومضغوظاتهم، وذهبوا في هذا مذهب الغلو والانفجار، وجاروا خليفتهم في ولعه بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغاني، ومن ذاك مثلاً:

«أنه كان ثالث فصح النصارى فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حُملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر، فكان المنكر شديداً في هذا اليوم»^(٢٦).

«وفي سنة ثمان عشرة شرب الظاهر الخمر، وترخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع وأكل الملوخيا وسائر أصناف السمك، فأقبل الناس على اللهو»^(٢٧).

«ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنين وثلاثين سنة إلا أياماً. فكانت خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً. وكان مشغوفاً باللهو محباً للغناء، فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً»^(٢٨).

**** معرفتي ****

www.books4all.net

منتديات سور الأزيكية

هوامش ومراجع

هوامش

- (١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣)، ج ٤، ص ١٨٦.
- (٢) المصدر نفسه، ص ١٩٦.
- (٣) المقرئزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (القاهرة، ١٩٧٢)، ج ٢، ص ٣٥.
- (٤) بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٢٠٢. ويذكر ابن تغري بردي ان في تلك السنة: «توفي الحسين بن أحمد بن الحجاج أبو عبدالله الشاعر، كان من أولاد العمال والكتاب ببغداد، وتولى حسبة بغداد لعز الدولة بختيار بن بُويّه، فتشاغل بالشعر والسخف والخلاعة عما هو بصنوده. قلت: وابن الحجاج هذا يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي، وغالب شعره في الفحش والأهاجي والهزل.
- (٥) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ ج، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ج ١٢، ص ١٠.
- (٦) يذكره محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة، ١٩٥٩)، ص ١٢٨، نقلاً عن المخطوط الكنيسي، سير البيعة المقدسة (من دون ثبت الصفحة).
- (٧) المقرئزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ص ٥٥.
- (٨) مذكور بتاريخ مخطيء في «أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بيروت: دار الفكر، ١٩٨١)، ج ٤، ص ٧٦.

- (٩) المقرئزى؁ المصدر نفسه؁ ص ٩٧ .
- (١٠) المصدر نفسه؁ ص ٧٧ .
- (١١) برءى؁ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة؁ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- (١٢) المصدر نفسه؁ ص ٢٢٢ .
- (١٣) القلقشنءى؁ صبح الأعى؁ ١٤ ج (بىروت: ءار الكتب العلمفة؁ ١٩٨٦)؁ ج ١٠؁ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .
- (١٤) المصدر نفسه؁ ص ٤٤٣؁ ١٢ ج .
- (١٥) ابن الأثر؁ الكامل فى التارىخ؁ ١٢ ج (بىروت: ءار الكتاب العربى؁ [ء.ت.]؁ ج ٧؁ ص ٢٢٦ .
- (١٦) المقرئزى؁ اءعاظ الءنفا بأءبار الأءمة الفاطمفئ الءلفا؁ ص ٦٤ .
- (١٧) المصدر نفسه؁ ص ٦٦ .
- (١٨) برءى؁ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة؁ ص ٢١٦ .
- (١٩) المصدر نفسه؁ ص ٢١٧ .
- (٢٠) المصدر نفسه؁ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
- (٢١) المقرئزى؁ اءعاظ الءنفا بأءبار الأءمة الفاطمفئ الءلفا؁ ص ٥٤ - ٥٥ . والراءء ان المقرئزى فئقل الءبر عن المسءى الذى لم فاصلنا تارىءه .
- (٢٢) الكرمانى؁ رسالة «مباسم البشارات بالامام الءاكم بأمر الله»؁ منءورة فى: محمد كامل ءسفن؁ طائفة الءروز (مصر: ءار المعارف؁ ١٩٦٢)؁ ص ٥٥ .
- (٢٣) برءى؁ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
- (٢٤) المقرئزى؁ اءعاظ الءنفا بأءبار الأءمة الفاطمفئ الءلفا؁ ص ١٥ .
- (٢٥) برءى؁ المصدر نفسه؁ ص ١٨٧ .
- (٢٦) المقرئزى؁ المصدر نفسه؁ ص ١٢٧ .
- (٢٧) المصدر نفسه؁ ص ١٢٩؁ والمقرئزى؁ ءطط المقرئزى: المواءظ والاعءبار (بىروت: ءار صاءر [ء.ت.]؁ ج ١؁ ص ٣٥٤ .
- (٢٨) المقرئزى؁ ءطط المقرئزى؁ ص ٣٥٥ .

مواد أُخر تم التخييل على ضوءها

ابن أياس. بدائع الزهور في وقائع الدهور. بولاق، ١٢١١ هـ. ج ١.
ابن الجيعان. التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية. القاهرة: نشر
مورتنز، ١٨٩٨.

ابن حوقل. المسالك والممالك والمفاوز والمهالك. ليدن، ١٨٧٢.
ابن خلكان. وفيات الاعيان، تحقيق احسان عباس. بيروت: دار صادر،
[د.ت.]. ج ٥.

ابن سعيد الانطاكي، يحيى. صلة تاريخ اوتياخا. بيروت: نشر شيخو،
١٩٠٥.

ابن العديم. زبدة الحلب من تاريخ حلب. دمشق: نشر سامي الدهان،
١٩٥١ - ١٩٥٤. ج ١ - ٢.

ابن ميسر. أخبار مصر. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩.

ابن النعمان. دعائم الاسلام. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣.

— الهمة في اتباع آداب الأئمة. القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت.].

الأزدي، علي بن ظافر. الدول المنقطعة. نسخة بدار الكتب بالقاهرة تحت
رقم ٨٩٠.

الاصفهاني، مقاتل الطالبين. النجف: المطبعة الحيدرية، ١٢٥٢ هـ.

البغدادي، عبداللطيف. الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث
المعينة بأرض مصر. القاهرة: مطبعة المجلة الجديدة، [د.ت.].

البكري. المغرب في ذكر افريقية والمغرب. الجزائر: نشر دي سلان،
١٩١١.

دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الجديدة). مواد: «الحاكم بأمر الله»،
«الفاطميون»، «اسماعيلية»، «باطنية»، «فاطمة»، الخ.

ساويرس بن المقفع، أسقف الأشمونين. كتاب سير الأباء البطارقة، وملحقه سير البيعة المقدسة، خزانة باريس برقم ٦٤٢٤ ح.

سبط بن الجوزي، قزاوغي. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. مخطوط في خزانة باريس برقم ٥٨٦٦، ج ١١.

السيوطي. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان. القاهرة، ١٣٢٦ هـ.

الشيال. مجموعة الوثائق الفاطمية. القاهرة، ١٩٥٨.

الصابي، أبو هلال. تاريخ، المذيل به على تاريخ ثابت بن سنان، وتوجد منه شذور في النجوم الزاهرة وتجارب الأمم.

الكرمانى. راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٧.

الرسالة الواعظة في نفي دعوى الوهية الحاكم. نشر محمد كامل حسني، مجلة كلية الآداب، القاهرة: عدد (أيار/ مايو ١٩٥٢).

الصيرفي. الإشارة الى من نال الوزارة. القاهرة، ١٩٢٤.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. الولاة والقضاة، بيروت: جست، ١٩٠٨.

مسكويه. تجارب الأمم. القاهرة: نشر أمدرود، ١٩١٥ - ١٩١٦.

المكين بن العميد. تاريخ المسلمين. ليدن، ١٦٢٥.

النويري. نهاية الإرب في فنون الأدب. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٦. ج ٢٠ - ٢٦.

فهرس

- مدخل الدخان ٧
- الباب الأول: من طلعات الحاكم في الترغيب والترهيب ... ٢٧
- I عن سجلات الأوامر والنواهي ٢٩
- II العبد مسعود، أو آلة العقاب اللواطي ٤٩
- الباب الثاني: في المجالس الحاكمة ٦٥
- I الجلوس في دهن البنفسج ٦٧
- II الجلوس لطلب الدهشة ٨٣
- III الجلوس للإلهيات بين الدعاة ٩٧
- الباب الثالث: زلزال أبي ركوة، الثائر باسم الله ١٠٩
- الباب الرابع: من آيات النقض والغيث ١٩٩
- I بين النكته والانتقام: مصر تحترق ٢٠١
- II السلطانة ست الكل ٢٣١
- هوامش ومراجع ٢٦٥

إشارات

سالم حميش

بن سالم حميش أو سالم حميش (اسم الشهرة) أستاذ الفلسفة
في جامعة الرباط (المغرب)
حاصل على دكتوراة الدولة في التاريخ من جامعة السربون
بباريس (1987).

باحث وشاعر وروائي، من أعماله الأخيرة:

- أبيات سكنتها وأخرى (دار الطليعة بيروت 1996).
- العلامة (دار الآداب، بيروت 1997).
- في بلاد أماتنا (بالفرنسية، الرباط 1997).
- الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ (دار الطليعة، بيروت)
- فازت روايته مجنون الحكم بجائزة «الناقد للرواية» دار
رياض الريس لندن 1990.

صدر من هذه السلسلة

- 1 - عيون الغبراء فتحى غانم
- 2 - السرداب رقم 2 يوسف الصائغ
- 3 - حكايات للأمير يحيى الطاهر عبد الله
- 4 - مجنون الورد محمد شكرى
- 5 - نجمة كاتب ياسين
- 6 - نهر المجرة عبد الوهاب البياتى
- 7 - السد محمود المسعدى
- 8 - بناية ماتيلد حسن داوود
- 9 - سرير لعزلة السنبله محمد الأشعري
- 10 - حجر الضحك هدى بركات
- 11 - سأهبك غزاة مالك حداد
- 12 - الخماسين غالب هلسا
- 13 - حزن فى ضوء القمر محمد الماغوط
- 14 - مختارات وديع سعادة
- 15 - سباق المسافات الطويلة عبد الرحمن منيف
- 16 - دعوا الشقاء سالماً عباس بيضون
- 17 - أف ! زكريا تامر
- 18 - مجنون الحكم سالم حميش

رقم الايداع : ٩٩/١٨٨٧

شركة الأمل للطباعة والنشر
ن: ٣٩٠٤٠٩٦

مجنون الحكم

تماشياً مع رغبة الحاكم في إحدى لحظات صفوه ونقده الذاتي
النادرة ، نسجل أن رواية مجنون الحكم تأخذ على عاتقها
الصدع بما يتناساه المورخ ويسكت عنه ، أي الصرخات
المضمرة والتمزقات المستشرية والحقائق الحية

خوان غويتصولو

أفاق  الكتابة

شركة الامل للطباعة والنشر